

طه حسين

حديث الأربعة

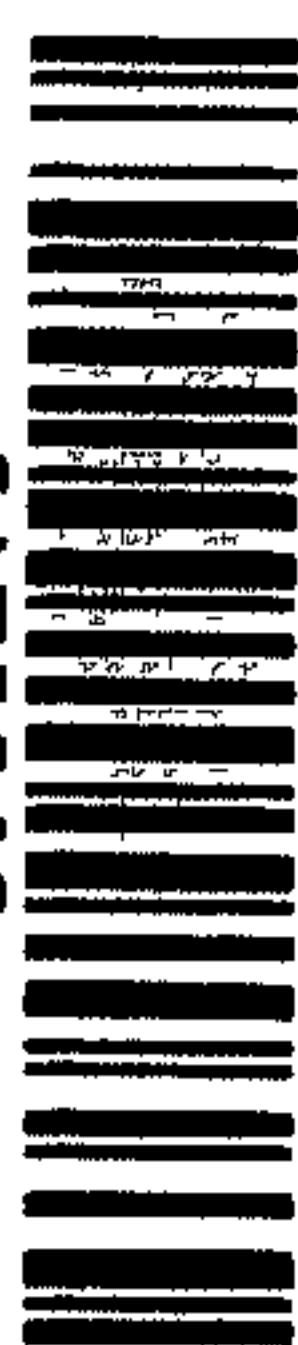
٣



دارالمعارف



Bibliotheca Alexandrina



0138262

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story

طه حسين

حديث الأربعاء

٣

الطبعة الثانية عشرة



دارالمعارف

فهرس

| صفحة | صفحة |
|------------|---|
| ... | أسلوب في العتب ٥ |
| ١١٥ { | أسلوب في العتب ٩ |
| ... | القديم والحديث ١٠ |
| ١٢٥ | الذوق الأدبي ١٤ |
| ... | حول أسلوب في العتب ١٩ |
| ١٣١ { | حول أسلوب في العتب ٢٠ |
| ... | القديم والجديد ٢٢ |
| ١٤٠ | القديم والجديد ٣١ |
| ١٥٠ | لغتنا الرسمية منذ قرن ٣٧ |
| ١٥٨ | الشيخ محمد المهدي ٤٠ |
| ١٦٣ | علم الأخلاق لأرسطاطاليس ٤٧ |
| ١٧٠ | رد على كتاب - مهذب الأغاني ٥٨ |
| ١٧٨ | تهذيب الكامل - مدامع العشاق ٥٨ |
| ١٨٦ | عود إلى مهذب الأغاني ٦٧ |
| ١٩٥ | بلاغة العرب في الأندلس ٦٧ |
| ٢٠٢ | النقد والأدب والحرية ٧٨ |
| ٢٠٨ | شعراؤنا ومترجم أرسطاطاليس ٨٤ |
| ٢١٣ | مختارات سلامة موسى - مطالعات في ٩٤ |
| ٢١٩ | الأدب والحياة للأستاذ عباس محمود العقاد ٩٤ |
| ٢٢٤ | جان جاك روسو - أشهر قصص الحب ١٠٦ |
| | التاريخية - رسائل الأحران ١٠٦ |

كان نشر هذا الكتاب للأستاذ مصطفى صادق الرافعي
- رحمه الله - في جريدة السياسة مثاراً بلحداً عنيفاً وخصوصة
خصبة لها في تاريخ الأدب العربي الحديث أثر أى أثر .

لذلك رأيت أن أثبت نص هذا الكتاب ، ليستطيع
القارئون من الشباب الذين لم يشهدوا هذه الحصومة أن يتبعوها
واضحة جلية .

وهذه الفكرة نفسها قد اقتضت أن أنشر في هذا الجزء
فصلاً يتصل بهذه الحصومة قد نشر في الجزء الثاني من
حديث الأربعاء ، لتكون قضية الحصومة بين القديم والجديد
كاملة . ولن يعاد نشر هذا الفصل في الجزء الثاني ؛ لأن
مكانه في هذا الجزء .

أسلوب في العتب

سيدي الفاضل الدكتور حسين هيكل بك
أرسل إلى السياسة هذه الرسالة عاتبت بها ظريفاً من أدباء الشام كنت
كبت إليه فتفتت في رد كتابي ؛ لأن جماله ظرف وظرفه جمال ، وهما إذا اجتمعا
كان لهما حكم خاص في قانون الرسائل .

وقد كتبها من النمط الأول الذي هو فن من زينة البلاغة العربية يشبه
بعض فنون الزخرف والتنسيق ، وهو حين يكون في مثل هذه الرسالة لا يكون
أبداع منه شيء من الأساليب الأخرى .

فأرجوكم الحفاوة برسالتى هذه في السياسة الغراء ، والتمهيد لها بما يبين
عن سبب كتابتها . حفظكم الله للمخلص :

مصطفى صادق الرافعي

سيدي :

كبت إليك من أيام يشفع لها قربك من نفسي فلا أقول إنها بعيدة ،
وتمر قديمة ولكن ما في هذه النفس منها يجعلها دائماً جديدة ، وكأنها تجري
بي إلى الفناء فهي تطول إلى غير حد ، وتأخذ معنى اليأس من كل أمس فتسوخ
به معنى الأمل في كل غد ، وأرى الأيام تعد بالأرقام أما هي فقد جعلتها أنت
تعد بأنها لا تعد .

وانتظرت ردّ خطابي وأن تلي إلى ورقة من شجرة عتابي ، فما زالت تنقطع
الساعة من الساعة ويلتقي اليوم باليوم ، ويذهب اللوم إلى العتاب ويبيء
العتاب إلى اللوم ، وكتابك على ذلك كأنه الدهول نوم اليقظة أو السهد
يقظة النوم .

فسبحان من علّم آدم الأسماء كلها لينطق بها ، وعلمك وحدك السكوت....
والسلام عليك في أزلية جفائك . أما أنا فأقول « والسلام على يوم ولدت ويوم

أموت . ما هذا ياسيدى وليس خيط العمر في يدك ، ولا أمس الضائع بمعوض على من غدك ، ولا أنا أقل من «أنا» ولا أنت أكثر من «أنت» ، ولا أعلمتنا من قبل أنك مع القدر تحركت ومع القدر سكنت . أتراك لما خفت المحاكم في قتلى جعلت تقتل بهجرك أيامى ؟ ولما عرفت أنك من سرورى أردت أن أعرف أنك من آلامى ؟ أم أنت في نورك وظلامك تفعل ما يفعل الليل والنهار ؟ أم أغراك بنا ذلك الذى قال خلقته من طين وخلقتنى من نار ؟ أم تحسبنا خلقنا بهذه الرقة لنعرف كيف يتحجر قلبك ويحمد ، وأنبتنا الله في هذا العمر لتجىء أنت يا صاحب «المزرعة» فتحصد ؟ أم خلقت في يد الله إرادة ماضية وخلقنا عليك اتكالا ، وجثنا على الطاعة شكلا واحداً وجثت أنت من يد الله أشكالا ؟ !

فإن كان قلبك شيئاً غير القلوب فما نحن شيئاً غير الناس ، وإن كنت هندسة وحدها في بناء الحب فما خلقت أيماناً في طولها وقصرها للقياس . وهب قلبك في هذه الهندسة مربعاً أفلا يسعنا ضلع من أضلاعه ، أو مدوراً أفلا يمسكنا محيطه في انخفاضه وارتفاعه . وهبه مثلثاً فاجعلنا منه بقية في «الزاوية» ، أو مستطيلاً فدعنا نمتد معه ولو إلى ناحية .

ما بال كتابنا - حفظك الله - يمضى سؤالاً فيبقى عندك بلا «جواب» ؟ وبنينه على حركة القلب فتجعله أنت مبنياً على السكون ولا محل له من «الإعراب» ، وما بالناس نقطع في انتظار الرد مسافة من هجرك لو طار فيها البريد لانهى بكتب الحسنة والسيئات إلى السماء ، ولو جاس خلال الأرض لتقدم حتى لا يبقى أمام وتأخر حتى لا يبقى وراء ؟ ! فإن كنت تضمن أن توجه إلينا من عرشك خطاباً أو تنزل علينا من سمائك كتاباً ، فقد أقفل باب النبوة من قبلنا فما هذا الباب ، واحتجب الوحي من زمن بعيد فما هذا الحجاب ؟ !

لعلك تخشى إذا جاءنى كتابك الكريمة أن يزعم الناس أن جبريل أصبح في الأرض من سعاة البريد ، وأن السماء عادت تشرع لهذه الأرض فجاءتها بكتاب جديد ! أم لعلك تخاف أن تكتب بقلمك الأعلى أن يتعجل على الناس قلم لا يحتمل التأجيل ، وإن انتهى إلى كتابك قامت قيامة أوربا على مصر لأن عندى صفحة ناقصة من الأناجيل ؟ !

لقد هممت أن أعاقب القلم الذى كتبت به إليك فأحطم سنه ، وأجعله

من ناحيتي في «خبر كان» حتى لا يبقى من ناحيتك في خبر «إنه» وقلت كيف ، ويحك ، سودت وجه صحيفتي بما هو في سواده مداد مع المداد ، وفي نفسه سواد غير السواد ؟ فقال : وهل أنا في هذه النغمة إلا «عود» ، وهل كنت إلا حركة ألفاظك من قيام وقعود ؛ وسل الدواة من أمدّها ، والصحيفة من أعدّها ، وسل أناملك كيف كانت تضغط على كأنها تسلم سلاماً ، ولا تخط كلاماً . وسل نفسك كيف كانت في حركتي تضطرب ، وقلبك كيف كان من كلمة يبتعد وفي كلمة يقترّب .

فما ندرى يا سيدي وقد أحببناك أنعدك في ذنوب الزمان أم في أعذاره ، ونأخذك في الحب من وقائعه أم في الجفاء من أخباره . . فإن أبيت أن تكون منا إلا سماء من أرضها ، وأن نكون منك إلا سنة من فرضها ، وأبيت وأنت مفرد الحسن إلا أن نعدك مع كبرياتك مثني بألف ونون ، وإلا أن تكون كما أردت أن تكون ، فإذا خاطبناك قلنا بأيها الصديقان . . . ويا غضبانان وراضيان ، وأنشدنا : ولو كان همًّا واحداً . . . ولكنه همٌّ وثان . وإن أبيت إلا ما نأبي ، ولم ترض مع صدقنا في حبك إلا كذباً ، قلنا لك بلغة اليأس منك : لشد ما أصاب الزمان فينا وأخطأ ، فليصب بك أو فليخطيء . وكثيراً ما أعطانا الدهر وأخذ ، فلتكن فيما يأخذ أو فيما يعطى ، وقلنا مع الذكر نسيان ، وما عسى أن ينقص الناس بإنسان !

ومن ظن «بصرفنا» عن نفسه أنه كبير ، جعلناه من «نحونا» في باب التصغير . ومثلنا - أصلحك الله - لا يتكلم إلا بفائدة ولا يسكت إلا لفائدة ، فإن أخطأنا معك في واحدة أصلحناها بواحدة . والسلام .

مصطفى صادق الرافعي

* * *

أما أنا فأعتذر للكاتب الأديب إذا أعلنت مضطراً أن هذا الأسلوب الذي ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة ، لا يستطيع أن يروقنا في هذا العصر الحديث الذي تغير فيه الذوق الأدبي ، ولا سيما في مصر ، تغيراً شديداً .

طه حسين

أسلوب في العتب

علق الأستاذ طه حسين على رسالة العتاب التي نشرتها السياسة بقوله :
إنه يعلن « مضطراً أن هذا الأسلوب الذي ربما راق أهل القرن الخامس
والسادس لا يستطيع أن يروقنا في هذا العصر الحديث الذي تغير فيه الذوق
الأدبي . . . »

ولست أجادله في ذوقه إن كان الأمر إليه أو إلى ذوقه ، وهو أعلم حيث
يجعل نفسه ، وليحملها على ما شاء ، وليحمل ما شاء عليها . ولكني لا أتبين
مرجع الضمير في قوله « لا يستطيع أن يروقنا » فهل ترجع « نا » هذه إليه
وحده أم إلى أهل العصر الذي نحن فيه ؟ وهل هو هو حسبه أم هو أكثر
من نفسه ؟ وإلا فمن سلطه ليتسلط بالنبي ؟ ومن قدر على النبي قدر على الإثبات ،
ومن تصرف في الجهتين لم يبق مع أمره أمر ولا بعد حكمه حكم . ولا أظن الأستاذ
الفاضل يزعم هذا لنفسه ، أو يمكن لها فيه .

على أن الأسلوب الذي كتبت به الرسالة كان موضع الانفراد ، وكان
الغاية التي تتقاصر دونها الأعناق منذ القرن الرابع إلى آخر التاسع ، ولم يوحش
منه تغير الذوق الأدبي ، كما يقول الأستاذ ، بل ضعف الكتاب فيه وتقصيرهم
عن حده ، وأنهم لا يوافقون به مواضعه ، ولا يعدلون به إلى جهاته في ألفاظه
ومعانيه .

لقد علم الكاتب أننا لا نزعم أن هذا الأسلوب هو الوجه في كل فنون الإنشاء
ومناحي التعبير ، بل قلنا إنه شيء من الزخرف ، وفن من التنسيق . ونقول الآن
إن أكثر كتاب العصر ، ومنهم الأستاذ طه ، لا يجيدونه ولا يستطيعونه مهما
تكلفوا له ، وبالغوا في هذا التكلف ، وتحروا في هذه المبالغة . وهذا عندنا
وجه من وجوه التأويل في معنى تغير الذوق الأدبي . وهب أن (كذا) الذوق
تغير وأتى على كل شيء في اللغة وأساليبها ، فأين معنى الطرفة والنادرة والملحة في

مثل هذه الآثار الدقيقة ، وقد قامت الدنيا وركعت وسجدت . . . لدقائق توت عنخ آمون ، مع أن الذوق الفني مات وبعث ثم ، مات وبعث في أكثر من ثلاثة آلاف سنة . وننبه الأستاذ إلى أننا نشترط في هذا الأسلوب أن يصيب موضعه وألا يجاوز مقداره ، وأن ينزل منزلة الزخرف لا منزلة البناء . ثم إننا نفرض أن هذا الفاضل اضطر أن يكتب في هذا المعنى الذي كتبنا فيه وأراد أن يأتي بصورة من جمال الأدب ، فليكتب الآن وليملأ الوجه الآخر من الصحيفة بما تم به المقابلة بين ما يروق وما لا يروق ، وليأتنا بالبلاغة التي عجزنا نحن عنها، إذا كان هذا رأيه المستور الذي يرمى إليه برأيه الظاهر في تلك الكلمات .

مصطفى صادق الرافعي

* * *

(السياسة)

يرى الكاتب الأديب « أن أكثر كتّاب هذا العصر ، وأنا منهم ، لا يجيدون "هذا الأسلوب" ولا يستطيعونه مهما تكلفوا له ، وبالغوا في هذا التكلف ، وتحروا في هذه المبالغة . وهذا عندنا وجه من وجوه التأويل في معنى تغير الذوق الأدبي » .

وأنا لا أتردد في إقرار الكاتب الأديب ، على أننا لا نجيد هذا الأسلوب ، وعلى أننا لا نريد أن نجيده ؛ لأن الذوق الأدبي ، ولا سيما في مصر ، قد تغير . وقد كنت أريد أن أناقش الكاتب ، ولكن له في نفسه رأياً لا يسمح بمناقشته والتحدث إليه . فلندعه ورأيه ، ولنحى الذوق الأدبي الجديد الذي يلائم حاجات الناس وحياتهم .

طه حسين

القديم والحديث

قرأت في الأسبوع الماضي وفي صحيفتنا الأدبية كتاب العتاب الذي بعث به الأستاذ مصطفى صادق الرافعي إلى أديب من أدباء الشام ثم اصطفى السياسة لتذيعه في الجمهور . ثم قرأت رأينا في هذا الأسلوب ورد الأستاذ علينا في هذا الرد . وتقرأ اليوم^(١) رد كاتبين على الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، ثم تقرأ رسالة أخرى في هذه الصحيفة نفسها عنوانها «بين الجمال والحب» للكاتب الأديب طه عبد الحميد الوكيل . وأعتقد أنك إذا قرأت كتاب الأستاذ الرافعي ورسالة الأستاذ طه عبد الحميد الوكيل رأيت أسلوبين في الكتابة الأدبية مختلفين أشد الاختلاف : أحدهما قديم جداً ، والآخر حديث جداً . وكلاهما فيما أعتقد بعيد كل البعد عن ملاءمة الحياة التي نحياها والعصر الذي نعيش فيه .

لو أني كنت أريد أن أذكر الكاتبين الأديبين لذكرت ما يمتاز به أحدهما من حسن رأيه في نفسه ، وما يمتاز به الآخر من التواضع بل الغلو في التواضع . ولكني أعدل عن الكاتبين إلى الأسلوبين ؛ فقد ينحيل إلى أن من الخير أن يتفق الأدباء على أن لهذا العصر الذي نعيش فيه حاجات وضروباً من الحس والشعور تقتضي أسلوباً كتابياً يُحسن وصفها ويجيد التعبير عنها دون أن يسرف في القدم أو يغلو في الجدة . ولست أدري لم لا يتفق الأدباء على هذه القضية ، ونحن في حياتنا المادية إنما نلأثم بين حاجاتنا وبين الأدوات التي نستخدمها لرضى هذه الحاجات ، فمالنا إذا أردنا أن نتكلم لندل على هذه الحاجات لا نلأثم بين لغتنا وبين حاجاتنا ، أو بعبارة أصح : مالنا لا نلأثم بين اللغة وبين الحياة ؟ لسنا نعيش عيشة الجاهليين ، فمن الحق أن نصطنع لغة الجاهليين . ولسنا نعيش عيشة الأمويين ولا العباسيين ولا المماليك ، بل لسنا نعيش عيشة المصريين في أوائل القرن الماضي ، فمن الإسراف أن نستعير لغات هذه الأجيال وأساليبها لنصف بها أشياء لم يعرفوها ، وضروباً من الحس والشعور لم يحسوها

(١) راجع صفحة الأدب في السياسة بتاريخ ٤ يونيو سنة ١٩٢٣ .

ولم يشعروا بها . إذا كنا لا نعيش في الخيام ولا نتخذ هذه الأدوات المختلفة الحضرية أو البدوية التي اتخذها الجاهليون أو أهل بغداد ، فليس من سبيل إلى أن نشعر كما كان يشعر الجاهليون وأهل بغداد . وإذا فليس من سبيل إلى أن نكون صادقين حين نتكلم أو نكتب كما كان يتكلم الجاهليون أو كما كان يكتب أهل بغداد . وإذا فالغلو في اصطناع الأساليب الجاهلية أو العباسية على أنه مخالف لطبيعة الحياة التي تقتضى أن يكون اللفظ ملائماً للمعنى ، وأن تكون اللغة مرآة الأطوار المختلفة التي يتقلب فيها المتكلمون – أقول إن اتخاذ هذه الأساليب عيب خلقي في نفسه ؛ لأنه يدل على أن الكاتب أو المتكلم يعيش في تناقض متصل مع حياته الواقعة ؛ فهو يحس شيئاً ويقول شيئاً آخر وهو يشعر بشيء وينطق بشيء آخر .

اتخاذ هذه الأساليب نقص أدبي ؛ لأن الكمال الأدبي يستلزم أن تكون اللغة ملائمة للحياة . وهو نقص خلقي ؛ لأنه كذب للكاتب على نفسه وعلى معاصريه . وهو نقص من جهة أخرى ؛ لأنه لا يدل على أقل من أن الكاتب ينكر شخصيته ولا يعترف لها بالوجود . وأي إنكار للشخصية أشد من أن تحس وتشعر ثم تستحي أن تصف إحساسك وشعورك كما تجدهما ، فتستعير لهذا الوصف أساليب لا تلائم وضروباً لا تؤديه !

لنا حياة خاصة ، ولنا لغة خاصة تلائم هذه الحياة ، فمالنا نفرق بين الأشياء المتولفة ؟ ومالنا نقطع الأسباب المتصلة ؟ ومالنا نعيش في عصر ونتكلم في عصر آخر ؟

أعرف أن الأسلوب الذي اتخذته الأستاذ الرافعي كان مستعذباً في عصر من العصور . ولكنني أعرف أنه إنما كان مستعذباً لأنه كان يلائم هذا العصر ، فإذا انقضى هذا العصر وانقضى معه ما ألف الناس من ضروب الحياة فيه ، فيجب أن ينقضى معه أيضاً أسلوب التعبير الذي كان الناس قد اتخذوه وسيلة لوصف ما يجدون في أنفسهم .

ومهما يقل الأستاذ الرافعي وأنصاره – إن كان له أنصار – فليس من شك في أنه يشعر كما كتب ، ولم يفكر كما كتب ، وإنما شعر بطريقة ، وكتب بطريقة أخرى . فلنسا نراه هو في كتابه ، وإنما نرى في هذا الكتاب تكلفه ومحاولته الإجابة . ولا تنس أن الأستاذ يعاتب صديقاً ، وأن العتاب

يحتاج فيما يظهر إلى أن يظهر الصديق لصديقه دخيلة قلبه وخلاصة نفسه ،
لا أن ينسج له نسجاً ليس بينه وبينه صلة .
أسلوب الأستاذ الرافعي قديم جداً لا يلائم العصر الذي نعيش فيه .
وأسلوب الأديب طه عبد الحميد الوكيل حديث جداً لا يلائم العصر الذي
نعيش فيه أيضاً . وآية ذلك أني لا أشك في أن كثيراً من القراء سيشعرون حين
يقرءون رسالته بشيء من الغموض كثير ، وبأنهم أمام أشياء لا يشعرون بها
ولا يحسونها . لا لأن الله قد اختص بها الكاتب وحده ؛ فكثير من الناس يحب ،
وكثير من الناس يلد الجمال ، ولكن لأن الكاتب قد اتخذ في وصف الحب
والجمال أسلوباً لا يلائم ما ألف الناس حين يحبون وحين يلدون ، وحين يحاولون
أن يصفوا الحب أو اللذة .

ويغلو قوم منا في إثارة القديم فيضيّقون وفي الحياة سعة . ويغلو قوم منا
في إثارة الجديد فيرتفعون عما ألف الناس . ومع ذلك فالقصد أساس الخير
في كل شيء . لسنا أبناء القرن الخامس للهجرة ، ولسنا أبناء القرن السادس
عشر للهجرة ، وإنما نحن أبناء القرن الرابع عشر للهجرة . بيننا وبين الماضي
أسباب متصلة ، وبيننا وبين المستقبل أسباب ستتصل . فإنا لا نحفظ بهذه
المكانة التي وضعنا فيها الطبيعة ، فلا نسرف في التقدم ، ولا نسرف في التأخر ؟ !
لا أمقت القديم ولا آنف من الحديث ، وإنما أرى أني وسط بين القديم والحديث ،
وأرى أن لغتي يجب أن تكون مرآة صادقة لنفسى . ولن تكون لغتي مرآة صادقة
لنفسى إذا كانت قديمة جداً أو حديثة جداً ، وإنما هي مرآة صادقة لنفسى
إذا كانت مثلى وسطاً بين القديم والحديث .

سيقولون : فلننصرف إذن عن اللغة العربية الفصحى ؛ فهي قديمة جداً
لا تلائمنا ولا تؤدي ما نحسه ونشعر به . كلا ! ليس هذا حقاً ؛ فإن اللغة
العربية الفصحى ليست من الموت والجمود بحيث تظنون ، وإنما هي كغيرها
من اللغات الحية مستحيلة إذا تكلفها أحياء يخضعون لنظام الاستحالة والتطور .
حياة مستحيلة لأننا نفهمها ونتخذها وسيلة للتخاطب وتبادل الآراء ، فيفهم
بعضنا بعضاً دون تكلف ولا عناء . وكل ما نريده لهذه اللغة هو أن تسلك
سبيلها في الحياة والاستحالة ، دون أن يحول بينها وبين ذلك أسلوب قديم كأسلوب
الأستاذ الرافعي ، ودون أن يفسد عليها هذه الحياة أسلوب حديث جداً كأسلوب

الأديب طه عبد الحميد الوكيل . لا نكره أن يصطنع الأدباء في دقة واحتياط ألفاظ اللغة العربية الفصحى التي جلاها الاستعمال وصقلتها الألسنة، وأن يؤثروا هذه الألفاظ على الألفاظ الساقطة المبتذلة . كما لا نكره أن يستعير الكتاب في قصد وحسن اختيار من اللغات الحديثة الأوربية معاني وأساليب وألفاظاً دون أن يفسد ذلك جمال اللغة العربية وروعها . وعلى الحملة نريد أن تكون لغتنا مرآة لحياتنا ، لا قديمة خالصة ، ولا أوربية خالصة . فأى شيء في هذا ؟ وماذا يمكن أن ينكر علينا الأستاذ الرافعي وأصحابه من هذا ؟ ومتى كان القصد إلى الصدق وحسن الملازمة بين ما نجد وبين ما نصطنع في وصف ما نجد ذنباً ينكر أو شيئاً يعاب ؟ على أننا نود لو كتب الكاتبون في هذا الموضوع وأعلن كل منهم رأيه فيه ؛ فقد تنهى المناقشة بنا إلى الاتفاق على قاعدة يحسن أن نتفق عليها منذ الآن ، فتتقى هذا الاضطراب الذي نشهده في النثر والشعر وأساليبيهما . ونتقى شيئاً آخر ثقيلاً منكرًا هو سخط الأدباء والكتاب إذا تقدم ناقد أو أخذهم كاتب بما لا يحبون .

طه حسين

الذوق الأدبي

شديد جداً حرج هذا الموقف الذي يضطر إليه الصحفي إذا أراد أن يكون حرّاً ، وإذا أراد أن يقدر حرية غيره ، فيبيع صحيفته لنقد الناقلين واختصاص المختصين . شديد جداً حرج هذا الموقف ؛ لأن الناس لا يقدرون حريتهم وحرية غيرهم كما ينبغي ؛ فهم يسرفون إذا اكتالوا ، ويطففون إذا كالوا . يرون لأنفسهم الحق في كل شيء : في أن يقولوا ما يشاءون ، وفي أن يسبوا ما يشاءون . وينكرون على غيرهم كل شيء ، فليس لهم أن يقولوا إلا خيراً ، وليس لهم أن يصفوك إلا بما تحب وترضى . يجب أن يكونوا لسانك لا ألسنة أنفسهم . يجب أن يشعروا كما تشعر ، ويدوقوا كما تذوق ، لا كما يشعرون ويدوقون . وقد احتملنا هذا الطغيان في الحصومة السياسية ؛ لأن الله قد ابتلى مصر بأدعياء السياسة يتخذونها تجارة وسبيلاً إلى الربح . وكنا نرجو أن يعفينا الله منها في الحصومات الأدبية ؛ لأن الأدباء أحق الناس أن يكونوا مؤدبين . ولكن الله أبى إلا أن يفتن الناس في الأدب كما فتهم في السياسة وكما فتهم في الأخلاق . فلنصبر ولنسأل الله أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً في كل شيء .

نكتب هذا وبين يدينا مقال للأستاذ صادق الرافعي أراد أن يدافع به عن أسلوبه في العتب ؛ فلم يتح له هذا الدفاع إلا بالشتم واستصغار الخصم ، فوصف الناقلين اللذين تناولا أسلوبه في الأسبوع الماضي بأنهما عقربان ، ثم أضاف إليهما القصور وحرمة الفقه الأدبي . كأن الله عزوجل قد أبى الكمال والإتقان إلا على الأستاذ وأصحاب الأستاذ ؛ مع أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ونحن مضطرون إلى أن ننشر مقال الأستاذ ؛ لأنه يدافع عن نفسه ، ولأن فيه ما يستحق الرد . ولكننا نحب أن يلتفت الأستاذ إلى أن النقد شيء والشتم شيء آخر ، وإلى أن الذوق قد تغير في هذا أيضاً كما تغير في الأساليب الأدبية . فالناس لا ينقد بعضهم بعضاً الآن كما كان يتهاجى جرير والفرزدق

منذ أحد عشر قرناً . وليس ينبغي أن يباح لك الاستمتاع بالحرية الصحفية ، فتسرف في هذا الاستمتاع ، وتضطر صاحب الصحيفة إلى أن يخرج عن طور الأدب فينشر الشتم والسب ، أو يصطنع الحزم فيأبى عليك أن تدفع عن نفسك حتى تكون في ألقاظك ومعانيك مقتصداً مؤثراً للين القول وحلوه على غليظه وفججه .

وبعد ، فقد أعجبنا من الأستاذ دفاعه عن نفسه حين أخذناه بقوله : « وهب أن الذوق تغير » في هذا الدفاع بحث ، ولكننا لا نريد أن ننازع الأستاذ ولا أن نطيل جداله في مسألة لفظية ، وإنما نلفته إلى أن الذين يؤثرون الأسلوب القديم ويتكلفونه ، ويزدرون الأساليب الحديثة ويمقتونها أحرىء ألا يتكلفوا هذه الأساليب إلا مجيدين متجنين مواضع الشبه ، مؤثرين فصيح القول على ركيكه ، مفضلين ما ليس فيه شك على ما وقع فيه الخلاف . وأنا أعتقد أن الأستاذ حين كتب عبارته كان يعتقد أنها صحيحة فصيحة لا غبار عليها ولا خلاف فيها . فلما نبهناه إلى هذا رجع إلى اللسان وإلى الحريري ، فجعل الله له مخرجاً من حيث لم يحتسب . فليهنأ الأستاذ حسن حظه بما قال ابن بري ، وليحرص منذ الآن إذا تكلف القديم على أن يكون قديماً حقاً ، لا قديماً من قوارير .

ثم سخر الأستاذ من ناقديه ، وعرض لهما مثلين من الأدب الذي يليق بأهل هذا العصر . عرض لهما كتابين كان يكتبهما لو لم يكن من أنصار القديم المخلصين في نصره وتأبيده . ويسوءنا أن نلقت الأستاذ إلى أنه لم يوفق في هذه السخرية ، وأن مثليه لا يصفان أذواق الناس في هذا العصر . فهم لا يكتبون كما كتب الأستاذ في رسالته التي هو بها معجب . وهم لا يكتبون كما كتب الأستاذ في رسالتيه اللتين هو منهما ساخر . وإنما لهم في العتب وغير العتب أساليب صادقة سهلة حلوة ، يشعرون بها ويفهمونها ، وهي بريئة من تكلف الرياضة ، بريئة من تكلف الفلك ، بريئة من تكلف لغة الفقهاء . . ونريد الفقهاء الذين يتلون القرآن على القبور . أساليب هذا العصر بريئة من كل هذا التكلف . ولهذا نؤثرها وننصرها ، وندعو الناس إلى إيثارها ونصرها إن أرادوا أن يكونوا صادقين حقاً فيما يكتبون وفيما يحسون .

ثم أراد الكاتب أن يناقش ما كتبناه عن الذوق الأدبي الجديد ، فرأى أنا موفقون وأنا غير موفقين . فهو يقول « إذا اعتبرنا به ما بين الكتاب وجمهور

الناس» وغير موفقين «إذا اعتبرنا به ما بين الأدباء بعضهم من بعض». وإذاً فللكتاب ذوقان : ذوق مبتذل يصطنعه الأدباء إذا تنزلوا إلى مخاطبة «جمهور الناس». وذوق آخر راق جليل الخطر مقدس يصطنعونه إذا تحدث بعضهم إلى بعض . هذا رأى الأستاذ .

أما نحن فنرى غير هذا الرأى ، ونرى أن الذوق الأدبي العام واحد لا يتغير بتغير من تتحدث إليه . وقد تختلف الرسائل عسراً ويسراً وتختلف ليناً وشدّة ، باختلاف من تتحدث إليه ؛ فللصحف لغة وأساليب ليست للكاتب التي يؤلفها العلماء للعلماء والأدباء للأدباء . ولكن ذلك شيء واختلاف الذوق شيء آخر . وهؤلاء كتاب أوربا وأدباؤها يتحدث بعضهم إلى بعض ويتحدثون إلى جمهور الناس في الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية ، فلا يختلف الذوق الأدبي فيما يكتبون باختلاف القراء ، وإنما يؤثران الوضوح والجلال حيناً فيظنّون ويسهبون ويصطنعون ألفاظاً ألفها الناس . ويؤثرون القصد والإيماء حيناً فيوجزون ويتخيرون ألفاظاً منتقاة . والذوق هو الذوق ، والكتابة هي الكتابة ، وروح العصر الذي يعيشون فيه هو هو فيما يكتبون لنظرائهم وفيما يكتبون لعامة الناس . ونحسب أن الأمر كان كذلك أيام العباسيين ، في هذا العصر الذي يرى الأستاذ أنه أحد ممثليه . فلم يكن في هذا العصر ذوقان أدبيان : ذوق مبتذل يتنزل به الكتاب إلى عامة الناس ، وذوق أرسقراطي يتفكّهون به فيما بينهم . هذا إسراف يذكرنا برأى بعض الفرق الباطنية : رأى أولئك الذين يرون الدين وسيلة إلى إصلاح العامة وأخذها بالمعروف وحملها على النظام . فأما الخاصة فهي منظمة بطبعها راقية بطبعها ؛ وإذاً فليست في حاجة إلى الدين ، يباح لها ما حظ على العامة . يجب على العامة أن تصلى وتصوم ؛ أما الخاصة فلها أن تشرب الخمر وتقرّف الآثام ؛ لأن هذه الآثام أضعف من أن تفسد نفوسها الطاهرة الراقية بفطرتها . إلى هذا النحو ذهبت طائفة من غلاة الباطنية . ويظهر أن الأستاذ يريد أن يذهب في الأدب مذهب أولئك الناس في الدين .

أما نحن فنريد أن يفهمنا الناس ، كما نريد أن نفهم الناس . ولهذا نتحدث إلى الناس بلغة الناس ، وإذا تحدثنا إلى الأدباء أمثال الأستاذ تحدثنا إليهم أيضاً بلغة الناس . وليسمح لنا الأستاذ أن نلفته إلى شيء ذى بال ، وهو أن

الأدباء الذين « يقلرون أنفسهم » لا يكتبون إلا وهم يفكرون في أنهم يُظهرون الناس على شيء من أنفسهم ، وفي أن ما يكتبون له قيمته ، فهو خاص اليوم ولكنه عام غداً . ولعل الأستاذ لا يجهل أن رسائل الأدباء فيما بينهم تنشر في حياتهم وتنشر بعد أن يموتوا . وإذا فخليق بالأديب الذي يقلر نفسه ويريد أن يقدره الناس إذا كتب ، أن يفكر في هؤلاء الناس ، وأن يكون من السهولة ومراعاة الذوق الأدبي بحيث لا يعجز الناس عن فهمه . والأدباء حقاً يذهبون هذا المذهب . فنحن نقرأ الرسائل الخاصة التي كتبها « فكتور هوجو » إلى الشعراء والأدباء والتي تلقاها منهم ، فنفهمها كما نفهم غيرها من الرسائل . ونقرأ ما كان بين « رينان » و « برتلو » من الرسائل فنفهمها دون مشقة ولا عناء ؛ ولم يكن « فكتور هوجو » و « لامارتين » و « فلوير » و « بودلير » و « رينان » و « برتلو » يتكاتبون باللاتينية ولا بفرنسية القرون الوسطى ولا بفرنسية القرن السادس عشر ولا بفرنسية القرن السابع عشر أيضاً ، وإنما كانوا يتكاتبون بفرنسية القرن التاسع عشر وذوق القرن التاسع عشر . ولم يكن أدباء العصر العباسي إذا تحدث بعضهم إلى بعض أو كتب بعضهم إلى بعض يصطنعون ألفاظ رثوية والعجاج وأساليب الحفاة من الأعراب ، وإنما كانوا يتحدثون ويكتبون متأثرين بذوق العصر الذي يعيشون فيه . وإذا فلسنا مجددين إذا دعونا إلى الملاءمة بين اللغة وبين الحياة . نحن أقرب إلى السنة العباسية من الأستاذ ، ونحن أقرب إلى السنة الأدبية العامة من الأستاذ . نحن أحياء نحب الحياة ولا نحب الموت .

يخشى الأستاذ إذا انتصر مذهبنا أن تضعف اللغة ويذوى عودها ، وأن يضطر الناس بعد حين إلى أن يترجموا العربية إلى العربية . وليطمئن الأستاذ ! فليست اللغة تتعرض لهذا الخطر إذا انتصر مذهبنا ، وإنما تتعرض له إذا انتصر مذهبه . وآية ذلك بينة ، وهي أن الناس يحتاجون الآن إلى أن تترجم لهم رسالته في العتب ، وليسوا محتاجين إلى أن تترجم لهم رسائلنا . ماذا نقول ؛ ليسوا محتاجين إلى أن يترجم لهم الجاحظ وابن المقفع ، وهم محتاجون إلى أن يترجم لهم الأستاذ صادق الرافعي . وسل القراء ينبثوك الخبر اليقين !

ولسنا في ذلك بدعاً من الناس . فلك أن تذهب إلى باريس وإلى « بيت مولير » لترى كيف يسمع الناس ويفهمون من غير مشقة ولا عناء لغة « كورنيل »

و « راسين » و « موليير » دون أن يحتاجوا إلى مترجم . وأؤكد لك أن الذوق الأدبي في القرن السابع عشر الفرنسي غيره في هذا القرن الذي نعيش فيه . ذلك لأن اللغة الفرنسية تحيا وتستحيل في نظام وهدره ، فهي لا تطفر ولا تثب . وإذا فالصلة قائمة متينة بين عصورها الحديثة على اختلافها . وكذلك كانت الحال أيام العباسيين ، وكذلك نريد أن تكون الحال في هذه الأيام .

أما إشفاق الأستاذ أن تدفن الكتب العربية كلها لأنها من آثار الذوق القديم ، وأن « يوضع على دار الكتب شاهد من شواهد القبور » فألفاظ تنثر ولا تقدر . ذلك أنا لا نشفق على كتب العرب هذا الإشفاق ولا نخشى عليها الموت ، وإنما نأمل لها حياة أصلح وأنفع من حياتها الآن إذا انتصر رأينا . نأمل لها أن تحيا كما تحيا الآن في فرنسا آثار « راسين » وفي إنجلترا آثار « شكسبير » . ذلك أنا لا نقطع الصلة بين قديمنا وحديثنا ، وإنما نزيدها قوة ومتانة . نستمد الحياة من قديمنا على أن نضيف إليه من الحديث ما يتيح له الحصب والإثمار . وهذا هو الفرق بيننا وبينك يا سيدي الأستاذ .

أقصيت عصرًا من عصور اللغة ليس هو أجملها ولا أنقأها ، ثم لجأت إليه وتحصنت به ، وأبيت أن تتأخر عنه أو تتقدم . أما نحن فنستبيح لأنفسنا عصور اللغة كلها ، نستخلص صفوها ، ونضيف إليه صفو العصر الحديث ؛ فنجد من ذلك شراباً عذباً يبعث فينا القوة والحياة .

لك يا سيدي الأستاذ أن تناقش وتجادل عن رأيك . ولكن عليك أن تلتفت إلى شيئين : أحدهما لين القول والرفق فيه . والآخر أن « السياسة » حرة تنشر ما يصل إليها من الرسائل متى شاءت وحيث شاءت . فإن لم يرقك هذان الشرطان فنحن آسفون ، والصحف في مصر كثيرة . والسلام .

حول أسلوب في العتب*

قصير جداً هذا الحديث ؛ لأن الأدباء الذين خصمهم الأستاذ الرافعي وخصموه لم يتركوا لي موضعاً في صحيفة الأدب . ولكنني أردت مع هذا أن أتحدث إلى هؤلاء الأدباء بشيء من العتب قليلاً . قد كنت أحب لهم و « للسياسة » وللأدب أن يؤثروا الحلم ويأخذوا أنفسهم بلبين القول وشيء من الصفيح والإغضاء ، ولكن الأستاذ الرافعي نالهم بالأذى ، فأخرجهم ذلك عن طورهم وتجاوزوا في ردهم على الأستاذ ما يحبون ونحب إلى ما نكره ويكرهون . ولولا أن لهم حق الدفع عن أنفسهم لاعتذرت إليهم من نشر ما كتبوا . ولولا أني لا أبيع لنفسي المسخ والتشويه لحذفت مما كتبوا شيئاً كثيراً . ولكن « السياسة » تنشر لهم اليوم وتم ما جاءها في هذا الشأن غداً معتذرة إلى الكتاب جميعاً من إفعال هذا الموضوع الذي تجاوز البحث الأدبي النافع إلى ما يكره الأدباء .

ولدينا كلمة للأستاذ الرافعي لا نستطيع أن ننشرها ، فنعتذر إلى الأستاذ ، ونظنه يفهم ، ونظن غيره يفهم أن « للسياسة » الحق في ألا تنشر شتم كتابها ومحرريها في غير حق وفي غير فائدة ولا نفع .

* راجع السياسة في ٢٠ و ٢١ يونيو سنة ١٩٢٣ .

حول أسلوب في العتب

يأبى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي إلا أن نشغل به ؛ فقد أطال الجدل حول « أسلوبه في العتب » . فلما أعلننا انصرافنا عن هذا الموضوع أخذ يجادلنا في أسلوبنا . ولعله أراد أن يثار لنفسه ، فنقد أسلوبنا كما نقدنا أسلوبه . ولكننا نتقبل نقده على نحو كنا نود لو نحاه بإزاء نقد الناقدين له . نتقبل نقده شاكرين متواضعين لا ساخطين ولا مجادلين . فلسنا نزعم لأسلوبنا امتيازاً من الأساليب . ولسنا نصفه بأنه من أنواع الزخرف . ولسنا نزعم أن الأعناق تقطعت دونه عصوراً . ولسنا نزعم أن الكتاب غير قادرين على إتقانه مهما بالغوا وتكلفوا في المبالغة . لسنا نزعم لأسلوبنا شيئاً من ذلك ، إنما نشعر فنكتب ، وقد نجيد مرة ونتورط في الردى مرة أخرى . وقد نصيب حيناً ونتورط في الخطأ حيناً آخر . فلمن شاء النقد أن ينقد ، ولن تفضل بإرشادنا إلى مواضع الخطأ أو الرداءة أن يرشدنا مشكوراً .

أما بعد ، فلسنا نحكي بأسلوبنا أسلوباً آخر قديماً أو حديثاً . ولسنا نتكلف هذه المحاكاة ، وإنما هي طريقتنا في التفكير وطريقتنا في الإملاء . فإذا أراد الأستاذ أن يقدر هذه الطريقة ويؤرخ لها في كتابه فنحن شاكرون له عنايته وحسن ظنه . وإذا أراد الأستاذ أن يزدريها ويربأ بكتابه عنها فله ذلك غير ملوم ولا معاتب .

يأخذنا الأستاذ بكلمة « مفزعة » وليس في « المفزعة » مأخذ فهي كلمة يرضاهم القياس ويقرها السماع . والرجوع إلى المعجمات أيسر على الأستاذ في هذه الكلمة من الرجوع إلى هذه المعجمات في وضع « أن » بعد « هب » . وأيسر عليه من تلمس المعاذير ومن تتبع ما قال ابن برى في مناقضة الحريري . ولعل الأستاذ يذكر أنا حملنا له حسن حظه إذ وجد من ابن برى عاذراً ومُقْبِلاً . ويأخذنا الأستاذ بكلمة « مهلعة » ، وليس في هذه الكلمة مأخذ ؛ فإن كتب النحو وكتب اللغة سواء منها ما يقدر الأستاذ وما لا يقدر تبيح للناس

أن يُعدّوا الأفعال اللازمة الثلاثية بالهمزة قياساً مازداً . فالله يأذن لنا في أن نعدى « قام » و « قعد » و « رضى » وما إليها بالهمزة فنقول « أقامه » و « أقعده » و « أرضاه » و « أغضبه » . ولسنا ندرى لم يحظر الأستاذ ما أباح الله ! فقد يحمّد للناس أن يتشددوا في اللغة ، ولكن يجب عليهم أن يتشددوا في قصد وإيثار للصواب . والإسراف شر في كل حال ؛ وقد يكون شرّاً من الإسراف شيء آخر تورط فيه الأستاذ ونحب أن نلفتة إليه في لطف ورفق .

كتب الأستاذ إلينا مع رسالته هذه كتاباً أراد ألا ينشر ، فكتب في رأسه « ممنوع نشر هذا الكتاب » . فالأستاذ يعلم أن هذا ليس من أدب الخطاب في شيء ، وأن الله لم يمنحه من القوة ولا من السلطان ما يبيح له وضع مثل هذه الصيغة المبتذلة . وهو يعلم أنا لو أردنا نشر كتابه لما منعتنا من ذلك هذه الصيغة ، وإنما عرفنا رغبته في أن يظل كتابه مكتوماً فكتمناه ، وإن كنا لم نفهم لم آثار أن يكتب هذا الكتاب .

على أن إعراضنا عن نشر هذا الكتاب لا يمنعنا أن نشير إلى شيء جاء فيه . يندرننا الأستاذ بكلمات قد يتناولنا بها في صحف أخرى . فهل قرأ الأستاذ : « زعم الفرزدق أن سيقتل مرّبعا » .

وهل قرأ الأستاذ قول الآخر : « تمنّأتني ليقتلني زياد » . على أني أعتذر إلى قراء هذه الصحيفة من إطالة الجدل فيما لا خير فيه ، وأعدّهم بأنني سأستأنف معهم الحديث عن أبي نواس في الأسبوع الآتي .

القديم والجديد

تقرأ في الرسالة الفارسية « لمنتسكيو » رسالة لا تخلو من فكاهة ولذة، تناول فيها بالعبث والمزاح خصومة الأدباء الذين كانوا يتنازعون في عصره حول القديم والجديد وحول القدماء والمحدثين . تجد في الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ويكلفون بها ، وقد ظهر حبهم إياها وكلفهم بها حتى أنشئت أندية خاصة يختلف إليها الناس ، يقرءون الصحف ويتناقلون الأخبار في بعضها ، ويلعبون الشطرنج في بعضها الآخر ، وتقدم إليهم كؤوس القهوة أثناء القراءة واللعب . وبين هذه الأندية ناد خاص يظهر أن للقهوة فيه فضلاً على غيرها من القهوات التي تقدم في الأندية الأخرى ، كأن فيها شيئاً يشحذ العقل وينبه الحاطر ، ويزيد البصيرة نفوذاً ، والذكاء توقداً ، والألسنة انطلاقة . فالذين يختلفون إلى هذا النادي ويتناولون القهوة التي تقدم فيه أفصح الناس لساناً وأعذبهم بياناً ، وأقدرهم على التصرف في فنون السحر ، وأبرعهم في اصطناع ضروب الجدل ؛ فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشائمون كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشائمون ، كل ذلك في ألفاظ مختارة منتقاة تقع وقع الصواعق وتنفذ نفوذ السهام . وكل هذه المناقشة وكل هذا العنف وكل هذا الجدل إنما يدور حول شاعر يوناني عاش أو لم يعيش منذ ألفي سنة ، يكبره بعضهم حتى يبلغ به منزلة لا تعدلها منزلة ، ويحقره بعضهم حتى يبلغ به من الحسة دركاً ليس دونه درك . وهم يختصمون ويتنازرون ويقتتلون دفاعاً عن هذا الشاعر أو هجوماً عليه ، ويغيبط الكاتب أنه ليس هذا الشاعر ، ويحمد الكاتب الظروف التي أماتت هذا الشاعر قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكانته ، فلو قد أدركها لقتلته أو لنالته بشر من الموت إن كان هناك شر من الموت .

على هذا النحو يتحدث « منتسكيو » عن أدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون في القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين . ويظهر أن عبث

« منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصين ، وأن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصين ، لم يصرفاهم عن الخصومة ولم يلهيهم عن القديم والجديد ، فظلوا يختصمون في القرن الثامن عشر كما كانوا يختصمون في القرن السابع عشر وكما اختصموا من قبل ذلك وكما اختصموا من بعده ، حتى انتصر جديد على قديم ، ثم أصبح هذا الجديد قديماً ، واختصم الناس حوله وحول جديد آخر ، فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الجديد على ذلك القديم . ويظهر أن هذه الخصومة ستستمر أبداً في كل لغة وفي كل جيل وحول كل أدب ، على شرط أن يكون للغة والأدب والجيل الذي يتصرف فيها حظ من الحياة . وقد تأخذ الخصومة حول القديم والجديد أشكالاً مختلفة وصوراً متباينة تمثل العصر الذي تنشأ فيه والظروف التي تحيط بها ، ولكنها مهما تباينت أشكالها وتباين صورها ، ومهما تختلف العصور التي تنشأ لها والظروف التي تحيط بها خصومة بين القديم والجديد ، لا مصدر لها إلا الحياة من حيث هي حياة ، ولا منصرف عنها لأنها الحياة .

نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل من مجلة « الهلال » التي صدرت أول هذا الشهر . وكاتب هذا الفصل الذي نسجل مسرورين أنه ممتع هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، كتبه يدافع به عن المذهب القديم في الأدب ؛ لأن كاتباً آخر هو الأستاذ سلامة موسى كتب في مجلة « الهلال » التي صدرت في الشهر الماضي فصلاً عن الأستاذ الرافعي هاجم فيه المذهب القديم في الأدب مهاجمة عنيفة ، وجعل فيه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي زعيماً من زعماء هذا المذهب القديم . فلم يكن بد للأستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف دفعاً عنيفاً . ولم يكن بد لقارئ « الهلال » من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ، ثم يسأل فيم يختصم الكاتبان ؟ وما أصل هذا العنف في خصومتها ؟ وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر في الأدب القديم أو الأدب الجديد ؟

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة « الهلال » وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي . وإذا كان لنا ألا نسرف في استقصاء التاريخ وألا نذهب بالقارئ إلى ما بعد به العهد ، فقد يكون لنا أن نذكر القارئ بأن مصدر هذه الخصومة في هذه الأيام الأخيرة

إنما هي صحيفة الأدب في « السياسة ». في الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الأستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها إلى « السياسة » تحت عنوان « أسلوب في العتب » وذهب فيها مذهب المتكلمين من بعض الكتاب القدماء ، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب . وكانت حول هذا الإنكار خصومة طويلة انتهت إلى الشتم والتنازع . ثم لم تكمل تنهى السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكاتب أديب من كتاب فلسطين هو الأستاذ خليل السكاكيني رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد وحول الإيجاز والإطناب ، تناول فيها بالنقد كاتباً أديباً من سورية هو الأمير شكيب أرسلان ، فرد عليه الأمير ردّاً طويلاً ، واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت إلى شيء من العنف ليس بقليل . ثم عرض الأستاذ سلامة موسى للأستاذ الرافعي في مجلة « الهلال » فعده مع الأمير شكيب أرسلان من زعماء المذهب القديم ، وأشار إلى الكاتب الأديب خليل أفندي السكاكيني على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد في الأدب . ويخطئ من ظن أن هذه الخصومة ستنتهي غداً أو بعد غد . ويخطئ من سأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة أو السيئة . فستتكرر هذه الخصومة في الأدب العربي ، كما استمرت في الآداب الأخرى ، وكما استمرت في الأدب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التي أنتجت في كل زمان وكل مكان ، فينتصر جديد على قديم ، ثم يصبح هذا الجديد قديماً وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار . وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والأدب العربي حظ من حياة .

هذه الخصومة إذاً مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن نافعة ؛ فليس الأدب العربي بدعاً من الآداب ، وليس الأدب العربي العصري بدعاً من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعي ، وليختصم الأديبان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان . ولكننا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فم يختصمون ؟ وأن نطلب إليهم في رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة ؟ حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا . فقد يظهر لنا إلى الآن أن هؤلاء

المختصمين يختلفون في أشياء لم يستطيعوا بعد أن يحددها . وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعي فتجده يسأل ما « المذهب الجديد » وما « المذهب القديم » ، ويحاول أن يتبين هذين المذهبين وما بينهما من فروق ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود لما كلف نفسه هذا السؤال ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الأديبين خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ؛ فهما يختلفان في الإيجاز والإطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد إليها أكبر الكتاب وأرفعهم قدراً منذ كان النثر العربي إلى الآن ، فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، ولكن له مقامه فلا ينبغي أن يعمد إليه الكاتب ولا سيما في هذا العصر إلا بمقدار وإلا حين تدعو إليه الحاجة الأدبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق دون أن يحددوا هذا الذوق . أليس من حقنا أن نسألهم عن حد هذا الذوق ما هو ؟ وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل إن الأستاذ الرافعي قد أجاب عن هذا السؤال ؛ فنحن نعرف بأن جوابه أدق من أن نفهمه وأشد غموضاً من أن نظهر عليه . وانظر إلى ما يقول في الذوق : « وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد هو الذوق والفهم جميعاً . . . » . نعرف بأننا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعرف بأننا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فإذا كان الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وإذا كان الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعاً ؟ ذلك أن الجملة الأولى صريحة في أن الذوق هو الفهم ، وإذا فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، وإذا فليس شيئين وإنما هما شيء واحد هو الفهم ، وإذا فالحكم أثر من آثار الفهم . والنقد هو الفهم ، وإذا فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شيء واحد تدل عليه ألفاظ مختلفة . . . نعرف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه الجملة ولم ندقها ، وإذا فنحن لا نستطيع أن ننقدها ولا أن نحكم فيها ؛ لأن الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معاً ، وتستطيع أن تدور في ذلك ما شاء الله أن تدور . . . فما زال الأستاذ الرافعي مطالباً بأن يوضح لنا نظريته هذه في الذوق . ونحسبه يحتاج في توضيح نظريته

هذه إلى عناء كثير . ذلك أنه يخيّل إلينا أن الذوق شيء والفهم شيء آخر ، وأن من الإسراف أن نقول إن الذوق هو الفهم ؛ فقد تفهم أشياء كثيرة دون أن تذوقها . وآية ذلك أنا نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الرافعي دون أن ندوقه أو نعجب به . وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا فتزعم أننا قد ندوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها . وإثبات ذلك ليس بالشيء العسير ؛ فما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون الموسيقى فيطربون ويتأثرون وينتهي بهم ذلك إلى شيء يشبه الذهول ، لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الإخصائيون . فأنت ترى أن الذوق والفهم شيان مختلفان ، قد يجتمعان حيناً تفهم قصيدة من الشعر أو فصلاً من النثر وتعجب بهما ، وحيناً تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حيناً تقرأ فصلاً من فصول الكتاب المتكلمين أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلمين ، فتفهم النظم وتفهم النثر ، ولكنك تنكرهما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحيناً تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتطرب دون أن تفهم ما أراد الموسيقى .

وللأستاذ الرافعي في فصله هذا آراء كهذا الرأي محتاجة إلى شيء من المناقشة ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس . انظر إليه مثلاً يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي وقوة في اللغة والأدب الأجنبي... وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد إنما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم ، وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ؛ فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب وضعفهم في اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم في فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وإنكارهم للمذهب القديم ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ولوناً من ألوان الغرور بأنفسهم أيضاً... نعتقد أن الأستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم . ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم ، إن صحّت نظريته السابقة ، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد . وهو إنما أخطأ الفهم لأنه أخطأ الذوق ، أو هو إنما أخطأ الذوق لأنه أخطأ الفهم . وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم أو حول الذوق الذي ليس هو الفهم ، والفهم الذي ليس هو الفهم حتى تتعبا فتسقطا

معاً ، وقد بلغ منكما الكلال والإعياء . ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال ؛ فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويذوق . وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً فتخطئه الإصابة في الحكم . ونظن أن للأستاذ الرافعي حظاً من الإنصاف ، وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد ، أو الذين يسمون أنصار المذهب الجديد ، قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ؛ فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . وإذا فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفاً وليس اعتذاراً لأنفسهم وليس تعصباً للأدب الأجنبي الذي تفوقوا فيه . وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى أنه يفهم الأدب العربي كما يفهم الأدب الإنكليزي ، ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق أو ذوق هو الفهم أو فهم ليس ذوقاً أو ذوق ليس فهماً . . . وما نظن أن الأستاذ ينكر علينا نحن أنا نستطيع أن نفهم الأدب العربي وأن نفهم الأدب الفرنسي ، وأن نحكم فيهما أحياناً عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم . . . ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعي وأنصار المذهب الجديد ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، أقوىاء في اللغات الأجنبية وآدابها ، فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الأستاذ في هؤلاء ؟ وما أصل مذهبهم الجديد وهم يجهاون اللغات الأجنبية ولا يتعصبون لها ؟ ثم مالنا نذهب بالأستاذ بعيداً عن الموضوع الذي أتقنه وبرع فيه ! فلسنا نشك في أن الأستاذ أتقن الأدب العربي وأحسن روايته وفهمه وتقليده وأسرف في هذا التقليد ، وهو يناقض نفسه بعض المناقضة فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد ؛ فكان القرآن الكريم جديداً ، وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت الآداب العربية غير مرة . يصرح بهذا ، ولكنه في الوقت نفسه يزعم أن أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً . وإذا فقد تجددت العربية غير مرة دون أن يشعر العرب بهذا التجدد ، أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكره . والحق أن الآداب تجددت غير مرة ، وأن العرب شعروا بهذا التجدد ، وأنهم ذكروه

واختصموا فيه كما يختصم فيه الأستاذ الرافعي وأصحابه الآن . وقد كتبنا في هذا المكان من « السياسة » فصولا طويلا في العام الماضي فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديد أيام بني العباس . وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والحديد ولم يذكرهما ولم يختصموا حولهما . وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً أم كان قديماً ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلوا فيه فرضى عنهم قوم وأنكرهم آخرون ، أم قبله الناس جميعاً وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لا يذكر أن العرب اختصموا حول القديم والحديد في الشعر وفي النثر ، فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك في أن أنصار الحديد من العباسيين مثلاً لم يكونوا ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، ولم يعتذروا لأنفسهم عن هذا الضعف بتعلقهم بالحديد وغلوهم فيه . أكان أبو نواس ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبو تمام ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبي ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس وانتصر للجديد ، وقد جدد أبو تمام وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبي وانتصر للجديد . وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم ، فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون . ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعي أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والحديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما كما يفهمون الفرنسية وآدابها ، وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ، ومنهم من يؤثر الفرنسية ، وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ، ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين . فليس المذهب الجديد قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب ، وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله : قائم على الفهم قبل كل شيء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون ما لا يحسه أنصار المذهب القديم ، ويرون ما لا يراه أنصار المذهب القديم ، ويشعرون بأنهم يحيون فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

ورأى آخر للأستاذ الرافعي يحسن أن تناقشه ولو قليلاً . فهو يرى أن من

الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد وأن يتعلموا الأدب العربي من جديد ، ليأخذوا منه بالحظ الوفور فيسلوكوا فيه سبيل القدماء ، ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا في اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه . ذلك لأن اللغة موروثية وهي ملك للملايين من الأعمار ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب أن نقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئاً من عند أنفسنا .

ونحن نعترف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة في هذا الرأي ، ونسمح لأنفسنا بأن نراه عقياً ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعج أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والإفهام حظاً يجعلها ملكاً لنا ، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها ، كلما دعت إلى ذلك الحاجة أو قضت ضرورة الفهم والإفهام ، أو كلما دعا إليه الظرف الفنى ، لا يقيدنا في ذلك إلا قواعد اللغة العامة التي تفسد اللغة إذا جاوزناها . فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً ، أو ندخل فيها أسلوباً جديداً ، ما دام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنه أن يفسد أصلاً من أصول اللغة أو يخرج بها عن طريقها المألوفة . ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها يضيفون إليها ويدخلون فيها لما نمت اللغة وعاشت ، ولما استطاعت أن تني بحاجات أهلها التي تتجدد وتتغير وتتجدد الأزمنة وتبدل الظروف . والكتابات والشعراء في كل عصر وفي كل مكان يضيفون إلى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها ، فمنهم من يسعد الحظ فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ويتهاكون عليها حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما أدخل ولا بما أضاف .

وما يحسن أن ننبه إليه الأستاذ الراجعي في رفق ولين أيضاً أنه يسرف في سوء الظن بأوروبا وأمريكا وفي سوء الحكم عليهما . ولعل مصدر ذلك أنه لا يقرأ لغة أوروبا وأمريكا ولا يفهمها ولا يتذوقها ؛ فهو يخطئ في الحكم على أوروبا وأمريكا ، وهو مسرف حين يظن « أن في أوروبا وأمريكا من الغفلة مذهباً ، ومن الرقاعة مذهباً ، ومن تسفل الشهوات مذهباً ، ومن الجنون مذهباً ، ومن كل شذوذ مذهباً ، ومن غير المذهب مذهباً . . . » . وهو مسرف في ذلك ؛ فليست أوروبا وأمريكا من سوء بحيث يظن . ولو قد بلغنا من سوء هذا الحد

لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله .

ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها في أوروبا وأمريكا ليس شيئاً جديداً ، وإنما هو شيء عرفه الإنسان منذ تحضر ومنذ فكر . ويسرنا أن نقول إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضاً . فما استطاعت الديانات أن تقضى على اختلاف المذاهب ، ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضى على الديانات وإنما الإنسان إنسان فيه الخير وفيه الشر ، وفيه الإيمان وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التي لا حد لها وفيه التحرج الشديد . والأستاذ الرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم .

ونظن من السخف والإطالة التي لاتجدي أن نهون على الأستاذ ونهدى من روعه ، فليس ما يدعو إلى هذا الإشفاق . ونظن أننا ، ونحن من أنصار المذهب الجديد المتشددين في نصره ، نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه الأستاذ وأصحابه وينذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ولا يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها ، وإنما يريد أن تكون اللغة حية نامية . ومن ذكر الحياة والنمو ، فقد ذكر التطور ، ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد ، سواء أرضى ذلك أم أنكره .

القديم والجديد

نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد . وهل من سبيل إلى أن نفرغ من مثل هذه المسألة ؟ فقد رأينا في فصل مضى أنها مسألة تلازم الأمم الحية ، وتلازمها لأنها حية ؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطوراً وكان التطور بطبيعته انتقالاً من حال إلى حال ، وكان هذا الانتقال نفسه موجوداً للخلاف بين جديد طارئ وقديم زائل . فليس للجديد بد من أن يجاهد ليظهر ويستأثر بالحياة ، وليس للقديم بد من أن يجاهد قبل أن يزول ويفقد سلطانه على النفوس . فما دامت هناك حياة فهناك قديم وجديد ، وجهاد بين القديم والجديد ، وأنصار للقديم وأنصار للجديد . وكما أننا مضطرون بحكم الحياة إلى أن نخضع للتطور ، فنحن مضطرون بحكم التطور نفسه إلى أن نحتمل الخلاف بين الذين يبكون مغرب الشمس والذين يتسمون لإشراقها . وكل ما نستطيع أو كل ما نرجو إنما هو ألا ننفق حياتنا في بكاء على الماضي أو ابتسام للمستقبل ؛ فقد يصرف البكاء والابتسام عن أن ننتفع بتراث الماضي أو نحيا بآمال المستقبل .

أكاد أعتقد أن ليس للقديم أنصار ، أى أن أنصار القديم ليسوا مخلصين في نصرهم للقديم ، أو أنهم يخدعون أنفسهم حين يظنون أنهم ينصرونه . ذلك أن هؤلاء القوم يحيون كما يحيا غيرهم من الناس . وثق أنهم ليسوا أقل الناس استمتاعاً بالذات الحياة وليسوا أقل الناس استبشاعاً لما فيها من بشع ، واستعداداً لما فيها من لين . وإذا فهم بين اثنتين : إما أن يكونوا صادقين حين يكون القديم ويحرصون عليه ، فهم يحيون حياتهم كارهين ويأخذون بلذاتها ويحتملون آلامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك رأى . فإن كانوا كذلك فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق . وكيف لا ترحم من يحيا راعماً ويلد راعماً ويألم راعماً ! . وإما ألا يكونوا صادقين في حبهم للقديم وحرصهم عليه ، وإذا فقيم هذا الضجيج والعجيج ، وفيم إثارة الخلاف وإطالة القول فيما لا يغني ولا يفيد ؛ ذلك أن القديم والجديد ليسا مقصورين على اللغة في ألفاظها ومعانيها أو في أساليبها وتراكيبها ، وإنما هما يتناولان اللغة كما يتناولان

غيرها من مظاهر الحياة المعنوية والمادية . وغريب أنك لا ترى الجهاد عنيفاً ولا تراه يشبه العنيف فيما يمس مظاهر الحياة المادية . فلو أنك طلبت إلى الذين يسرفون في نصر القديم ويمقتون أنصار الحديد ويصفونهم بالكفر، أن يأكلوا ويشربوا ويجلسوا على نحو ما كان يأكل أجدادهم منذ قرون وعلى نحو ما كانوا يشربون ويلبسون ويجلسون لما سمعت منهم إلا إنكاراً، ولما رأيت منهم إلا ازوراراً. ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون في الصحاف والأكواب من النحاس والفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكراسي رفضاً ، وأبوا أن يستمتعوا بكل ما أتاحت لهم الحضارة الحديثة من أدوات الترف واللذة البريئة . أريد أن أرى هؤلاء ، ولكني يائس من رؤيتهم . ولست أشك في أن من بينهم من يستمتعون في حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة من هذه الأدوات ، على حين لا يظفر من ذلك أنصار الحديد الملحون في الدعوة إليه إلا بالشيء القليل . وسواء علينا أكان أنصار القديم يستمتعون بالحديد راضين أم كارهين فهم يستمتعون به . والأمر على هذا النحو في اللغة وما يشبه اللغة ، فهم مضطرون ، سواء أرادوا أم لم يريدوا ، إلى أن يتحدثوا إلى الناس بلغتهم ليفهمهم الناس . وهم مضطرون إلى أن يسمعو لغة الناس ليفهمهم . وما نحسبهم حين يبيعون أو يشترون أو يحاورون في عمل من الأعمال يصنعون أساليب رؤبة والعجاج وأشباه رؤبة والعجاج ، إذاً لضحك منهم البائع والشارى والمحاور ، وإذاً لما وقف أمرهم عند ضحك الناس منهم بل لتجاوزه إلى ضياع منافعهم وفساد أغراضهم عليهم . وأنا ضمين لك بعدولهم عن القديم والحديد حين تتعرض منافعهم للخطر وأغراضهم للفساد .

ولسنا في حاجة إلى أن نتكلف في ضرب المثل لشيء من ذلك ؛ فقد قصصت عليك مرة أحدثثة « الحرسوس » التي كان يضيفها تلاميذ الأستاذ الشيخ المهدي رحمه الله إلى أستاذهم ، ورأيت أن بائع الشراب لم يفهم « الحرسوس » . ولولا أن الأستاذ فسره له وذكر الحروب وعرق السوس لما شرب ، ولاضطر إلى أن يحتمل آلام الظمأ حتى يجد ساقياً خبيراً بفن النحت وما إليه من ضروب التصريف . نصر القديم إذاً ضرب من التكلف ، وربما كان نوعاً من البدع ، يقصد إليه أصحابه تزييناً وتجملاً واختلاباً لألباب طائفة من الناس . فأما أولئك الذين ينصرون القديم عن إيمان واعتقاد ، وينصرونه في العمل كما ينصرونه في القول

فيحيون حياة القدماء ويسرون سيرتهم ، فإني أبحث عنهم دون أن أجد لهم أثراً
ظاهراً . . . !

على أن هناك قوماً مخلصين في إشفاقهم من الحديد وبكائهم على القديم .
ومصدر إخلاصهم أنهم لا يفهمون الحديد ولا القديم ولا الصلة بينهما ، وإنما هي
الألفاظ تخيفهم وتبعث في نفوسهم عواطف متناقضة ، فيحنون إلى تلك وينفرون
من هذه . وهؤلاء لا يناقشون ، وإنما يبين لهم الأمر على وجهه . ولا نحسب إلا
أنهم مطمئنون حين يعلمون أن أنصار الحديد لا يريدون أن تبدل الأرض غير
الأرض أو أن يخلق العالم خلقاً جديداً .

وليكن موضوع تفسيرنا للعلاقة بين القديم والحديد في هذا الفصل اللغة دون
غيرها من موضوعات الخلاف . وأول شيء نحب أن نسأل عنه هو اللغة نفسها ،
لمن هي ؟ ومن واضعها ؟ ومن الذي ينتفع بها ويصرفها في أغراضه ؟ فإن تكن اللغة
ملكاً لقوم دون قوم ووقفاً على جماعة دون جماعة ، فليس من شك في أن هؤلاء
القوم وحدهم هم أصحاب الحق في أن يصرفوا هذه اللغة في أغراضهم ومذاهبهم ،
فأما غيرهم فليس له إلا أن يقلدهم في ذلك تقليداً لا يتسع للخلاف ولا للتجديد .
أترى إلى المصري حين يصطنع لغة من لغات الغرب ليس له أن يزيد فيها
ولا أن ينقص منها ولا أن يغير أشكالها وأساليبها ، وإنما الحق عليه أن يذهب في
ذلك كله مذهب أهلها . أفنتظن أن حظ المصري من التصرف في اللغة العربية كحظه
من التصرف في اللغة الفرنسية ؟! ماذا نقول !! يخيل إلينا أننا أخطأنا التشبيه ،
ونحن مضطرون إلى أن نخطيء لأننا لا نجد إلى التشبيه سبيلاً . فنحن نعلم أن
كثيراً من الكتاب والشعراء الأجانب اصطنعوا الفرنسية لغة لنثرهم وشعرهم فأتقنوها كما
أتقنها أهلها المحيرون ، واستباحوا لأنفسهم فيها حقوقاً ليست أقل من حقوق أهلها ،
فأضافوا إليها ألفاظاً اخترعوها وأساليب ابتدعوها ، ولم ينكر الفرنسيون ذلك وإنما قبلوه
وانتفعوا به واتخذوه لهم متاعاً شائعاً . أفنتظن أن حق المصري في اللغة العربية أقل من
حق أولئك الكتاب والشعراء في اللغة الفرنسية؟ نفهم أنه لا يبدل وحى السماء ، ولكننا
نعلم أن اللغة ليست من وحى السماء ، وإنما هي ظاهرة من ظواهر الاجتماع الإنساني ،
لم يضعها فرد بعينه ولا جماعة بعينها ، وإنما اشتركت في وضعها الأمة التي تتكلمها ،
دون أن تعلم متى وضعها ، ودون أن تستطيع أن تعين لكل فرد من أفرادها أو جماعة من

جماعاتها حفظاً من ألفاظها وأساليبها . وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن تلاحظ في اللغة : ألفاظها ومعانيها وأساليبها شيئين مختلفين ، كلاهما يجعل تجدد اللغة أمراً محتوماً : الأول أن لنفسية الأمة وحاجاتها والظروف التي تحيط بها أثراً قوياً في تكوين اللغة ، وأن اللغة ليست في حقيقة الأمر إلا أثراً لهذه النفسية والحاجات والظروف . فإذا أردت ألا تتجدد اللغة ولا تتطور فابدأ بنفسية الأمم وحاجاتها وظروفها فقصفها عند حد معين لا تعدوه يتم لك ما تريد . الثاني أن الأفراد يتكلمون اللغة ويصرفونها في أغراضهم وحاجاتهم . ومهما يكن سلطان الجماعة على الفرد ومهما يكن خضوع الفرد للجماعة وفناء شخصيته في مجموعها ، فله حظ من الشخصية يمتاز به عن غيره من الناس . ولهذا الحظ من الشخصية الذي يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأفراد وحظوظهم من الرقي العقلي أثره في اللغة . فليس لك أن تكلف الشاعر أو الكاتب المجيد أن يصف شعوره وعواطفه وحسه كما يصفها رجل من عامة الناس . وليس لك أن تكلف العالم أن يصف علمه بنفس اللغة التي يتكلمها عامة الناس . فإذا أردت أن تحول بين اللغة وبين التجدد فابدأ بشخصية الأفراد فامحها محوياً تاماً حتى يستوى الناس جميعاً في الحس والذوق والفهم والشعور . فإن تمت لك هذه المساواة وتم لك حرمان الجماعة من التطور فسيتم لك وقوف اللغة عند حد من الجمود لا سبيل إلى تجاوزه . ولكنك تعلم أن هذا غير ميسور ، وأنتك لن تستطيع أن تصل إلى بعضه إلا إذا استطعت أن تقف دورة الفلك واختلاف الليل والنهار . وإذا فلسم للغة بحقها في التطور كما سلمت بذلك للجماعات ، وسلم الأفراد بحقهم في أن يصفوا الشيء كما يرونه ويعبروا عن الشعور كما يجدونه . وإذا سلمت لهم بذلك فأنت مكره على أن تؤمن بتجديد اللغة .

ستقول ولكني إن ذهبت معك إلى هذا الحد فقد حرمت اللغة كل ثبات واستقرار ، وقضيت بأنها تجدد متصل ، وقطعت الصلة بين أمسها ويومها وغدها . ولكنك مسرف في هذا الإشفاق . فكما أن الحياة تطور فالحياة اتصال ، وليس بين أجزاء الحياة فراغ ، وإنما هي انتقال من شيء إلى شيء ، ففيها حركة وفيها ثبات . ولولا ذلك لما كانت للأمم شخصيتها الاجتماعية ، ولما كانت للأفراد شخصيتهم الفردية . وإذا ففي كل شيء من هذه الأشياء الاجتماعية عنصران مختلفان لا قوام لأحدهما بدون الآخر : أحدهما عنصر الاستقرار ، والآخر عنصر

التطور . وقوام الحياة الصالحة لأمة من الأمم أو مظهر من مظهرها الاجتماعي إنما هو التوازن الصحيح بين هذين العنصرين . فإذا تغلب عنصر الاستقرار فالأمة منحطة . وإذا تغلب عنصر التطور فالأمة ثائرة والثورة عرض ، والانحطاط عرض ، كلاهما يزول ليقوم مقامه النظام المستقر على اعتدال هذين العنصرين . في اللغة إذاً قديم لا بد منه إذا أردنا أن تبقى اللغة ، وفيها جديد لا بد منه إذا أردنا أن نحيا ، وأنصار الجديد في اللغة والأدب لا يريدون إلا هذا النوع من الحياة . ليس من الجديد في شيء أن تفسد اشتقاق اللغة وتصريفها وأن تعدى الأفعال بالحروف التي لا تلائمها ، وأن تقلب نظام المجاز وضروب التشبيه ، كل ذلك ليس تجديداً وليس إصلاحاً للغة ولا ترقية لها ، وإنما هو مسخ وتشويه ، ليس أنصار الجديد بأقل كرهاً له من أنصار القديم . وليس من القديم الصالح في شيء أن تتغير الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التغير أو تلائم بينه وبين اللغة . وليس من القديم الصالح في شيء أن تكثر الأشياء المستحدثة التي تصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة ، فلا تستطيع أن تنطق باسمها إلا إذا وجدت لها اسماً عربياً ورد في المعاجم اللغوية القديمة . ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشعره غيرك من القدماء ، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القدماء ، فيضطرك هذا إلى أن تمسخ شعورك وتفسده وإلى ألا تكون لغتك مرآة لنفسك ، وإلى أن يكون ما تكتب أو تنظم ضرباً من النفاق . ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تأخذ نفسك بسلوك سبل القدماء في وصف الجمال ، فلا تعرف من فنون الشعر والنثر إلا ما عرفوا ، ولا تضيف إلى هذه الفنون شيئاً جديداً .

ولقد أريد أن أعلم ما الذي يمنعني أن أضع قصة تمثيلية إذا وجدت السبيل إلى ذلك ! وهل يحكم على أنصار القديم يومئذ بأنى أدخلت في الأدب العربي فناً لا عهد للعرب الأولين به فأسأت إلى العرب وإلى لغتهم وآدابهم ! . ولست أدري ما الذي يمنعني أن أنظم قصيدة قصصية أو أسلك في الشعر الغنائي نفسه مسلكاً غير الذي سلكه العرب في عصورهم الأولى ! ! وهل يحكم على أنصار القديم إذا فعلت بأنى قد خالفت مناهج العرب وأضفت إلى أدبهم ما ليس لهم به عهد فأسأت إلى اللغة وأهلها وعرضتها وعرضت الدين معها للخطر الذي ليس فوقه خطر ! . فأنت ترى أن الذين يضعون مسألة القديم والجديد موضع البحث يحصرون هذه

المسألة في موضع ضيق جداً ؛ فهي لا تتناول الألفاظ وحدها وهي لا تتناول الألفاظ والأساليب والمعاني ، وإنما تتناول مع هذه كلها فنون القول على اختلافها . علينا أن نحتفظ بقواعد اللغة ونظمها العامة فلا نفسدها ولا نشوهها ، ولكن لنا أن نتخذ هذه اللغة أداة لوصف نفوسنا وما نجد . وإذا قلنا أن نخضع هذه اللغة لما نشعر ولما نجد ، وأن نمنحها من المرونة ما يمكنها من أن تكون أداة صالحة لوصف ما نشعر وما نجد . وعلى هذا النحو وحده نستطيع أن ننصف أنفسنا وأن ننصف اللغة . ننصف أنفسنا فلا نحرّمها التعبير عما نجد ، ولا نضطرّها إلى النفاق والكذب في هذا التعبير . وننصف اللغة فلا نضطرّها إلى الانحطاط والجمود ، ولا نضطرّها إلى الاضطراب والاختلاط . ولست أدري كيف يستطيع أنصار القديم في اللغة أن يجدوا في مثل هذا النحو بدعاً من القول ، أو أن يجدوا فيه وسيلة إلى أخذ أصحابه بتعمد الإساءة إلى اللغة والدين !

لغتنا الرسمية منذ نصف قرن

لن نجد في هذا الحديث ظرف أبي نواس ولا دعابته ، ولا أثراً أدبياً من هذه الآثار التي تعودت أن أتحدث فيها إليك . ولكنك ستجد فيه شيئاً له قيمته وخطره ، وربما كان أعظم قيمة وأجل خطراً من ظرف أبي نواس ودعابته . ذلك لأنه يمسننا ويمسننا من قريب جداً . ولا تظن أنه يمسننا من حيث اللغة الرسمية وحدها ، فهو يمسننا من ناحية أخرى ، من ناحية الآثار المصرية والعناية بالآثار المصرية . ولقد حدثتك ذات يوم عن لغة الحجاز ، واتخذت منشور صاحب الجلالة الهاشمية فيما بينه وبين مصر من خلاف نموذجاً لهذه اللغة الحجازية . أما اليوم فأحدثتك عن لغتنا نحن الرسمية ، وأتخذ نموذجاً لهذه اللغة نصوصاً ثلاثة ، صدر أحدها عن أمير مصر سعيد باشا ، وصدر الثاني عن ناظر خارجيته ، وصدر الثالث عن البطر كخانة القبطية بالقاهرة . ولست أفسر هذه النصوص ، ولا أعلق عليها ، فهي تفسر نفسها وتشهد بالشأو البعيد الذي قطعته لغتنا الرسمية الآن ، على ضعفها وسوئها ، في الرقى والبراءة من الفساد . تشهد بذلك وتدعو كتابنا وأدباءنا إلى ألا يملكهم السأم والغیظ حين يقرءون ما يصدر عن دواوين الحكومة المصرية في هذه الأيام . فإن ما يصدر عن دواوين الحكومة المصرية في هذه الأيام قد يكون من آيات البيان العربي بالقياس إلى ما كان يصدر عنها منذ نصف قرن . ولكني أحب قبل أن تقرأ هذه النصوص أن تعرف موضوعها .

مرقس بك كابس عالم مصرى قبطى ، ولد فى طهطا سنة ١٨٣٠ ونال من روما شهادة الدكتوراه فى الفلسفة والعلوم الدينية سنة ١٨٥٧ وعاد إلى مصر ، وكان يريد أن يكون قسيساً كاثوليكياً ، ولكنه عدل عن هذا واشتغل بالحياة المدنية ، فعين سنة ١٨٦٣ أميناً مساعداً بالمتحف المصرى فى بولاق ومفتشاً للبحث عن الآثار ، ثم اعتزل هذا العمل سنة ١٨٧٥ وعمل فى تصفية بيت المال . ثم توفى سنة ١٩٠٥ ، وكان عضواً بالمجمع العلمى المصرى وترك آثاراً قيمة فى الهيروغليزية والقبطية ، قد تعرض لها فى غير هذا الحديث .

فلما اختير للعمل في المتحف المصري أراد أن يزور الأديار ويطلع على ما فيها من الكتب والآثار ، وسعى له « مريت » في ذلك عند الأمير ، فصدر الأمر إلى ناظر الخارجية بأن يتكلم في ذلك إلى البطر كخانة . ثم صدر من الأمير منشور إلى مديري الأقاليم ونظار محطات السكك الحديدية والمشرفين على السفن النيلية ، يطلب إليهم أن يعينوا هذا المفتش وييسروا عليه اقيام بما كلف به من البحث عن الآثار . وإليك هذه النصوص ، فاقراً واضحك ، وتدبر وتبين منها أن عناية المصريين بالآثار المصرية وتفوقهم فيها كان لهما منذ جين شأن ليس لهما الآن . ثم تقدم معي بالشكر إلى هذا الصديق الذي لا أسميه والذي تفضل على « السياسة » بهذه النصوص الثلاثة .

طه حسين

إعلان إلى مديرون الأقاليم قبلى وبحرى ونظار محطات السكة الحديد وأمور وابورات بحر النيل .

رافعه مسيو كابيز جرى انتخابه بمعرفة مأمور الأنتيقة لضرورة الاطلاع على الكتب والآثار الموجودين بالديورة القبطية الكائنة على شاطيء النيل والديورة التي بالصحراء والمأمور الموى إليه التمس بواسطة ديوان الخارجية صدور إعلان من لدنا بإعطاء ما يازم من الجمال وما يازم للمشالات والأنفار الكفاية لأجل مساعدته على هذه المأمورية المتوجه لها . وحيث وافق إرادتنا تعيينه لما ذكر واعطاه ما يازم من المديریات من جمال أو أنفار أو ركائب لتوصيله من أى جهة إلى الجهة التي يقصدها بالقطر المصرى قبلى وبحرى ثم إذا كان قاصداً جهة من لزوم هذه المأمورية ويكون وابور قائم من وابورات السكة الحديد أو البحر فيجرى نزوله وتوصيله فقد أصدرنا هذا الإعلان وعطى له بيده الاعتماد الاجرى بموجبه في الجهات التي يمر بها داخل الحكومة كما اقتضته إرادتنا .

ختم

محمد سعيد

٤ جاسنة ٧٨

نمرة سايرة ٥٧

صورة أمر وارد من سعادة أفندم الباشا ناظر أمور خارجية تاريخه ٢٣ سنة ١٢٧٨ نمرة ٣٠ خطاباً إلى وكيل بطارخانة الأقباط أن مدير الآثار التاريخية المعين منظارف سعادة أفندينا ولى النعم الحديوى الأعظم أنهى للأعتاب الحديوية أنه بحسب اقتضى المصلحة ينبغي مشاهدة كافة الديورة القبطية الموجودة بالقطر المصرى

التابعة إلى الطائفة رئاسة جنابكم إن كان على شواطئ بحر النيل المبارك أو بالصحراء لأجل الاطلاع على الكتب الموجودة بها والآثار القديمة . وبناء على التماس المولى إليه صدر لنا النطق السامى بمكاتبة محبتكم عن هذه الحصص لكي أن تحرروا من طرفكم إعلانات عمومية لكافة رويسا الديورة أن يرخصوا إلى مسيو كابييز الذى تعين لهذه المأمورية بالاطلاع على الكتب والآثار القديمة التى توجد بالديورة رياستهم . فلذا اقتضى تحريره لجنابكم نؤمل بوصوله لطرف محبتكم تأمروا من يلزم بتحرير الإعلانات اللازمة وترسلوها لطرفنا بمكاتبة من محبتكم لأجل توصلها إلى المعين فى هذه المأمورية ومأهولنا فى جنابكم نجاز ذلك فى أقرب وقعة اتباعاً للأمر الكريم .

* * *

من البطرخانة المرقسية بمحروسة مصر إلى جناب المكرم القمص عبد الملك ريس دير العدوى المعروف بالمحرق بجبل قسقام بمديرية أسيوط .
الأمر المحرر صورته أعلاه وارد من سعادة أفندم الباشا ناظر أمور خارجية إلى البطرخانة عنما تعلقة به الإرادة السنية من جهة البحث عن الآثار التاريخية وأنه صدر النطق السامى بتعيين المسيو أكابييز لمروره على كافة الأديورة القبطية والاطلاع عليها يوجد بهم باطلاعكم عليها حواه الأمر المشار إليه تفهمون الكيفية . وحيث أنه فرض واجب نفاذ ما تعلقه به الإرادة الداورية فاقتضى تحرير هذا من البطرخانة إعلاناً لكم لكي بقدم حضرة المسيو المولى إليه بلجهة طرفكم تقابلوه بمزيد الإكرام وتقديم واجبات التبجيل والاحترام وتمروا معه على محلات الدير بطرفكم وكلما أراد الاطلاع عليه وآثاره أو كتب تطلعوه عليه بحسبما يرغب بدون تمنع . ومن كون الغرض هو الاطلاع والمعاينة فقط كمنطوق الأمر فن بعد مطالعته عليها يصير الاطلاع عليه يصير إعادته وحفظه بمحله كما كان . وإنما الأمل تبدلون فى ذلك غاية جهدكم وتشمروا عن ساعد جدكم فيما يلزم نجاهه حتى يعود شاكر لحسن مرآكم والمخدور أن يحصل قصور من طرفكم يوجب لملامتكم معاذ الله تعالى .

ختم

من البطرخانة المرقسية بمصر

الشيخ محمد المهدي

يكفي أن تكون على حظ من الوفاء لتشعر بأن في فقد الأساتذة شيئاً من اليم كهذا الذي يجده الناس في فقد الآباء . لأن في الصلة بين الأستاذ وتلميذه شيئاً من الأبوة والبنوة يختلف قوة وضعفاً باختلاف ما للإستاذ من تأثير في نفس التلميذ . ولقد رأينا تلاميذ فتنوا بأساتذتهم وأحبوهم حباً لا حد له . فليس عجباً أن يحزن كثير من شباب مصر وشيوخها هذا الأسبوع لأنهم فقدوا أباً لهم كانوا يحبونه ويميلون إليه ميلاً شديداً ، هو الأستاذ الشيخ محمد المهدي رحمه الله .

لست أعرف تفصيل حياته ، ولكني أعرف أن تلاميذه لا يكادون يحصون ، وأنه من أبعده الأساتذة أثراً في الحياة المصرية الحاضرة . فقد علم في دار العاوم ، وفي الجامعة ، وفي مدرسة القضاء الشرعي أعواماً طويلاً ، وانتشر تلاميذه في أقطار مصر ، وتناولوا فروعاً مختلفة من حياتنا العلمية والعمالية . فكثير جداً من المعلمين – ولا سيما الذين يعلمون اللغة العربية وآدابها – درسوا على الأستاذ ، وكثير جداً من القضاة والمحامين الشرعيين درسوا عليه ، وكثير جداً من الموظفين في الحكومة وغير الموظفين اختلفوا إلى دروسه في الجامعة زمناً طويلاً أو قصيراً . وكل هؤلاء تأثر بالأستاذ ، واستفاد من دروسه ، وكل هؤلاء اجتهد في أن ينتفع ما استطاع وفي أن يستغل ما أخذ عن الأستاذ .

ولست أعرف نوعاً من أنواع الدرس أظهر أثراً في نفس التلميذ من دروس الآداب على اختلافها . فلا يكاد التلميذ يعنى بفن من فنون الأدب أولون من ألوان النظم والنثر حتى يظهر أثر ذلك في حديثه وتفكيره بل في حياته العملية أيضاً . وربما كان من اللذيذ الممتع أن يختص باحث بدرس ما أحدثت في حياتنا العقلية والذوقية آداب العرب الجاهليين والإسلاميين والعباسيين منذ عينا بدرسها درساً مفصلاً في هذا العصر الحديث . ومالنا نتكلف البحث عن ذلك ونحن نستطيع أن نجد ظاهراً كل الظهور إذا قارنا بين ما كان يكتبه وينشئه الكتاب والشعراء المصريون منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، وما يكتبه وينشئه الكتاب

والشعراء في هذا العصر الذي نعيش فيه بعد أن درست الآداب العربية القديمة درساً لا يزال ناقصاً نقصاً شديداً ، ولكنه جليل الخطر بالقياس إلى ما كان عليه علمنا بهذه الآداب قبل أن تنشأ دار العلوم والجامعة ومدرسة القضاء ، وقبل أن تدخل دراسة الآداب في المدارس الثانوية .

ستقول : ولكن رقى الشعر والنثر كثيره من ضروب الرقى التي يمتاز بها هذا العصر ليس مقصوداً على درس الآداب العربية . ولست أجادلك في ذلك لأني مقتنع به . ولكنك لن تجادلني في أن حظ الآداب العربية في هذا الرقى أعظم وأظهر من أن يكون موضعاً للشك أو الجدل . فأستاذ الآداب العربية ، ولا سيما في المدارس العالية كدار العلوم والقضاء والجامعة ، بعيد الأثر كما قلنا في تكوين الشباب المصري . وكان الأستاذ الشيخ المهدي رحمه الله أستاذاً في هذه المعاهد الثلاثة جميعاً . ولولا أن الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في شغل عن كل شيء هذه الأيام بالأزمة السياسية والانتخابات وما إليها ، لما مروت الأستاذ رحمه الله كما مر دون أن يشعر به إلا نفر قليل . نعم ! لولا أن هذه الأزمة السياسية أحدثت شيئاً غير قليل من اختلال التوازن في حياتنا العامة وفي حياتنا الفردية لما سكت الكتاب والشعراء من تلاميذ الأستاذ على هذا الخطب العظيم قد نزل بهم حين لم يكونوا ينتظرونه ولا يخشونه . فقد كان الأستاذ الشيخ مهدي من الصحة والقوة بحيث ما كان أحد يخشى عليه هذا الموت الذي عاجله فأراحه من آلام هذه الحياة وأورث تلاميذه وأبناءه أماً مبرحاً وحزناً شديداً .

لم يكن الأستاذ الشيخ مهدي كاتباً ، ولم يكن شاعراً ، وإنما كان أديباً ، أو قل كان أستاذاً من أساتذة الأدب . ولقد أريد أن أترك منه في هذه الكلمة صورة قريبة من الصدق . أريد أن أكون مؤرخاً لا مداحاً ولا راثياً وأشعر بأن عمل المؤرخ في مثل هذا المقام ليس بالشيء السهل .

لم يكن الشيخ محمد مهدي من أنصار القديم ، ولكنه لم يكن من أنصار الجديد وإنما كان وسطاً بين هاتين الطائفتين . كان يزدري أنصار القديم ويغلو بعض الشيء في ازدراءهم ، وكان يراهم خطراً على الرقى العقلي وعلى الحياة الصالحة . كما أنه لم يكن يحب الغلاة من أنصار الجديد ، بل كان يتبرم بهم كثيراً ويراهم خطراً على الحياة الاجتماعية والدينية بنوع خاص . كان شديد الإعجاب بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وبعض تلاميذه ، بل كان إعجابه هذا لا حد له ،

وكان سبباً من أسباب قصوره عن إدراك الحياة ، فكان يخيّل إليه أن المثل الأعلى من الرقى العقلي ومن الحرية العقلية إنما هو ما وصل إليه الشيخ محمد عبده ، وأن الذين ينحرفون عن طريق الأستاذ الشيخ محمد عبده إلى ناحية الجمود كالذين ينحرفون عن طريقه إلى ناحية التقدم خطرهم على الحياة الاجتماعية والدينية والعقلية. أولئك يؤخرونها ، والتأخر شر ، وهؤلاء يشبون بها ، والوثوب خطر . ثم كان الأستاذ الشيخ مهدي يمثل جيلاً خاصاً من الأساتذة والأدباء ، هو أقرب الآن إلى أن ينتهي ويترك مكانه لجيل من الشبان يخالفه المخالفة كلها . كان قد أدرك ذلك العصر الذي لم تكن فيه حياتنا العقلية والأدبية راقية ولا مرضية ، وكان من الذين ظهر فيهم الرقى الحديد ، فكان معجباً بهذا الرقى مفتوناً به . واحتفظ بإعجابه هذا إلى آخر أيامه ، فكان يرى نفسه خيراً من غيره ، وكان لا يتكافى الاحتياط في إخفاء ذلك أو الاقتصاد فيه ، وكان أصدقاءه وتلاميذه الذين يحبونه ويمياون إليه يسمعون منه ذلك راضين بل متفككين . كانوا يبسمون له ويستعيدونه ، فإذا انصرف عنهم الأستاذ أعادوا ما سمعوا منه وضحكوا لا ضحك سخرية وازدراء بل ضحك عطف وحب .

كان الأستاذ الشيخ مهدي حاو الحديث خلاً به ، وكان يؤثر اللغة العربية الفصحى ويتكلفها ويتخير منها ألفاظاً غريبة وأساليب شاذة أو غير مألوفة في الأحاديث العادية فكانت مضطراً إلى أن تضحك وأنت تتحدث إليه أو تسمع له ، وكانت هذه مزية من مزاياه . وما أعرف أني تحدثت إلى الأستاذ أو سمعت له راضياً أو ساخطاً جاداً أو هازلاً دون أن أضحك ويضحك ، ودون أن أغرق ويفرق في الضحك . وانتشرت عن الأستاذ أقاصيص في هذا ، منها الصحيح ومنها المتكلف . فكثير من تلاميذه يتحدثون فيما بينهم أن الأستاذ لقي في يوم من أيام الحر رجلاً من الذين يبيعون الشراب في شوارع المدينة وكان ظمناً ، فأراد أن يشرب وأن يشرب مزيجاً من « الحروب » و « عرق السوس » ؛ فطلب إلى الرجل كوباً من « الحرسوس » ، فوجم الرجل لأنه لم يفهم هذا اللفظ . قال الأستاذ : عجيب ! ما تعرف « الحرسوس » إنه منحوت من الحروب وعرق السوس ! وما أظن أن هذه الأسطورة صحيحة . ولكن لا أشك في أنها تمثل ناحية من نواحي الأستاذ ؛ فهو كان يجتهد دائماً في أن يكون فصيح اللسان عذب اللفظ . وما أنس لا أنس قوله لي - وأظنه تكرر مائة مرة ومرة فقد كان يعيده كلما قدم

إلى « سيجارة » وهم بإشعالها - : « انتظر حتى ألعها لك » . وكان على ذلك يكره من غيره التشدق واختراع الألفاظ والأساليب ، ويرى ذلك شيئاً ممقوتاً ويسخر منه في دروسه ومجالسه . أذكر أنى كنت أكتب قبل الحرب مقالات في « الجريدة » حول الآداب العربية ، وكنت أذكر لفظ مدرسة الآداب أريد به شيوخ الأدب العربى في مصر ومنهم الشيخ مهدي ، وكنت أناقشهم وأنكر عليهم بعض أحكامهم فكان الأستاذ شديد التبرم بمدرسة الآداب هذه ، وكان لا يترك فرصة تعرض في درس من دروسه في الجامعة دون أن يسخر من مدرسة الآداب ، فكان يقول : « يذكرون مدرسة الآداب . ولست أدري ما معناها ولا أين هي ؟ في أى شارع توجد مدرسة الآداب أو أى حارة ! من عرف ذلك منكم فلينبئني » . وكنت أسمع ذلك فأبتسم ، فإذا انتهى الدرس تصافحنا فضحك وضحكت ، وفهم كل منا لماذا ضحك .

وكان في أخلاقه - رحمه الله - شيء من الطفولة ؛ فكان سريع الغضب جداً سريع الرضا جداً ، وكان غضبه حلوياً وكان رضاه لذيذاً . ولست أغلو في ذلك ولا أتكلف ؛ فقد كان غضبه حلوياً إلى حد أن تلاميذه في دار العلوم القضاء والجامعة - وأنا منهم - كانوا يتعمدون إغضابه لأن غضبه كان يلذهم ، ثم كانوا إذا أغضبوه وأرضوه من غضبه لذتهم أرضوه فرضى ، وكان عذب الرضا . ولقد أذكر أنى كنت أثقل التلاميذ عليه في الجامعة ، فما كنت أترك له درساً دون أن أغاضبه مناقشة وإثقالاً في المناقشة ، حتى إذا بلغ الغضب أقصاه سكت عنه ، وانتهى الدرس فذهبت إليه . فما أكاد أمد يدي حتى يقبلها راضياً ضاحكاً وقد نسي كل شيء . وأذكر أنى أغضبته مرات وتجاوزت في إغضابه الحد المألوف واحتجت إلى أن أترضاه بعد ذلك ، فكان هذا الصلح ينتهى دائماً بغرم يقبله الأستاذ متهجاً مسروراً لأنه كان يدعونا إلى الغداء عنده يوم الجمعة . كنا نغضبه وكان يرضينا .

ولست أعرف تلميذاً كان أثقل على أستاذه وأقسى منى على الأستاذ الشيخ مهدي . ولكنى لا أظن أن بين تلاميذ الأستاذ من أحبه حبي إياه . كنت قاسياً وكان قاسياً أيضاً . وظهرت هذه القسوة المتبادلة - إن صح هذا التعبير - عنيفة مرتين : الأولى عندما كنت أضع كتاب أبي العلاء وأتقدم لامتحان الدكتوراه في الجامعة المصرية ؛ فقد سمعت له درساً في شعر أبي العلاء ووقع بيني

وبينه خلاف في رأى أبي العلاء في البعث ، زعمت شيئاً وأنكره ، وطالبنى بالدليل ولم يحضرنى الدليل في الدرس ، فظهرت مظهر المهزم ، وسره ذلك وظهر سروره ، فحفظتها في نفسى ، ومضيت في تأليف الكتاب ، حتى إذا وصلت إلى رأى أبي العلاء في البعث تناولت هذا الرأى، وكنت قد قرأت اللزوميات كلها ، وظفرت بما كان يطلب إلى من دليل ، فذكرت ما كان بينى وبينه من خلاف ، وذكرت ذلك في لفظ لا يخلو من الفخر القاسى ، ثم انتصرت عليه ولم أنتصر في رفق ، وكنت أعلم وأنا أكتب أنه سيقراً هذا الكتاب ، وسيكون عضواً في لجنة الامتحان ، وكنت أعرف قسوته وغضبه . ولكنى مضيت ، وقدمت الكتاب وجاء يوم الامتحان ، وكان يوماً مشهوداً . ولعل الذين حضروا الامتحان - وكانوا كثيرين جداً - يذكرون أنى أمضيت في هذا الامتحان ثلاث ساعات ذهب أكثرها في جدال عنيف بين الأستاذ الشيخ مهدي وبينى ، حتى أنكر الجمهور ذلك وسئمه . ثم عرف منه بعد ذلك أن اللجنة خلت للمداولة ، وكان رأيها حسناً في الطالب ، وكانت تريد أن تمنحه أحسن ألقابها ، ولكنه أبى الإباء كله ، ووفق لأن اكتفت اللجنة بمنح الكتاب لقب « جيد جداً » بدل لقب « فائق » . وكان سرور الأستاذ بهذا الظفر عظيماً حتى تحدث به في مجالسه . ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتكلم في كل الحفلات التي أقامها لى إخوانى طلبة الجامعة وغيرهم بعد هذا الامتحان فيثنى على بما شاء له ظرفه وحبه لتلميذه العنيد .

أما المرة الثانية فقد كانت خطرة بل خطرة جداً . عدت من أوروبا بعد أن مكثت فيها أشهراً سنة ١٩١٥ فذهبت إلى درس الأستاذ ، وكنت قد اختلفت في فرنسا إلى دروس أساتذة الآداب الفرنسية ، فقارنت بين درس الأستاذ وبين ما رأيت في فرنسا . ولم تكن المقارنة مرضية ، ولكنى نشرت هذه المقارنة في صحيفة أسبوعية هي جريدة السفور . فلم يكده يقرؤها الأستاذ حتى ملكه سخط لا حد له وحتى أراد أن ينتقم ، فشكافى إلى مجلس إدارة الجامعة ، وكنا نتأهب للعودة إلى أوروبا ، وكان من الممكن جداً أن يوفق الأستاذ لحرمانى هذه العودة . وأذكر أن المرحوم علوى باشا دعانى ذات صباح لى الجامعة فذهبت ، فلما دخلت عليه استقبلنى استقبالا سيئاً جداً ، وكان شديد الحب لى والعطف على ، وقال : « ماذا كتبت عن أستاذك الشيخ مهدي ؟ » قلت : « كتبت رأى في درس من دروسه » . قال في عنف : « ولكنك تجاوزت مع أستاذك حد الأدب ؛

اذهب فاعتذر إليه وإلا فإن الجامعة لن ترضى منك هذا ، وستكون عاقبة هذا الموقف سيئة جداً » . أجبتة : ما كنت لأعتذر من رأى أراه ؛ وانصرفت مغاضباً . ولولا أن المرحوم علوى باشا وزملاءه أعضاء إدارة الجامعة كانوا يعطفون على عطفاً شديداً لساءت الحال . ولكن علوى باشا طلب إلى الأستاذ « بهجت بك » أن يجمع بينى وبين الشيخ مهدي ويجهد في الإصلاح بيننا . وجمعنا بهجت بك في دار الآثار العربية . وما كان أيسر الصلح حين اجتمعنا ، ثم ائتلف مجلس إدارة الجامعة وأقر ما كان بيننا من صلح ، وانتهى هذا الخصام الذى تناولته الصحف أكثر من أسبوعين ، كما كانت تنهى الخصومات بين الشيخ مهدي وبينى بدعوة إلى الطعام .

إني لأذكر هذا كله ، والله يشهد أن قد امتلأ قلبي حزناً حين بلغنى موت الأستاذ . نعم ! إني لأذكر هذا كله والله يعلم ما امتلأ قلبي إلا برأ به وحباً له . والله يشهد ما أضمرت في يوم من الأيام موجدة على الأستاذ أو انصرافاً عنه ، وما كنت في هذا كله إلا مداعباً قاسياً ، وما أحسب أنه كان في هذا كله إلا مداعباً قاسياً أيضاً .

قلت : إن شيئاً من الطفولة كان في أخلاق الأستاذ . ولكنى أقول : إن شيئاً كثيراً من الرجولة كان في أخلاقه أيضاً . فما عرفت أوفى منه بعهد ، ولا أحرص منه على مودة . ولقد عجبت من أمره غير مرة ، فكنت أراه يغير الرأى في كثير من الأشياء ، وكنت أحيى إلى نفسى أنه رجل هوى متأثر بالميل الوقتية أكثر من تأثره بالآراء والعقائد ، إلى أن كانت الأزمة السياسية والفتنة التى انقسم لها المصريون . رأيت أثناء هذه الفتنة مرات كثيرة في ظروف مختلفة حين رجحت كفة وهوت كفة وحين رجحت الكفة الهاوية وهوت الكفة الراجحة ، فما رأيت فيه هذه المرة تغييراً فى الرأى أو انصرافاً عن المذهب ، وإنما اضطربت الأمور من حوله ، فال مال وتلون من تلون ، وظل هو فى موقفه ثابتاً لم يتقدم ولم يتأخر ، لم تفتنه السلطة ، ولم يخلبه التصفيق ولم تخفه ألوان الأذى ولقد لحقه منها غير قليل .

كان الأستاذ الشيخ مهدي رجلاً ، ولكنه كان رجلاً خلاباً ، حلو المحضر ، حسن الحديث . ولقد انصرف عنا حين لم نكن نخشى انصرافه . انصرف عنا وكان منا من يكلف به ومنا من لا يسرف فى الميل له . انصرف عنا ولكنه ترك فى

نفوسنا جميعاً على اختلاف آرائنا فيه صورة حلوة مبتسمة داعية إلى الابتسام ،
فسنذكره كثيراً ، وسنأسف عليه أسفاً شديداً ، ولكننا سنذكره وسنأسف عليه
مبتسمين لأنه كان ابتساماً كله .

ولقد أريد أن أقدم إلى أهله وذوي قرياه أصدق العزاء ، ولكنني أشعر بأن
رجال الأدب العربي كافة وأساتذته بنوع خاص ليسوا أقل من أهله وذوي قرياه
احتياجاً إلى العزاء .

فلتشمه رحمة الله الواسعة ، وليسعد ، فقليل جداً من الناس من يترك في
نفوس أصدقائه وخصومه هذه الصورة الحلوة المبتسمة .

« علم الأخلاق » لأرسطاطاليس

ترجمة الأستاذ أحمد لطفى السيد

بين يدي ديوان عمر بن أبي ربيعة وكتب أخرى تذكر عمر بن أبي ربيعة كنت أقرأها لأنى كنت أريد أن أحدثك عن هذا الشاعر فى هذا الأسبوع . ولكن حادثاً أدبياً ذا خطر صرفى عن ديوان ابن أبي ربيعة وعن الأغاني وغيره من كتب الأدب ، كما صرفنى عن أن أتخذ الأدب موضوعاً للحديث هذه المرة. هذا الحادث هو ظهور « كتاب الأخلاق » لأرسطاطاليس مترجماً إلى اللغة العربية بقلم أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد .

أظن أنك تقرنى على أن أدع ابن أبي ربيعة وما يتصل به وأنصرف إلى أرسطاطاليس ومترجمه المصرى هذا الأسبوع ؛ فإن ظهور مثل هذا الكتاب بقلم مثل هذا المترجم ليس من الحوادث الأدبية التى ألفناها أو أتاح لنا الدهر أمثالها فى مصر من حين إلى حين .

نحن « مفطومون » كما يقول الفرنسيون من هذه الحوادث الأدبية الخطيرة التى تحدث فى البلاد الحية فهتر لها نفوس الأدباء والعلماء التى يوشك حدوثها أن يكون قواماً طبيعياً للحياة الأدبية فى تلك البلاد .

نحن « مفطومون » من هذه الحوادث ؛ فقد تمر الأعوام وتتلوها الأعوام دون أن يتحدث الناس بأن كتاباً قيماً خليقاً بالخلود قد ألفت أو ترجم أو لخص ، وإنما حياتنا الأدبية هادئة فاترة ، أو قل إنها راكدة ، لا تعرف الحركة والاضطراب . فقطر على الصحف السياسية وتتغدى على الصحف السياسية وتتغشى بالصحف السياسية ، حتى لقد سممت عقولنا ونفوسنا وقلوبنا بالصحف السياسية وما فى الصحف السياسية . وأنا أعتذر من هذا إلى كتابنا السياسيين سواء منهم الأصدقاء والخصوم ، أعتذر إليهم من هذا التعبير العنيف فى مضطرب إلى مضطرباً بعد أن استأثروا بحياتنا الأدبية استئثاراً يوشك أن يكون تاماً ، فصرفونا أو كادوا يصرفوننا عن كل شىء إلا سياستهم وخصوماتهم ، وإلا ما يتورطون ويورطون

الناس معهم فيه من ألوان الجدل التي ليس لها حد ولا قرار .
 إن للبلاد الأخرى حياتها السياسية وما تستتبعه من اضطراب ، قد يشتد حتى يصل إلى العنف بل إلى الثورة . وإن في البلاد الأخرى خصوماتها الحزبية حول الحكم وما يتصل بالحكم . وإن للبلاد الأخرى ساعات وأياماً من حياتها السياسية ملؤها الفزع الذي يستأثر بالنفوس أو الفرح الذي يستهوي الألباب . ولكن هذا كله لا يصرف الناس في تلك البلاد عن حياة العقل والشعور ولذة العقل والشعور إلى الشهوات السياسية والأهواء السياسية كما يصرفنا نحن في مصر . لقد اضطرب العالم اضطراباً لم يعرف التاريخ مثله ، واستمر هذا الاضطراب أعواماً أزهدت فيها نفوس لا يكاد يبلغها الإحصاء ، وجرت فيها الدماء أنهاراً دون أن تكون في هذا التعبير مبالغة أو غلو ، وآمت فيها نساء ويتمت فيها أطفال واختل فيها التوازن الاقتصادي والخلقي والأدبي اختلالاً لا مثيل له . ولكن هذا كله لم يصرف أوروبا ولا أمريكا عن حياة العقل والشعور أو لذة العقل والشعور . ماذا أقول ؛ بل إن هذا كله قد رغب أوروبا وأمريكا في حياة العقل والشعور ، ولذة العقل والشعور ، فكثرت التأليف وكثرت الترجمة ، واشتد ما بين الأمم من صلوات ، فحرصت الحرص كله على أن يعرف بعضها بعضاً ويفهم بعضها نفسيات بعضها الآخر . وما أحسب أن الأمم تعاونت على الحياة العقلية والشعورية في عصر من العصور كما تعاونت عليها أثناء الحرب الكبرى .

أما نحن فسل عن حينا للحياة العقلية وعن عنايتنا بها قبل الحرب وأثناء الحرب قبل الثورة وأثناء الثورة ، ونبتني عن نتيجة هذا الحب وهذه العناية ، فلن تجد شيئاً تنبني به إلا أنك خجل مثل هذه الجهود المضنية في غير نفع ولا غناء . أليس غريباً أن تضطرب مصر اضطرابها هذا دون أن يكون لهذا الاضطراب أثر علمي أو أدبي يخلده التاريخ ؟ أليس غريباً أن يكون وقت الثورة الفرنسية هو أشد عصور فرنسا خصباً وأعظمها ثروة من الوجهة العلمية والأدبية والفنية والسياسية على ما امتلأ به هذا الوقت من هول ، وأن تكون ثورتنا أشد الثورات جذباً وفقراً وضيقاً ؟ نعم ! هذا غريب ! ولكنه مع ذلك شيء واقع لا سبيل إلى الشك فيه ، ولا خير الآن في البحث عن أسبابه ونتائجه .

تستطيع أن تلقى من شئت أين شئت ومتى شئت ، فلن يكون الحديث بينكما إلا في السياسة وما نشرت الصحف السياسية من أنباء وما امتلأت به من جدال

وخصوصة . فأما العلم ، فأما الأدب ، فأما الفن ؛ فكل ذلك شئ لن تعرضا له في حديثكما إلا إذا اضطررتما إليه اضطراراً ، وما أحسب أنكما تضطران إليه .

فإذا كانت هذه حالنا ، وإذا كنا قد بلغنا هذا الحد من الإفلاس الأدبي والعلمي والفني ، فليس غريباً أن ننظر إلى هذه الحادثة الأدبية التي أتحدث عنها اليوم كما ننظر إلى شئ استثنائي عظيم الخطر . ولم لا يكون استثنائياً ونحن بإزاء مؤلف ليس كغيره من المؤلفين ، و مترجم ليس كغيره من المترجمين ؟ أريد أن أعلم إلى أي مؤلف أو إلى أي عالم أو إلى أي فيلسوف نستطيع أن نقرن أرسطاطاليس ! أما أنا فلست أعرف له نظيراً منذ ظهرت الفلسفة الإنسانية ، وما أعتقد أن أحداً غيري يستطيع أن يجد له نظيراً . ومهما يكن من شئ فأرسطاطاليس هو المعلم الأول حقاً كما سماه العرب ، وهو أبو الفلاسفة حقاً ، وهو زعيم الفلاسفة حقاً وأبقاهم سلطاناً وأرفعهم مكاناً وأشدهم ثباتاً للدهر وقوة على الأيام .

وأريد أن أعلم إلى أي كاتب أو إلى أي مفكر أو إلى أي مترجم في مصر أو في الشرق العربي كله نستطيع أن نقرن الأستاذ أحمد لطفى السيد . أما أنا فلست أعرف له نظيراً في الكتابة ولا في التفكير ولا في الترجمة ، وأزعم أن ليس بين المصريين وغير المصريين من يستطيع أن يجد له نظيراً في هذه الوجوه الثلاثة من وجوه الحياة الأدبية : التفكير والكتابة والترجمة .

سمى العرب زعيم الفلاسفة اليونانية المعلم الأول ، وكانوا في ذلك منصفين . وأنا أزعم أن الأستاذ أحمد لطفى السيد معلمنا الأول في هذا العصر ، وأزعم أنى في ذلك صادق منصف ، ومتواضع أيضاً .

لست من الغلو بحيث أقرن الأستاذ لطفى السيد إلى أرسطاطاليس . فأرسطاطاليس هو المعلم الأول للإنسانية الخالدة ، و لطفى السيد هو المعلم الأول لعصرنا هذا الذى نحن فيه . وأين يقع هذا العصر المصرى الضئيل ومكان الأستاذ لطفى السيد فيه ، من حياة الإنسانية الخالدة ومكان أرسطاطاليس فيها ! لست إذاً غالباً ولا مسرفاً ولا مؤثراً لصديقى ؛ فأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد صديقى لى كما أنه صديق للشباب الناهض المفكر كله . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد أستاذ لى كما أنه أستاذ للشباب الناهض المفكر كله . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد قد يحبه قوم وقد لا يحبه آخرون ، ولكن الناس جميعاً يكبرونه ويقدرونه لأنه مفكر قبل كل شئ ، وكاتب قبل كل شئ . وأى الناس يستطيع ألا يكبر الكاتب والمفكر إذا

كان كاتباً حقاً ومفكراً حقاً !

أشهد أن للصدقة حقوقاً ، وأن هذه الحقوق قد تجل في كثير من الأحيان على الإيثار والمحابة وتجاوز الحق ، ولهذا أتحرج لأني أخشى أن يربو الحب والصدقة على الإنصاف في النقد . ولكني أكتب عن الأستاذ لطفى السيد في غير تحرج ولا إشفاق ولا خوف من محابة ، وإنما أخاف شيئاً آخر ، أخاف ألا أفيه حقه من الإنصاف ، ولا أبلغ به ما هو أهل له من الثناء . ولقد أشعر وأنا أملى هذا الفصل أني لا أكتب عن نفسي ولا عن طائفة قليلة عن أمثالي ، وإنما أصف شعوراً عاماً وعاطفة شائعة في هذا الجيل الذي كان يقرأ « الجريدة » ومقالات الأستاذ لطفى السيد فيها ، والذي كان لا يكاد يقرأ فصلاً من فصول الأستاذ حتى يشعر بأن في الأدب العربي شيئاً جديداً فيصبو إلى أن يتعرف هذا الجديد ، فإذا هو أمام شخصية قوية خلاصة خصبة محبة إلى النفس قد ملكت عليه عقله واستأثرت بهواه ، وإذا هو يجد في هذه الفصول لذة لا يستطيع أن ينصرف عنها ولا أن يسلوها ، لذة كلذة الكيف ، إن صح هذا التعبير ، ولكنها لذة تغزو وتفيد ، وإذا هو يقرأ هذه الفصول ويقرؤها ، ويحاول أن يتخذ لفظها نموذجاً للكتابة ومعناها نموذجاً للتفكير ، وإذا هو يتجاوز الأستاذ وفصوله إلى الحياة الأوربية الحديثة والتفكير الأوربي الحديث ، وإذا هو من أنصار الجديد في قصد واعتدال ، وإذا هو من الذين يدعون إلى الإصلاح العقلي ويحرصون عليه ومن الذين يدعون إلى حرية الرأي ويدودون عنها ، وإذا هو من الذين يريدون أن يزيلوا هذه الفروق التي كانت تقوم بين العقل الشرقى والعقل الغربى وإذا هو يريد أن تكون مصر العقلية جزءاً من أوربا العقلية ، ولكن على أن تحتفظ مع ذلك بشخصيتها القومية واضحة قوية .

لقد نستطيع أن نشخص فلسفة الأستاذ لطفى السيد بهذه الحاصل :
 الأولى أنها فلسفة تجديد وإصلاح ، لا يقومان على هدم القديم ، بل يقومان على تنقيته وتصفيته وتقويته وإزالة ما فيه من أسباب الانحلال والضعف . الثانية أنها فلسفة حرية وصراحة ، ولكن بأوسع معاني الحرية والصراحة العقلية . الثالثة أنها فلسفة ذوق وقصد في اللفظ والمعنى والسيرة معاً . الرابعة أنها فلسفة كرامة وعزة واعتراف بالشخصية الإنسانية وحمل الناس على أن يعترفوا بهذه الشخصية .
 عد إلى آثار الأستاذ لطفى السيد في الجريدة فاقرأها وتدبرها استقصاء ،

ثم انظر إلى الأستاذ وإلى تلاميذه وأصفيائه تجدهم قد أخذوا بحظهم من هذه الحصال ؛ فهم مصلحون ودعاة إلى التجديد ، وهم أحرار ودعاة إلى الحرية ، وهم محبون للدوق حين يفكرون وحين يعملون ، وهم أباة حريصون على الكرامة الفردية والاجتماعية ، لهم لون خاص يمتازون به ويعرفون بين الطبقات المختلفة والأصناف المتباينة من الناس . يتخذهم خصومهم أحياناً هزواً وسخرية ، ولكنهم على ذلك كله يقدرونهم ويتأثرون بخطاهم ويحسدونهم على ما يسخرون منهم من أجله .

إن التاريخ منصف بطبعه ، ولكنه يحتاج إلى وقت طويل ليستطيع أن يصدر حكمه العادل . وليصدرن التاريخ حكمه قريباً . وليشهدن التاريخ بأن مصر مدينة بالشيء الكثير جداً للأستاذ لطفى السيد في نهضتها العقلية والسياسية والاجتماعية ، وليضممن التاريخ لطفى السيد إلى صديقيه المصلحين محمد عبده وقاسم أمين .
ولقد أبتسم ابتساماً فيه شيء من الحزن ، وفيه شيء من الأمل أيضاً حين أسمع الاستقلال التام ، وحين أسمع الحرية الدستورية ، وحين أسمع سلطة الأمة ، وحين أسمع أشياء كثيرة أصبحت قوام حياتنا الحاضرة . أبتسم ابتساماً فيه حزن وأمل ؛ لأن هذه الألفاظ وهذه المعاني هي ألفاظ لطفى السيد ومعاني لطفى السيد ، ليس في ذلك نزاع ولا جدال إذا هدأت الأهواء والشهوات واستطعنا أن نكون منصفين .

أبتسم ابتساماً حزن وأمل : حزن لظلم الجيل الذي نحن فيه ، وأمل في إنصاف الأجيال المقبلة . ولكنى لا أذكر الأستاذ لطفى - وأنا أذكره كثيراً جداً - إلا ابتسمت ابتساماً ملؤه الإعجاب والإكبار ؛ لأنى أذكر هذا الذى اندفع فى الجهاد السياسى ما كان الجهاد السياسى نافعاً ، حتى إذا عصفت عواصف الحرب وأصبح الجهاد السياسى العلى مستحيلاً أو كالمستحيل لجأ هذا الرجل إلى زاوية من الزوايا فى غرفة من الغرف ، وأخذ يقرأ المعلم الأول ، ويتحدث إلى المعلم الأول ، ويترجم المعلم الأول ، حتى وضعت الحرب أوزارها وهو على اشتغاله بالمعلم الأول يرقب الحوادث من كئيب . فلما ظهر أن استئناف الجهاد السياسى ميسور مفيد قال للمعلم الأول : « إلى اللقاء » واندفع فى الميدان السياسى ، فجاءه أصدق جهاد وأبلى أعظم بلاء ، حتى إذا عصفت الشهوات السياسية وأحس العقل أن الخير له فى أن ينزوى ويترك الميدان للعاطفة والشهوة ،

انزوى صاحبنا وعاد إلى المعلم الأول يقرؤه ويناجيه ويترجمه ، وإذا نحن أمام كتب أربعة أو خمسة من كتب أرسطاطاليس قد تمت ترجمتها وهيئ بعضها للنشر ونشر بعضها الآخر ، وإذا أنا الآن مضطر إلى أن أحدثك عن كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس الذي نقله إلى اللغة العربية الأستاذ لطفى السيد ، وعنى بنشره حين كانت العواصف السياسية تعصف بالمصريين وتعبث بمنافعهم وعقولهم وأخلاقهم عبثاً منكرآ .

هذا العمل نفسه ، هذا الانقطاع إلى الفلسفة حين لا تجدى الحياة العملية نفعاً ، وهذا الانصراف عن الفلسفة إلى الحياة العملية حين ينتظر منها النفع العام ، هو الذى يشخص لطفى السيد ويدلنا على أنه رجل خليق بأمثاله المفكرين فى أوربا ، أولئك الذين ينقطعون إلى الحياة العقلية فينفعون وينتفعون ، حتى إذا أحسوا حاجة أوطانهم إليهم قدموا أنفسهم إلى أوطانهم وأدوا واجبهم هادئين باسمين لا ينتظرون على هذا أجراً إلا الشعور بأن حياتهم ليست هزواً ولا حملاً على الجماعة ثقيلًا .

وهل تعرف كتاب « الأخلاق » هذا الذى نقله الأستاذ إلى اللغة العربية والذى أردت أن أحدثك عنه فحدثتك عن مترجمه ؟ هل تعرف خطر هذا الكتاب وقيمه وأثره الخالد فى تاريخ الفلسفة ؟ لو أنى أردت التقرير لقلت إن الكتاب الذى يضعه أرسطاطاليس وينقله لطفى السيد إلى العربية خليق أن يقرأ وينتشر ؛ لأن هذين الإسمين وحدهما يكفيان لإذاعته ونشره ، ولكنى - شهد الله - ما أردت تقريرًا ، ولكنى أردت النقد من جهة ، وأردت الحث على العناية بالحياة العقلية من جهة أخرى . يجب أن تعلم أن أرسطاطاليس هو الذى وضع علم الأخلاق ، كما أن أرسطاطاليس هو الذى وضع علم المنطق وعلومًا أخرى مختلفة ، وليس معنى هذا أن الناس لم تكن لهم أخلاق ولا منطق قبل أرسطاطاليس ، وليس معنى هذا أن الفلاسفة لم تكن لهم مذاهب فى المنطق ولا فى الأخلاق قبل أرسطاطاليس ؛ فقد أحب الناس الخير وكرهوا الشر منذ فكروا ، وقد كان للفلاسفة مذاهبهم فى العلم والمعلوم وفى الفهم والحكم ، وفى الحياة وغايتها وسيرة الأحياء فيها قبل أرسطاطاليس ، ولكن الذى أريده هو أن أهدأ من الفلاسفة لم يسبق أرسطاطاليس إلى تدوين المنطق على أنه علم يدرس ، وإلى تدوين الأخلاق على أنه علم يدرس . كان هناك منطق السوفسطائية ومنطق سقراط

ومنطق أفلاطون، وكان هناك مذهب السوفسطائية ومذهب سقراط ومذهب أفلاطون في الأخلاق . فلما جاء أرسطاطاليس وجد شيء يقال له علم المنطق ، وشيء يقال له علم الأخلاق، وشيء يقال له علم السياسة ، وشيء يقال له علم البيان . كانت تلك المذاهب في المنطق والأخلاق والسياسة والبيان مذاهب شخصية تضاف إلى أصحابها وتطبع بطابعهم . فلما جاء أرسطاطاليس أصبحت هذه العلوم علوماً إنسانية لا فردية ولا مذهبية ، وأصبحت تمتاز بشيئين متناقضين ، فهي شخصية من جهة ، ولا شخصية من جهة أخرى : شخصية لأن شخص أرسطاطاليس أقوى وأظهر من أن ينحى . وأرسطاطاليس له آراؤه ومناهجه ومذاهبه الخاصة . ففلسفته شخصية إذاً تضاف إليه بحق كما تضاف إلى أفلاطون فلسفة أفلاطون ، وهي في الوقت نفسه لا شخصية ، لأن أرسطاطاليس لم يكن يريد أن يسلك في الفلسفة مسلك الذين تقدموه ، وإنما كان يريد أن ينظم جهود العقل الإنساني ونتائج هذه الجهود ، وأن يرسم لهذا العقل سبيله إلى الرقي العلمي والأدبي . وقد وفق أرسطاطاليس فأصبحت فلسفته فلسفة الإنسانية ، وأصبح منطقته بالقياس إلى العقل الإنساني كعلم منافع الأعضاء والتاريخ الطبيعي بالقياس إلى الأجسام ، وأصبحت « أخلاق » أرسطاطاليس و « سياسة » أرسطاطاليس أساساً لهذا العلم الفنى الحصب الذي لم يؤت بعد ثمراته الناضجة والذي سيكون له في الحياة الإنسانية الحديثة أثر قوى بعيد وهو علم الاجتماع .

كل شيء من آثار أرسطاطاليس غريب ؛ فإنك لا تسلك مذهباً من مذاهبه الفلسفية إلا أحسست فيه شيئين : الأول أن هذا المذهب ملائم للعصر الذي نشأ فيه . والثاني أنه ملائم للعصور الإنسانية على اختلافها . وليس بعض الفرنسيين مبالغاً حين يقول : « لو أن هذه الحضارة الحديثة أزيلت وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطاطاليس أساساً لهذه الحضارة الجديدة » . وفي الحق أن اليونان والرومان عاشوا في العصر القديم على فلسفة أرسطاطاليس ، وأن الشرق والغرب عاشا في القرون الوسطى على فلسفة أرسطاطاليس ، وأن أوروبا الحديثة تعيش الآن وستعيش غداً على فلسفة أرسطاطاليس . وأنت تعلم مقدار الاختلاف بين كل هذه الأمم والشعوب الشرقية ، والغربية ، واللاتينية ، والجرمانية ، والسامية ، في الأمزجة والعادات والنظم والديانات . وهي على هذا الاختلاف كله . مشتركة في أنها عاشت وستعيش على فلسفة أرسطاطاليس .

لا تقل إن أوربا الحديثة قد جددت الفلسفة في جميع فروعها واستحدثت من العلم ألواناً لم يعرفها أرسطاطاليس ، فليس أحد ينكر هذا ، ولكن هناك شيئاً آخر لا شك فيه ، وهو أن تجديد الفلسفة واستحداث العلم لم يبلغ من فلسفة أرسطاطاليس إلا قليلاً وقليلاً جداً ؛ فما زال علم الاجتماع محتاجاً أشد الاحتياج إلى أخلاق أرسطاطاليس وسياسته . وما زال الذين يدرسون ما بعد الطبيعة محتاجين إلى فلسفة أرسطاطاليس فيما بعد الطبيعة . بل إن المنطق ما زال الآن كما تركه أرسطاطاليس إلا أبواباً أجملها أرسطاطاليس وفصلها المحدثون . العرب إذاً منصفون حين يسمون أرسطاطاليس المعلم الأول ، فهو أول من علم الفلسفة والعلم ، أي هو أول من اتخذها علوماً مستقلة تدرس لنفسها دون الأشخاص وما زال أرسطاطاليس المعلم الأول ما دمنا لا نعرف فيلسوفاً مهما يكن الفرع الذي يختص به من فروع الفلسفة لا يرجع إليه ولا يعتمد عليه . قل إذاً هؤلاء الذين يتشدقون بالجديد ويتغنون له لأنه جديد ، ويزدرون القديم لأنه قديم ، قل هؤلاء لهم في حاجة إلى شيء من القصد والتدبر . فليس يفهم الجديد إلا بالقديم ، ولا قيمة للجديد بدون القديم . ثم قل لهم إن فلسفة اليونان وآدابهم وفنونهم ليست قديمة ولا يمكن أن تكون قديمة ، وإنما هي أشياء أراد الله لها أن تحتفظ بقوتها ونضرتها وشبابها ما بقي من الدهر وما كان للإنسان عقل وشعور .

على أني لم أحدثك بعد عن كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس ، وإنما حدثتك عن المترجم والمؤلف . وماذا تريد أن أصنع ، وأنا رجل يظهر أني ثرثار بطبعي ! فأنت تعرف المترجم وتعرف المؤلف . وكنت أستطيع ألا أحدثك عنهما ، وأن أحدثك عن الكتاب نفسه ، ولكني مع ذلك حدثتك عن الرجلين ، فيجب أن تقرأ هذا الحديث وتقبلني على علاقتي . وماذا تريد أن أقول لك عن كتاب « الأخلاق » ؟ يجب أن نلاحظ قبل كل شيء أني لست بإزاء كتاب واحد ، وإنما أنا بإزاء كتب ثلاثة . نعم ! كتب ثلاثة : كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس ، وكتاب آخر هو مقدمة المترجم الفرنسي لهذا الكتاب . وأقول إن هذه المقدمة كتاب لأنه من اليسير جداً أن تطبع مستقلة فإذاً هي كتاب قيم في تاريخ علم الأخلاق والمذاهب الخلقية منذ سقراط إلى القرن التاسع عشر ، وهي تقع في ١٦٦ ص من القطع الكبير . ورسالة للأستاذ لطي السيد سماها « تصديراً » تناول فيها حياة أرسطاطاليس وكتب أرسطاطاليس ونفوذ فلسفة أرسطاطاليس في

القرون . وأقول إنها رسالة ، وكنت أود أن تكون كتاباً ، فهي تقع في ٥٦ ص من القطع الكبير . وكنت أود أن يتضاعف عدد هذه الصفحات ؛ لأنك تجد حقاً في قراءتها لذة ونفعاً لا تكاد تعدلها لذة ولا نفع .

فأنت ترى أني بإزاء كتب ثلاثة ، وهذه الكتب الثلاثة في مجلدين ضخمين ، يبلغ أولهما ٣٢٦ ص ويبلغ الثاني ٣٧٦ ص من القطع الكبير ، دون أن أحسب تصدير المترجم . فكيف تريد أن أحدثك عن هذه المجموعة الضخمة ! ولا سيما إذا كان موضوعها : أرسطاطاليس وفلسفته ومذاهبه الخلقية وتاريخ علم الأخلاق ! وأين أجد المكان في « السياسة » لأحدثك عن هذا كله كما أحب وكما تحب أنت أيضاً ! ولم أحدثك عن هذا الكتاب؟ وهل تظن أني أكتب هذه الأحاديث لتستغني بها عن قراءة الكتاب والشعراء الذين أتخدمهم لها موضوعاً ؟ كلا ! إنما أكتب هذه الأحاديث لأشوقك إلى أن تقرأ هؤلاء الكتاب والشعراء . ولست أعرف شيئاً أدعى إلى عناية الأساتذة وإلى عناية الطلاب وإلى عناية المستنيرين عامة ، من كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس . وأنا ذاكر لك عنوانات الكتب العشرة التي يتألف منها كتاب « الأخلاق » :

- الكتاب الأول : نظرية الخير والسعادة وفيه أحد عشر باباً .
- الكتاب الثاني : نظرية الفضيلة وفيه تسعة أبواب .
- الكتاب الثالث : بقية نظرية الفضيلة وفيه ثلاثة عشر باباً .
- الكتاب الرابع : تحليل الفضائل المختلفة وفيه تسعة أبواب .
- الكتاب الخامس : نظرية العدل وفيه أحد عشر باباً .
- الكتاب السادس : نظرية الفضائل العقلية وفيه أحد عشر باباً .
- الكتاب السابع : نظرية عدم الاعتدال واللذة وفيه ثلاثة عشر باباً .
- الكتاب الثامن : نظرية الصداقة وفيه أربعة عشر باباً .
- الكتاب التاسع : تابع نظرية الصداقة وفيه اثنا عشر باباً .
- الكتاب العاشر : في اللذة وفي السعادة الحقة وفيه عشرة أبواب .

عدد الصحف وعدد الكتب وعدد الأبواب ، كل ذلك يدلك على أننا بإزاء عمل ضخم إذا احتاجت قراءته المتقنة إلى أشهر فقد احتاجت ترجمته إلى أعوام ، وإذا احتاج درسه وتفهمه إلى جهد فقد احتاج نقله وتحقيقه إلى عناء شديد . نعم ! نحن بإزاء عمل ضخم يستطيع صاحبه أن يقول مفاخر إن كان يحب الفخر

أومطمئناً إلى نفسه إن كان يريد أن يرضى ضميره: إنه لم يضع وقته ولم ينفق حياته في عبث ولا في هـو .

وبعد فلست أعرض لنقد الكتاب نقداً مفصلاً؛ لأن « السياسة » لا تصلح مكاناً لنقد أرسطاطليس ولا لمناقشة آرائه الفلسفية ، وإنما المدارس العليا وحدها هي التي تصلح لهذا النقد . ومع ذلك فقد كنت أريد أن آخذ الأستاذ المترجم بشيئين : الأول أنه نقل الكتاب عن ترجمة فرنسية ، وكنت أود لو نقل عن أصله اليوناني ولكن الأستاذ نفسه يجيب في التصدير بأنه كان يود ذلك أيضاً ، ولكنه لم يدرس اليونانية ، وقد فعل ما استطاع أن يفعل ، وبذل ما استطاع أن يبذل من الجهد لتحري الصواب في ترجمته العربية ، فلم يقتصر على ترجمة فرنسية واحدة بل اعتمد على غير ترجمة . وإذا كان المترجم نفسه يبدأ تصديره بهذا الاعتذار الذي يمثل ما قدّمت في أول هذا الحديث من ذوقه وتواضعه فقد لا يكون من الذوق ولا من التواضع أن نأخذه بما يأخذ نفسه به .

الثاني أن ترجمته العربية كالأصل اليوناني لا تخلو من صعوبة ، ولا يستطيع القارئ أن يمضي فيها مضيئاً سهلاً ، وإنما هو محتاج إلى شيء من الأناة والتدبر ليفهم . ومصدر هذا هو أن الأستاذ أراد أن يكون أميناً في النقل فبالغ في هذه الأمانة ، وترجم الكتاب ترجمة توشك أن تكون حرفية . وفي هذا النحو من الترجمة مزيتان : الأولى الأمانة التي حرص عليها المترجم بحق والتي ينبغي أن نشكر له حرصه عليها . والثانية أقولها مماًزحاً للأستاذ وهي براءته من التبعة ؛ فهو مترجم قد نقل الأصل الفرنسي نقلاً يوشك أن يكون فتوغرافياً . فإذا كان هناك شيء يمكن أن يلاحظ على الكتاب فلا تأخذ به المترجم العربي بل خذ به المترجم الفرنسي . أما المترجم العربي فزعم لك بأن ترجمته عن الفرنسية صحيحة لا تقبل نقداً ولا طعناً . وأنا أيضاً زعيم بصحة هذه الترجمة عن الفرنسية ، وأكاد أثق بأن الترجمة عن اليونانية دقيقة أيضاً وإن كان بعض الذين يدرسون فلسفة أرسطاطاليس لا يطمئنون الاطمئنان كله إلى « برتلمي سانت هيلار » . على أني قدمت لك أن الأستاذ لم يعتمد على هذا المترجم وحده ، وإنما اعتمد على تراجم أخرى ، فقارن وتحري الصواب ما استطاع . ومهما يكن من شيء فإن هذه الترجمة العربية الجديدة لكتاب أرسطاطاليس أصح وأدق من أكثر التراجم العربية القديمة التي نقلت أيام العباسيين لا عن اليونانية مباشرة بل عن السريانية التي اشتملت

على أغلاط فألوان من المسخ والتحريف ، ولو رآها أرسطاطاليس لاضطرب لها اضطراباً عنيفاً . أنا زعيم بأن هذه الترجمة العربية الجديدة إن لم ترض علماء اللغة اليونانية من كل وجه فهي مرضية علماء الأخلاق وطلاب الفلسفة كل الرضا . لقد كانت فلسفة أرسطاطاليس أساس النهضة العربية الأولى ، وأساس النهضة الأوربية في العصر الحديث ، ويجب أن تكون أساس النهضة العلمية في مصر الحديثة . ولو أن لي أن أقترح لرفعت هذا الاقتراح إلى رجلين : أحدهما وزير المعارف ، والآخر شيخ الجامع الأزهر ، وهو أن يكون كتاب « الأخلاق لأرسطاطاليس » موضوع درس مفصل دقيق في الأزهر الشريف والمدارس العليا غير الفنية ، فهل يسمع لهذا الاقتراح ؟

- ١ - رد على كتاب
- ٢ - مهذب الأغاني للأستاذ محمد الحضري
- ٣ - تهذيب الكامل للأستاذ السباعي بيوي
- ٤ - مدافع العشاق للدكتور زكي مبارك

يصح أن نقف بين موضوعين وقفة للراحة ينتفع بها القارئ كما ينتفع بها الكاتب أيضاً ؛ فقد فرغنا من الغزلين أو من أئمتهم ، وقد ننتقل منهم إلى غيرهم ولكن بعد أن نستريح وتستريح من هذا البحث الشاق الذي يعنى قارئه وكاتبه معاً . وربما كان من الخير أن ندع العصور القديمة من حين إلى حين ، لننظر في هذا العصر الذي نعيش فيه ؛ فإن لهذا العصر حياة أدبية وعقلية مهما تكن ضئيلة فاترة فهي خليقة بالعناية ، حرية بأن نقف عندها وقفات مهما تقصر فلن تخلو من فائدة. على أني أريد قبل كل شيء أن أشكر لهذا الكاتب الأديب - الذي ضمنّ عليّ باسمه ولقب نفسه جندياً مجهولاً من جنود الأدب - كتابه القيم الذي نشرته له «السياسة» صباح الاثنين ، وأن أعلن إليه وإلى الذين كتبوا إليّ يطلبون أن تجمع أحاديث الأربعاء في كتاب أن هذا الكتاب يطبع الآن ، وأنه سيداع بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع .

١ - أما بعد فإن الجندي المجهول من جنود الأدب يريد أن يناقشني فيما أشرت إليه من وجوه الشبه القوية بين شاعرنا العربي الغزل عمر بن أبي ربيعة ، والكاتب الفرنسي المعروف بييرلوتي . وربما كان محققاً في بعض ما كتب ؛ لأنني لم أوف هذه المقارنة حقها ، بل قلت إنني أشير إليها إشارة موجزة ، وأطلب إلى الأدباء أن يفرغوا لدرسها درساً مفصلاً . فن المعقول إذاً ألا يكون رأيي في المقارنة بين الرجلين واضحاً كل الوضوح . وأنا أريد أن أبين « للجندي المجهول من جنود الأدب » أن ليس بيني وبينه خلاف في جوهر هذه القضية ؛ فهو يرى أن الكاتب الفرنسي كان سيئ الخلق والسيره ، وهو يشير إلى ذلك إشارة كنت أود لو كانت أشد خفاء مما ورد في كتابه . ولست أعرف إلى أي حد ينبغي أن

نقبل ما يقال عن بييرلوتى وغيره من الكتاب والشعراء وما يوصفون به من سوء الخلق والسيرة ؛ لا لأنى أبرئهم من سوء أو أعصمهم من الزلل ؛ فما كان شىء من ذلك ليخطر لى ، بل لأن هؤلاء الكتاب والشعراء معرضون لألوان من الحسد وضروب من سوء القالة يكثر فيها الإسراف عادة . ولست أشك فى أن حياة بييرلوتى لم تخلُ من عبث وفساد ، وربما كان هذا العبث كثيراً ، وربما كان هذا الفساد شديداً ، ولكنهما من غير شك أقل مما يدبغ خصوم هذا الكاتب . وكل الكتاب والشعراء الذين اتخذوا الحب لهم فناً - ولا سيما هذا النوع من الحب الحسى - كان لهم حظ قليل من سوء السمعة وقبح الصوت . ولعل « الجندى المجهول من جنود الأدب » يعلم أن زعيمة هذا الفن من الشعر الغزلى عند اليونان ، وهى « سافو » التى عاشت فى القرن التاسع قبل المسيح ، قد اتهمت أشنع التهم فى غير حق ولا إنصاف ، واتخذت مثلاً للمرأة المهلوك على اختلاف العصور والأجيال ، مع أنها كانت فى حقيقة الأمر أقرب إلى القصد والاعتدال فى سيرتها منها لى شىء آخر ، وكنت أظن أن « الجندى المجهول من جنود الأدب » يقدر هذه الإشارة الخفية التى ذكرت فيها أمر عمر بن أبى ربيعة مع محمد بن عروة ابن الزبير ومع غيره من الفتيان الحسان ، وإذا لم يكن بدُّ من التصريح فأنا ألفت الكاتب الأديب إلى أحد الغزلين الذى تناولتهم بالبحث وهو الأحوص بن محمد ؛ فقد كان يقال عنه بالضبط - إذا صح هذا التعبير - ما يقوله الكاتب الأديب عن بييرلوتى ، وكانت تضاف إليه هذه الجملة المشهورة المنكرة التى لا أستطيع روايتها فى هذا الحديث التى زعم خصومه أنهم ضربوه ونفوه من أجلها . ذلك لأن هؤلاء الشعراء الذين يتغنون الحب الحسى معرضون بحكم فهم نفسه إلى أن يتورطوا فى الإثم من جهة وإلى أن تشيع عنهم الفاحشة من جهة أخرى . فليس « بييرلوتى » بدعاً من الغزلين إذا ؛ فقد تورط فيما تورطوا فيه ، ووُصف بما وصفوا به . وقد أشرت فى الحديث الماضى إلى أن المقارنة بين الشاعر العربى والكاتب الفرنسى يجب أن تلاحظ فيها الفروق بين العصرين والجنسين والبيئتين . ولئن كانت حياة البحر قد أفسدت من حياة بييرلوتى وسيرته ، فليس من شك فى أن هذه الحياة الفارغة التى كان يحياها شباب الحجاز التى فصلتها غير مرة ، قد أفسدت من أخلاق ابن أبى ربيعة وغيره من هذا الشباب .

ويرى الكاتب أن « بييرلوتى » قد أسرف فى الكذب ، وضلل الغريبين فى أمر

المسلمين . فهل يعتقد الكاتب أن ابن أبي ربيعة لم يكذب في قصصه الغرامية ولم يضلل المحدثين والقدماء في أمر نساء قريس ؟ ! وهل يظن الكاتب أن عمر قد فعل كل ما قاله ؟ وإذا فقد كانت جماعة المكيين والمدنيين أقبح الجماعات وأشدّها إغراقاً في الفساد . أو هل يظن أن ابن أبي ربيعة لم يفعل مما قال شيئاً ، وإذا فقد كان أكذب الناس ، وكان الذين يُعجبون به مغفلين أو شرّاً من المغفلين .

وابن أبي ربيعة نفسه يثبتنا مرة بأنه فعل كل ما قاله ويستغفر الله ، ويثبتنا مرة أخرى بأنه لم يفعل مما قال شيئاً . والحق أنه فعل بعض ما قال ، وقال كثيراً مما لم يفعل . وما زلت ألح على الأدباء في أن ينعموا النظر في ديوان ابن أبي ربيعة وقصص بيير لوتي ، فسينتهون إلى ما انتهيت إليه من قوة الشبه بين هذين الرجلين ، ولا سيما من الوجهة الفنية الخالصة . وقد وعدت وما زلت أعد ببحث مفصل عن حب بيير لوتي ، ولكنني أنتظر إلى بقية المذكرات الخاصة التي تنشر الآن في باريس ، وسيرى الكاتب الأديب أن طبيعة حب بيير لوتي هي طبيعة حب عمر ، وأن منهج بيير لوتي في الاستمتاع بهذا الحب هو منهج ابن أبي ربيعة ، وأن أسلوب بيير لوتي في وصف هذا الحب وإعلانه هو أسلوب عمر . وأريد أن يلتفت الكاتب الأديب وغيره إلى أن عمر قد نسك بعد لحو ، وإلى أن بيير لوتي حاول النسك غير مرة . وأريد أن يلتفت أيضاً إلى أن هناك شهماً قوياً بين الصلة التي كانت تصل بيير لوتي بصديقه « بلومكت » وتلك التي كانت تصل بين عمر وابن أبي عتيق ، وهي صلة مشهورة أدبية وتعزية غرامية قبل كل شيء . ولأدع الآن عمر وبيير لوتي لأنتقل إلى شيء آخر .

* * *

٢ - أنا أريد أن أقدم إلى أستاذنا الجليل محمد الحضري بك ثناء طيباً وشكراً جميلاً ، بعد أن نظرت نظرة قصيرة جداً في الجزء الأول من كتابه الحديد : « مهذب الأغاني » .

ولو لم يكن للأستاذ إلا أنه قد عكف على هذا العمل خمسة عشر عاماً حتى أتمه في غير تمدح به ولا إعلان له لكان خليقاً بأطيب الثناء وأجمل الشكر . فالذين يعملون ولا يقولون في هذا البلد وفي هذا العصر خاصة قليلون ، وأقل منهم هؤلاء الذين يبتدئون العمل الطويل الشاق فلا تصرفهم عنه مشقته ولا طوله ، ولا تلهيهم عنه أحداث الزمان وعواصف الحياة حتى يتموه . وأقل من هؤلاء وأولئك قوم

يقدمون على العمل الطويل الشاق فينفقون فيه ما ينفقون من قوة ومال وهم يعلمون أنهم لن يسترخوا مما أنفقوا إلا شيئاً قليلاً ، وربما لم يسترخوا منه شيئاً ، وهم مع ذلك يعملون ، وربما شجعهم هذا اليأس على العمل ؛ وكثيراً ما تكون التضحية لذيدة . فالأستاذ الحضري خليق بالشكر والثناء لهذا كله .

أما العمل نفسه فساكون حرّاً في الحكم له أو الحكم عليه ، وسأصطنع هذه الحرية وإن كانت للأستاذ على حقوق تجعل من العسير أن أناله بالنقد، ولكنني مع ذلك ساكون حرّاً . ولم لا أكون حرّاً وقد كتب إلى الأستاذ نفسه يطلب إلى أن أكون حرّاً !! فلاشكر له مرة أخرى حرّيته وحسن رأيه في النقد، ولأقل إنني أحمد عمله وأعييه : أحده لأن فيه نفعاً لا يكاد يحصى لعامة المستنيرين وجمهور الطلبة الذين لا يستطيعون أن يقرءوا « كتاب الأغاني » كما هو ، والذين يجب مع ذلك أن يدرسوا الأدب العربي ويلموا بحياته . أقول إنهم لا يستطيعون أن يقرءوا « الأغاني » ، وأقول ذلك بعد تجربة وبلاء . فأنا أعيش مع الأغاني منذ حين ، ولست أخفي على القارئ أن كتاب الأغاني كثيراً ما يغطيني ، وذلك حين أشعر أن « السياسة » عمجلة تريد « حديث الأربعاء » ، وأن الوقت قصير ، وأن أسانيد الكتاب لا تنهي ، وأني مضطر إلى أن أقرأ ما فيه من تكرار ، وأصلح ما في نسخته المطبوعة من خطأ ، وأرجع إلى المصادر والأصول . وإذا كان كتاب الأغاني يغطيني أحياناً فهو يغطيني كاتبي في كل وقت وأنا أتخذ هذا مقياساً لهؤلاء الطلاب الذين يجب أن يعرفوا الأدب العربي ويعسر عليهم أن يلتمسوه في كتاب الأغاني . وإذا فليس من شك في أن الأستاذ الحضري قد أحسن إلى هؤلاء الطلاب إحساناً لن يقدره حق قدره مهما يكن حرصهم شديداً على الوفاء ، ولكنني أعترف بأنني لن أنتفع كثيراً بكتاب الأستاذ الحضري ؛ فقد يغطيني كتاب الأغاني وقد يغطيني كاتبي ، ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أنصرف عنه إلى كتاب مختصر مهما تكن قيمته ومهما يكن حظه من الإلتقان ، ومهما يكن صاحبه ؛ لأن الباحثين حقاً لا يستطيعون أن ينصرفوا عن الأصول . وإذا فكتاب الأستاذ الحضري نافع كل النفع للذين لا يريدون أن يتخذوا الأدب موضوعاً لبحث علمي دقيق .

ولي بعد هذا كله على الأستاذ ملاحظات . فقد كنت أحب قبل أن يبدأ هذا العمل أن يبحث لعله قد سبق إليه ، ولعل من سبقه قد أحسن اختصار الأغاني . وإذا فالخير إنما هو في نشر هذا المختصر القديم لا في إعادة هذا الجهد .

ويخيل إلى أن ابن المكرم صاحب لسان العرب قد اختصر كتاب الأغاني ، وأن نسخة من مختصره موجودة بمكتبة الأزهر الشريف ، وأن تنقيح هذا المختصر على الوجه الذي أراده الأستاذ ونشره كان أيسر وأنفع من هذا الجهد الطويل الشاق الذي تكلفه الأستاذ . ويخيل إلى أن المختصر جيد ومتقن سهل التناول ، وقد قرأت منه قطعة عن أبي نواس مخطوطة بدار الكتب تذاع على الناس في هذه الأيام . ولهذا قلت إن هذا المختصر في حاجة إلى التنقيح لأن فيه ما لا يلائم الذوق الحديث . ويظهر أن ملاءمة الذوق الحديث قد أصبحت شرطاً لنشر الكتب القديمة في هذه الأيام التي نعيش فيها ، والتي هي أيام تكلف وابتداع . ألسنت تعلم أن دار الكتب المصرية قد تكلفت ضرباً من الجهد للتوفيق بين الكتب القديمة التي تنشرها وبين الذوق الحديث ، فهي تنشر من هذه الكتب نسختين : نسخة مطهرة تلائم الذوق الحديث ، ونسخة دنسة تلائم أذواق العلماء . ولهذا يجب إذا أردت أن تشتري أحد هذه الكتب أن تقول إنك من أنصار النسخ المطهرة أو النسخ الدنسة . ولست أدري كيف تستطيع دار الكتب أن تفرق بين العالم وغير العالم في توزيع نسخها المطهرة ونسخها الدنسة . وأجمل من هذا كله أسلوب الأستاذ زكي باشا في التوفيق بين الكتب القديمة والذوق الحديث ؛ فهو يكره الحذف والتطهير ، ويؤثر عليهما التحريف والتغيير ، بحيث يجب عليك أن تكون ماهراً في حل الألغاز لتفهم الكتب التي ينشرها زكي باشا على وجهها . ومن يدري ! فسيكلفنا إرضاء الذوق الحديث أشياء كثيرة ترضاهم أساليب البحث العلمي أو تمقتها . فالبحث العلمي شيء لا قيمة له أمام الذوق الحديث ؛ لأن الذوق الحديث شيء يحرص عليه الرأي العام ، والرأي العام هو صاحب الأمر والنهي في هذه الأيام ، لا في المسائل السياسية وحدها ، بل في العلم أيضاً . وماذا تريد ؟ ألم تبلغ الديمقراطية عندنا من الرقي أقصاه ! !

ليس الغريب في هذا أن يريد الرأي العام أن تكون الكتب التي تذاع بين الشباب نقية مطهرة ، فذلك من حق الرأي العام ، ومن حق الشباب علينا ألا نذيع فيه ما يفسد ذوقه أو سيرته . وإنما الغريب أن يضطرنا هذا إلى مسخ الكتب وتشويهها والإساءة إلى المتقدمين فيما كتبوا . فقد كان المتقدمون يكرهون أن تختصر كتبهم أو تغير ، كما كان أهل العصور الأولى يكرهون أن تنبش قبورهم . ولست أنسى نقشاً فينيقياً استكشفه وأذاعه «رينان» وفيه لعن منكر لمن ينبش

هذا القبر أو يغير شيئاً فيه . ولست أنسى خطبة ياقوت الحموى لكتابه الجغرافى المشهور ، فهو يحظر على الناس اختصار كتابه ، ويستنزل ألوان السخط وضروب الآفات على من ينالون كتابه بالاختصار . وهو يقلد الجاحظ فى هذا . ولعل صاحب الأغانى كان كغيره من القدماء يكره أن يشوه كتابه بالاختصار . واكن ابن المكرم قد اختصره ، فما الذى يمنع الأستاذ الحضرى من أن يختصره مرة أخرى ؟

هنا نصل إلى المسألة الأساسية وهى : ما الذى يجب إلى العلماء المحدثين أن يختصروا كتب العلماء المتقدمين ؟ الجواب سهل ، وهو أن هذه الكتب القديمة مخالفة فى وضعها وترتيبها للذوق الحديث ، لا من حيث إنها تشتمل على أشياء تنكرها آدابنا العامة فحسب ، بل من حيث إن طريقة التأليف نفسها تخالف نظامنا العقلى الجديد ، وإذا فنحن بين اثنتين : إحداهما سهلة ، وهى أن نمسخ الكتب القديمة لتلائم عقولنا . والأخرى عسيرة ، وهى أن نأخذ عقولنا بمنهج البحث العلمى لتلائم الكتب القديمة . وهذا عسير ، وغير ميسور للناس جميعاً ، ومن الخير ألا يتورط فيه الناس جميعاً . فإذا تكون الحال لو أن الناس جميعاً هيثوا عقولهم لملاءمة الكتب القديمة كما فعل الأستاذ الحضرى وزكى باشا وطه حسين ؟ ! الأمر إذاً عسير ، فلا بد من اصطناع الخصلة الأولى ، أى لا بد من مسخ كتب القدماء رضى القدماء أو لم يرضوا . غير أنى كنت أظن أن هناك خصلة ثالثة ترضى القدماء والمحدثين معاً ؛ لأنها تعصم كتب القدماء من المسخ والاختصار ، وتتيح للمحدثين ما يحتاجون إليه من علم ، وهى طريقة التأليف . ذلك لأن قدماء اليونان والرومان قد تركوا كتباً قيمة جداً باليونانية واللاتينية ، وهى لا تلائم الذوق الحديث فى أوروبا ، وكذلك ترك قدماء الفرنسيين والإنجليز والألمان كتباً لا تلائم المحدثين من أبناء هذه الشعوب . ومع هذا فلسنا نرى أهل أوروبا الحديثة يضيعون وقتهم وجهودهم فى اختصار هذه الكتب ومسختها لتلائم الذوق الحديث والعقل الحديث ، وإنما نراهم يتركون هذه الكتب كما هى ، ويضعون للمحدثين كتباً عادية تلائم ميولهم وعقولهم وأذواقهم . وماذا تكون الحال لو أن الأوربيين انصرفوا إلى اختصار «توسيديد» و «هيرودت» و «أفلاطون» و «أرسطاطاليس» و «تاسيت» و «تيت ليف» ؟ !

تريد أن يلمّ المحدثون بما ترك هؤلاء القدماء ؟ فضع لهم كتباً فى التاريخ القديم والفلسفة القديمة والأدب القديم تلائم ميولهم وعقولهم ، وترجم لهم هذه الكتب القديمة .

فن كان منهم مهياً لفهم القدمات قرأ هذه الكتب المترجمة، ومن لم يكن مهياً لفهمها قرأ هذه الكتب المؤلفة . وهل تظن أن الأستاذ الحضري كان عاجزاً عن وضع كتاب في الأدب يتيح للمحدثين فهم ما يحتاجون إليه من أطوار الأدب العربي دون أن يرجعوا إلى كتاب الأغاني فيتكلفوا المشقة دون أن يختصر هو كتاب الأغاني فيتكلف الجهد في شيء مهمما يمكن قيماً فشخصيته فيه ضئيلة ضعيفة؟ أما أنا فأعتقد أنه كان يستطيع أن ينفق هذه الأعوام الطوال في وضع كتاب مفيد تظهر فيه شخصيته، ويكون أشد ملاءمة للعصر الحديث من هذا المختصر الذي ليس هو بالقديم الخالص ولا بالجديد الخالص ، وليس هو لأبي الفرج ولا هو للأستاذ الحضري ، وإنما هو شيء بينَ بينَ وحظ شائع بين رجلين . لست أستطيع إلا أن أثني على هذا الجهد القيم الذي بذله الأستاذ في إصلاح الخطأ وإكمال الرواية وما إلى ذلك . ولكنني أعتقد أنه كان يستطيع أن يصلح خطأ الأغاني ويكمل روايات الأغاني في كتاب علمي قيم مستقل ، يعتبر خدمة لكتاب الأغاني ، كما يقول الأزهريون .

وإذا كنت لا أستطيع أن أضن بالشناء على الأستاذ من هذه الناحية ، فأنا لا أستطيع أن أخفي عليه وجهاً من وجوه النقد ، وهو أنه قد حذف المكرر وألغى أشياء رأى أنها لا تفيد . وقد أفهم حذف المكرر ، ولكنني لا أفهم إلغاء ما يعتقد الأستاذ أنه لا يفيد . فقد تحكمت أنت بأن هذا الشيء لا يفيد ، وأحكم أنا بأنه قيم نافع . ولك أن تمحو ما تشاء وتثبت ما تشاء إذا كنت مؤلفاً ، فشخصيتك ظاهرة في كتابك ، وهي تستطيع أن تحتل تبعه هذا الكتاب ، ولكنك لا تملك هذا في مختصر لأن شخصيتك ليست ظاهرة ؛ لأنها تتوارى خلف شخصية المؤلف ، ولأن القارئ يضطرب بينكما فلا يدري على أيكما يلقى التبعة . فأنت ترى أنني قد تناولت عمل الأستاذ الحضري مع ما أنا أهل له من حرية النقد ، ولكنني مع هذا كله أثني على هذا العمل ثناء طيباً ، وآسف لهذا الجهد أسفاً شديداً .

٣ - كل هذه الأشياء التي قدمتها وأشياء أخرى لم أذكرها ولم أشر إليها تجنباً للإطالة منعتني في الصيف الماضي من أن أعرض لكتاب يشبه كتاب الأستاذ الشيخ الحضري في موضوعه وغايته وأسلوبه ، وهو كتاب « تهذيب الكامل » للأستاذ السباعي بيومي . أظنك تعفني من أن أتناول كتاب كامل المبرد بالشرح

أو التعريف ؛ فليس هذا الكتاب أقل شهرة ولا نفعاً من كتاب الأغاني . وقد رأى الأستاذ السباعي بيومي ، كما رأى الأستاذ الحضري ، أن هذا الكتاب مضطرب في ترتيبه مخالف لنظامنا العقلي ، فسخة ليلائم عقلنا الجديد ، كما فعل الأستاذ الحضري بكتاب الأغاني . ويجب أن نكون منصفين ؛ فالأستاذ السباعي بيومي لم يتناول كتاب الكامل بالحذف والبر كما فعل الأستاذ الحضري بكتاب الأغاني وإنما رتب الكتاب ترتيباً جديداً ، فجمع الأشياء إلى نظائرها ، ثم ظهر له أن هناك أشياء لا يمكن أن يراها الترتيب لأن المؤلف أراد أن تكون كذلك . مثال هذا : باب وضعه المبرد وعنوانه بهذا العنوان : « باب نذكر فيه من كل شيء شيئاً » . فلم يستطع إلا أن يجمع كل هذه الأشياء التي لا تقبل الترتيب في قسم واحد سماه ذيلاً . ولكن أبا العباس المبرد لم يضع هذه الأبواب لتكون ذيلاً لكتابه . فبأي حق تستبيح لنفسك يا سيدي الأستاذ أن تُفسد على الرجل نظام كتابه ؟ إني لأسمع الجواب وهو بجواب معروف ، فما أراد الأستاذ المهذب إلا أن يكون كتاب الكامل للمبرد ملائماً للذوق الحديث . ويل للقدمات وعلم القدمات وكتب القدمات منا ومن ذوقنا الحديث ؛ بل ويل للمحدثين من هذه الجهود الضائعة التي لو أنفقت في التأليف لأفادت ونفعت أكثر من نفعها وفائدتها حين تُتنفق في المسخ والتشويه . أنا مضطر إلى أن أثنى على هذه الجهود ، ومضطر إلى أن آسف عليها أيضاً .

* * *

٤ - هناك جهد آخر لم يضع ، ولكنه شديد الخطر أسمح لنفسى بإنكاره بعض الإنكار ، وهو هذا الجهد الذي أنفقه الدكتور زكي مبارك في فصول جمعها في كتاب وسمّاها « مدامع العشاق » . عنوانها يدل على موضوعها ، ولكني لا أدري أيدل على غايتها أيضاً ؟ فليس من شك في أن لهذه الفصول قيمة أدبية لا تخلو من خطر . ولكني لا أشك مع الأسف في أن كاتبها لم يستطع أن ينسى نفسه وأهواءها في هذه الفصول . فليست غايته فيما يظهر علمية خالصة ولا أدبية خالصة ، وإنما تملق الكاتب عواطفه وعواطف قرائه وأسرف في هذا التملق ، فخرجت فصوله على أن تكون مباحث علم وأدب ، وأصبحت مباحث استثارة للعواطف وتحريض للأهواء . ولذلك وجهه في الحياة الأدبية ؛ فلعل كاتب أن يعلن عواطفه وأهواءه ، وأن يدافع عنهما كما يجب ، ولكن لذلك طوراً لا ينبغي أن يعدوه الكاتب . وأظن

أن الدكتور زكى مبارك يعرف هذا الطور ولا يحتاج إلى أن ألفتة إليه . وأنا ألاحظ أن فكرتين اثنتين تعبثان بالحياة الأدبية لهذا الكاتب وتفسدان عليه جهوده ، أو قل فكرة واحدة ذات وجهين : فهو يريد أن يكون حرّاً في الدين ، وحرّاً في الأدب . وقد لامة قوم في حرّيته هذه ، فخيل إليه أنه مضطهد يتبعه رجال الدين بإنكارهم إذا عرض للدين ، ويتبعه رجال الأخلاق بإنكارهم إذا عرض للآداب . وكأن الخصومة قد اشتدت بينه وبين مضطهديه ، فهو يتكلف غيظهم وإحراجهم . ولكن الغيظ والإحراج قد يكونان من أسباب الشهرة أحياناً ، ولن يكونا من مناهج العلم في يوم من الأيام . وأظن أن صديقنا الأستاذ منصور قد نصح لتلميذه الدكتور زكى مبارك بالقصد والاعتدال ، فلأنصح له بهما أيضاً . وليس يمنعنى هذا التحفظ من أن أقدر كتابه وأثنى عليه .

١ - عود إلى « مهذب الأغاني » للأستاذ محمد الحضري

٢ - « بلاغة العرب في الأندلس » للأستاذ الدكتور أحمد ضيف

أرسل إلى الأستاذ الحضري هذا الكتاب . وما أحسب أنه أراد أن يكون هذا الكتاب وقفاً علىّ ، وإنما أراد أن يقرأ الناس رأيه فيما وجهت إليه من نقد ، ودفاعه عما بذل في تهذيب الأغاني من جهد . وأنا سعيد بأن أذيع في الناس هذا الكتاب القيم ، وأبدأ به هذه الصحيفة . قال الأستاذ :

« إلى الدكتور طه حسين من محمد الحضري . السلام عليك ورحمة الله . وبعد ، فقد قرأت نقدك لما اتجهت إليه الهمة من "مهذب الأغاني" . وإني شاكر لك كلماتك التي صدرت بها نقدك ، فأنت أبر الأبناء وأفضلهم . وإذا سرنى أن تكون لك الحرية فيما تنقد به كتابي ، فأظنك لا تبخل علىّ بقسط منها حتى أساجلك الحديث دفاعاً عن نفسي . وعهدى بك والحق غايتك .

عبت علىّ أن بذلت تلك السنين الطوال في تهذيب كتاب أحق الناس به صاحبه ، وتمنيت أن لو بذل هذا المجهود في كتاب جديد في الأدب العربي رأيتني قادراً على القيام به . وإني لمحبيك عما حدا بي إلى خلافك .

إن ما ضمنه أبو الفرج رحمه الله كتابه "الأغاني" ثروة الأدب العربي ، لمؤلفه فضل جمعها ، ونقلها بأسانيدھا عن فحول الكتاب وحفاظ الرواة ، فيها الشعر الرائع والنثر الفاخر ، وكلاهما لسلف أبي الفرج من الشعراء المجيدين والكتّاب البارعين وإني أصارحك الحديث وأنت جدّ عليم بأن أبا الفرج ومن شئت أن تسمى من كتّاب العرب عاجزون عن أبدع ما تضمنه كتاب الأغاني . صارت هذه الثروة إلى قومنا من أهل الجيل الحاضر يتأدبون بها وينتهجون طرق الكتابة بقراءتها .

نظرت فرأيت هذه الثروة قد ألمّ بها ما كاد يضيع الانتفاع منها ، ذخائرها مبددة الشمل ، وفرائدها قد وهى سلكها ، وتبرها قد أخفاه غبار التحريف ،

وأضله دخان التشويش . شعرت بهذا وأحس به من تحدثت إليه من المتأديين وشعرت به أنت . فكان من الواجب أن نتقدم إلى الجمهور من قومنا بتنظيم هذه الثروة حتى يمكنهم أن يستفيدوا منها . لو كان الطراز الذي نريد أن نتقدم به إليهم من طراز ما تتحفظهم به في صحيفة الأدب من نقد الشعراء واستنباط الحقائق التاريخية ولذيد الفكاهات ، لو كان الأمر كذلك لألقيت إليك بالمقاليد معترفاً بالعجز عن بلوغ مداك ، أما وغرضنا هو أن نسهل للمتأديين الانتفاع بالثروة التي جمعها لنا أبو الفرج فلم يكن هناك بدٌ من أن نحفظ له تلك اليد التي أسداها إلينا ، ونبقى اسمه خالداً وننتفع بتلك الثروة على أيسر الوجوه وأسهلها فماذا صنعت ؟ ألفت الأدب العربي مبدد الشمل فرتبته ، وضعت كل درة بجانب أختها ، وكل ألف بجانب أليفه . فإذا أراد القارئ أن يقرأ ما تقرّ به نفسه من شعر عصر أو شعر قبيلة بعينها كان ذلك ميسوراً ، وهذه ضالة تنشدها أنت بما تتحفظ الجمهور به في صحيفتك الأدبية .

وجدت تحريفاً كثيراً يُضلل الشادى ويُتعب العالم ، وقد أحسست أنت بأثره فبدلت من الجهد ما الله به عليم في إصلاح ذلك الفساد . وجدت نقصاً في فاخر الشعر وجيده كما يصفه أبو الفرج ، فأتممت ذلك النقص لما توقعت من جدوى ذلك على طلاب الآداب .

وجدت نقصاً في ضبط الغريب وتفسيره ، فاحتملت عبء ذلك كله ، وأزلت عناء كان يشعر به أمثالي من قراء الأغاني . وقد تلقيت كتباً كثيرة تستزيد من هذا الضبط وهذا التفسير . وسأكون عند هذه الرغبة فيما أستقبل من الأجزاء إن شاء الله .

أما ما نقصته منه فلم يعد لإحدى اثنتين ، إما فحش صدّ عن الأغاني وجوه كثير من أهل الأدب ، كانوا يشكون ذلك منه ومن أكثر كتب الأدب العربي ، وإني معهم في ذلك . وكثيراً ما رأيت ابن هشام راوى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن إسحاق ، إذا روى شعراً يقول : ”تركنا هنا بيتاً أو بيتين وأكثر أقذع فيها“ . فليس الامتناع من الفحش والإقذاع مقصوراً على أهل جيلنا ، بل كان لنا فيه سلفٌ صالح نريد أن نستنّ بسنتهم . وإما أشياء قلت عنها لا تفيد أدباً ولا ترقى فكراً . لست يا سيدي من طغاة الأدب حتى توجه سهمك إليّ ، وإنما أنا رجل خبرت الناس وعرفت ما يفيد وما لا يفيد ، فاستضأت بهذه الخبرة

في حذف ما حذف . ولعلك تكون لى لا على متى حان وقت نقدك المفصل بعد أن تقارن بين ما ضمنته "مهذب الأغاني" لشاعر معين ، وبين ما تراه في الأغاني . وإنى أؤكد لك من الآن أن المتروك من ذلك قليل لا تكاد فائدته تساوى قراءته .

أما ما ذكرت من كتاب ابن منظور ، فإنى قد اطلعت عليه ، ولم أره كفيلا بحاجة المتأدبين من قومي ؛ لأنه رتب الشعراء والمغنين فيه على حروف المعجم ، وهذا غير ما قصدت إليه من التأليف بين من جمعهم عصر واحد أو قبيلة واحدة . وعمله تغنى عنه الفهارس . على أنه لم يحمل العبء الذى حملته من الإصلاح والضبط والتفسير وحذف ما لا يجوز في كتاب إثباته .

لعلك تتفضل بالتفصيل بعد الإجمال : وإذا ذاك أرجو أن ترى أن ما بذلته من الجهود قد وقع موقعه ، وأن تهذيب الأغاني كان يجب أن يظهر في عالم الأدب منذ أزمان ليكون لكتاب الأغاني أثره في نفس قرائه ، وليقتسم الفضل فيه أبو الفرج رحمه الله فإنه جمعه ، ومحمد الحضري فإنه هدّبه .
وبعد ، فالسلام عليك من شيخ يحبك ، ويتمنى أن يعلو في عالم الأدب صوتك .

محمد الحضري

نعم ! إذا كنت أحرص على أن تكون حرّاً في النقد عامة وفي نقد أساتذتى خاصة ، فأنا شديد الحرص على أن يكون الناس أحراراً في ردّ ما أوجهه إليهم من نقد ، وفي إظهار ما قد أتورط فيه من خطأ . وأنا لا أعترف لهم بهذه الحرية فحسب ، وإنما أقدم لهم عليها أجمل الشكر وأحسن الثناء ، وأتجاوز هذا إلى الاعتراف بالخطأ في الرأي والحوار في الحكم إن دلوني على خطأ أو جور .
وليعلم الكتاب والمؤلفون أن صناعة النقد في نفسها ليست لذيدة ولا محبة إلى النفس ، وأن الناقد حقاً لا يبتغى النقد للنقد ، وإنما هو يضطر إليه اضطراراً ، يضطره إليه حبه للحق وميله إلى الإصلاح ورغبته في الخير . وليس محبباً إلى النفس أن يبحث الناقد عن سيئات الناس وأغلاطهم وما يعرض لهم من ضعف وما يصيبهم من زلل . ليس ذلك محبباً إلى النفس إلا أن يكون الإنسان شريراً بطبعه ، ميالاً إلى الإساءة والأذى . وأرجو ألا أكون من هذا كله في شيء . لهذا يسرنى أن

يدلني مؤلف أو كاتب على أنني أخطأت حين نقدته أو جرئتُ حين حكمت عليه ، لأعدل عن هذا الخطأ وأصلح هذا الجور . وأنا أؤكد للكتاب والمؤلفين أني أشد سروراً بالعودة عن رأي خاطيء مني بإذاعة هذا الرأي قبل أن أعرف خطأه . ولقد كنت أريد حين وصل إلى كتاب الأستاذ الحضري أن أجد فيه ما يحملني على أن أغير من رأيي قليلاً أو كثيراً ، فقرأت الكتاب وقرأته وتدبرت الكتاب وتدبرته دون أن أظفر بما كنت أريد . فالأستاذ والقراء يعلمون أني حمدت للأستاذ هذا الجهد ، وما زلت أحمده وأعلن أنه شاق عسير لا ينهض به إلا من أتاحت لهم قوة الإرادة والصبر على المكروه والاستعداد للتضحية بالوقت والراحة والمال . أعلن هذا كله ولا أغير رأيي فيه، ولكني مع ذلك أحتفظ برأيي كاملاً في تهذيب كتب القدماء واختصارها وتغيير نظامها ، وأعدّ هذا مسخاً وتشويهاً ، وأرى أنه مهما يكن نافعا مفيداً فهو لا يخلو من الشر ولا يعني صاحبه من اللوم . ذلك لأنني أرى أن لصاحب الكتاب حقاً مطلقاً في أن يبتى كتابه كما وضعه دون أن يناله تغيير أو تبديل ؛ لأن كتاب الرجل جزء من نفسه ، وما كان لك مهما ترد من الخير أن تعبت بنفوس الناس .

تريد أن تقرب الأدب العريق إلى هذا الجيل ، وأن تبيع للناس الانتفاع بهذا الأدب في غير مشقة ولا عناء ؟ ذلك لك . فخذ من كتاب الأغاني ما أحببت ، ورتبه كما تريد ، وأعرضه على الناس في الصورة التي تهواها ولكن دع كتاب الأغاني كما وضعه صاحبه ؛ فهو لم يضعه لتأتي أنت فتغيره أو تبدّله . وهبُ كتابك قد راج حتى استأثر بما كان للأغاني من شهرة فانصرف الناس عن الأغاني إلى مهذبته ، وضاعت نسخ الأغاني من بين أيديهم ، فليس من شك في أن الصورة التي سيتخذونها من علم أبي الفرج ومذهبه في التأليف لن تكون صحيحة ولا صادقة ، وأنت بذلك تسيء إلى أبي الفرج . ستقول إنك أردت أن تنفع الناس . ولكنك كنت تستطيع أن تنفعهم دون أن تسيء إلى هذا المؤلف المسكين . تريد أن تشاطر أبا الفرج مجده واستحقاقه للخلود ؛ ولم تقاسمه مجده ؟ ! ولم لا تبني لنفسك مجداً مستقلاً وأنت قادر على ذلك ؟ ! تريد أن تضمن الخلود لأبي الفرج ! معذرة يا سيدي الأستاذ ؛ فقد عاش كتاب أبي الفرج ألف سنة قبل أن يظهر كتابك ، وعاش رغم مختصر ابن منظور . وما نحن أولاء نرى كتاب أبي الفرج ذائعاً منشوراً ، ومختصر ابن منظور مقبوراً مجهولاً . وأنا شديد الإشفاق على كتابك

أن يكون حظه كحظ مختصر ابن منظور ، وشديد الثقة بأن المهذبين والمختصرين
 مهما يلحوا على كتاب الأغاني بالتهذيب والاختصار ، فسيبقى هذا الكتاب كما
 تركه صاحبه وكما أراد أن يكون .

بقيت مسألة عظيمة الخطر جداً أريد أن ألفت إليها الأستاذ خاصة ورجال
 الأدب والتأليف عامة ، وهي أنهم يجدون في كتب القدماء ألواناً من الضعف
 والنقص والاختلاط وسوء الترتيب ، فيخيل إليهم أنهم يحسنون إلى هؤلاء القدماء
 بإصلاح ما في كتبهم من عيب ، وهذا حق ؛ فهم يحسنون إلى القدماء وإلى
 المحدثين أيضاً . ولكنهم يسيئون إلى القدماء حين يضطرونهم هذا التهذيب والإصلاح
 إلى التغيير والتبديل وإلى المسخ والتشويه .

تريد أن تُصلح ما في الأغاني من نقص وفساد ؟ ! ذلك لك . ولكن لا على
 النحو الذي سلكت ، وإنما على نحو آخر هو الذي سلكه العلماء الأوربيون
 وكثير من علمائنا نحن قبل هذا العصر ، وهو أن تضع كتاباً مستقلاً فيه إصلاح
 ما في الأغاني من نقص وفساد ، ومن ضعف واضطراب . وما الذي كان يمنعك
 من أن تكمل نقص الأغاني وتضبط غريبه وتيسر على الناس البحث فيه بكتاب
 يؤلف من جزء أو جزئين على نحو ما فعل المستشرقون الأوربيون الذين وضعوا
 فهرس كتاب الأغاني ! فرق عظيم بين من يريد أن يصالح كتاباً ليسهل على
 الناس الانتفاع به ، ومن يريد أن يغير كتاباً ليقاسم المؤلف حقه في المجد والحلوة .

ومسألة أخرى ، هي مسألة ما حذف الأستاذ من الكتاب . وأنا أعلم حق
 العلم أن من المتقدمين من كان يعدل عن رواية الفاحش من الشعر ، سواء أكان
 فحشه مؤذياً للعاطفة الدينية أو للأخلاق والآداب . أعرف أن ابن هشام عدل
 في السيرة عن شعر فاحش ، وأعرف أن المبرد أبي أن يروي كل ما قال كعب
 بن جعيل في علي . وأعرف أن أبا الفرج نفسه أبي أن يروي كثيراً من شعر
 السيد الحميري لأن فيه سباً لأبي بكر وعمر . أعرف هذا كله ، وأعرف أن
 ابن قتيبة كان ينكر مثل هذا التخرج وهو يعيبه عيباً شديداً في مقدمة كتابه
 المعروف : « عيون الأخبار » . أعرف إذاً أن القدماء كانوا في هذا الأمر كما
 نحن الآن ، منهم من يتخرج من رواية الفحش ومنهم من لا يتخرج . أعرف
 هذا كله ، ولا أغير مع ذلك رأيي في عمل الأستاذ تغييراً قليلاً ولا كثيراً ، لك

أن تتحرج من رواية الفحش أو لا تتحرج ، ولكن في كتاب تضعه أنت لا في كتاب يضعه غيرك .

تقول إنك لست من طغاة الأدب . وأنا أعتقد أنك لست من طغاة الأدب ، ولكني أعتقد مع ذلك أن من الطغيان على أبي الفرج أن تحذف من كتابه شيئاً وضعه هو في كتابه ، وأن من الطغيان على قراء الأغاني أن تحرمهم قراءة شيء في الأغاني كان من حقهم أن يقرءوه . لست أشك في أنك أردت الخير ، ولكني لا أرى لإنسان مهما يكن حقاً في أن يكره الناس على أن يكونوا اختياراً فيما يكتبون ، أو فيما يقرءون أو فيما يعملون . لا أعرف لهذه الحرية حدّاً إلا القوانين العامة . وأحسب أن القوانين العامة لم تكلفك ولم تكلف غيرك من العلماء تطهير كتاب الأغاني أو غير كتاب الأغاني . ثم لا أزال أحتفظ برأى كاملاً في هذه الأشياء التي رأى الأستاذ أنها لا تفيد . فهما تكن الخبرة التي اكتسبها الأستاذ فهي لا تبيح له حذف هذه الأشياء من كتاب الأغاني ، وإنما تبيح له حذف ما يشاء من كتاب يضعه هو لا غيره .

وبعد ، فإني أشكر للأستاذ على كل حال ما يتكلف من ضبط الغريب وتفسيره ، وتكميل الشعر وترتيبه ، وأستزيده من ذلك مع المستزيدين ، وأثنى على جهده مع المثنين . ولكني آسف - وقد أكون وحيداً في هذا الأسف - على هذا الجهد الذي كان يمكن أن ينتج للناس كتاباً قيماً مستقلاً يكون مجده خالصاً للأستاذ دون أبي الفرج .

* * *

٢ - قلت إن النقد صناعة ليست باللذيذة ولا المحببة إلى النفس ؛ فهي تكلف الناقد ضروباً من المكروه وألواناً من الألم قد كان يستطيع أن يستغنى عنها لو صرفه الله عن هذه الصناعة . ولكنها مع ذلك صناعة نافعة أو قل لازمة ، أو قل لا حياة للأدب بدونها ولا قوام له من غيرها . فنحن إذا مضطرون إلى أن ننقد ، ونحن إذا مضطرون إلى أن نتحمل الأذى ونعرض للمكروه في سبيل هذا النقد . ولست أخشى أذى خارجياً أو مكروهاً يلقاني من الكتاب أو المؤلفين ، وإنما أخشى هذا الأذى المنكر الذي يجده الإنسان في نفسه وهذا المكروه الثقيل الذي يلقاه الإنسان من نفسه حين يتناول بالنقد كتب الإخوان والأصدقاء وأهل المودة والقرابة . فالدكتور أحمد ضيف أخ لي لا تصل بيني وبينه حياتنا في الجامعة

المصرية وحدها ، بل تصل بينى وبينه حياة قضيناها معاً في فرنسا كان فيها الحلو والمر ، وكان فيها الخير والشر ، وكنا نبلو حلوها ومرها ونحتمل خيرها وشرها أخوين صادقين ، لا يعدل أحدهما بصاحبه إنساناً ولا بمودة صاحبه شيئاً آخر . ومع هذا كله فأنا مضطر إلى أن أتناول بالنقد كتابه القيم الذى أذاعه في الناس منذ أشهر ، وهو كتاب « بلاغة العرب في الأندلس » .

لصديقى الأستاذ أحمد ضيف حضان مختلفان أشد الاختلاف : حظ في الجامعة حيث يعلم الطلبة ويبصرهم بمناهج البحث الأدبى ، وحظ خارج الجامعة حيث يذبح كتبه ومباحثه الأدبية . أما حظه في الجامعة فحسب "جداً خليقاً بالغبطة ؛ فقد وفق الأستاذ لأن يفتح أمام تلاميذه مناهج جديدة للبحث سلكوها فوفقوا فيها لخير كثير . ولقد حدثتكم غير مرة عن تلميذ للأستاذ تناول ألواناً من البحث الأدبى فكان حظه من الإجابة عظيماً ؛ هو الدكتور زكى مبارك . وسأحدثكم عن تلميذ آخر للأستاذ تناول الأدب العربى في الأندلس فأظهر كتاباً لا بأس به ، وهو كامل أفندى الكيلانى . وليس بالشىء القليل على أستاذ أن يكون من تلاميذه المؤلفون الذين لا يسيئون التأليف ولما يمض الأستاذ في مهنة التعليم إلا أعواماً قصاراً .

حظ الأستاذ أحمد ضيف من هذه الناحية حسن خليق بالغبطة ، ولكن حظه من الناحية الأخرى سيء مع الأسف الشديد . هو موفق في التعليم ، غير موفق في التأليف . ولقد حاول أن أجد سبباً لهذا ، وأحسبني لا أخطئ ولا أتجاوز القصد إن قلت إن السبب الأساسى الذى يحول بين الأستاذ وبين الإجابة اللائقة به في كتبه هو أن نفسه سريعة الحركة ، مسرقة في هذه السرعة ، لا تكاد تعرض للشىء فتثبت له حتى تقتله بحثاً ودرساً وتنفضه فهماً وتفكيراً . وإنما هو شديد السأم كثير الملل ، لا يكاد يلم بالموضوع حتى يسأمه ويزيد فيه ، وينتقل منه إلى موضوع آخر فيسأمه ويزيد فيه ، وينتقل منه إلى موضوع ثالث وموضوع رابع . وتكون نتيجة هذا السأم وهذا الانتقال السريع آراء كثيرة ظاهرة الجدة ولكنها غير ناضجة ولا واضحة ولا قابلة للبحث . وإذا كانت الأناة شرطاً أساسياً للإجابة والإتقان في كل شىء مهما يكن نوعه فهى الشرط الأساسى الوحيد للحياة العقلية المنتجة . وربما لم تكن المناهج العلمية شيئاً إلى جانب الأناة العلمية . ذلك لأن المناهج العلمية المنتجة على قيمتها ولزومها ليست في حقيقة الأمور إلا

نتيجة طبيعية للأناة العلمية . وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وأظهر ما يكون ذلك في العلم والأدب والمباحث العقلية على اختلافها ؛ فإن هذه النتائج الباهرة التي انتهى إليها العلماء والأدباء ليست في حقيقة الأمر إلا آثاراً لجهود طويلة بطيئة شاقة ذهبت فيها القوى وأنفقت فيها لا أقول الأشهر ولا أقول الأعوام ولا أخطئ إذا قلت القرون . فكم من فكرة علمية أنفق فيها العالم حياته كلها ثم انقطعت به أسباب هذه الحياة دون أن يتمها درساً ، وجاء بعده العالم أو العلماء فأنفقوا فيها مثل ما أنفق أو أضعاف ما أنفق من جهد ووقت . وكذلك الأمر في الأدب ، وكذلك الأمر في الحياة العقلية كلها . فإذا كان للحياة العقلية المنتجة عدو حقاً فإنما هو العجلة والإسراف في السرعة . ولقد تقرأ الكتابين اللذين أظهرهما الأستاذ الدكتور ضيف منذ بدأ الدرس في الجامعة ، فتشعر بما أشعر به من أن الأستاذ تعجل فأسرف في العجلة ، وأذاع في الناس آراء لم تنضج في نفسه كما ينبغي ، فلم يتقن هو فهمها ولم يستطع الناس أن يفهموها من بعده . تشعر بهذا ، وتشعر بشيء من الألم وضيق الصدر إذا كنت تعرف الأستاذ وكفايته وقدرته على الإجابة والإتقان . فأنت لا تكاد تقرأ صفحة واحدة من أحد الكتابين حتى تشعر بهذا الضيق ، وحتى تشعر بغموض شديد ، وحتى تسأل نفسك ملحماً متشدداً في الإلحاح : ماذا يريد أن يقول ؟ وأنت تستطيع أن تسأل نفسك وأن تسألها ، بل أن تسأل المؤلف وتلح عليه دون أن تجد الجواب المقنع . ذلك لأن المؤلف ألم بالاموضوعات إلماماً ولم يتقنها إتقاناً .

ولقد فرغت الآن من مقدمة كتابه الآخر في بلاغة العرب في الأندلس . ويؤلمني أني لم أفهم منها شيئاً ، أو أني لم أستقر منها على شيء ؛ فأنا أشعر بأن الأستاذ يريد أن ينكر على القدياء والمحدثين تصورهم للأدب وحكمهم عليه ، فيخيل لي أنه سيضع للأدب تعريفاً جديداً ويحكم عليه حكماً جديداً ، يرسم فيه مناهج للبحث والفهم جديدة ، فإذا مضيت في القراءة لم أجد إلا غموضاً وإبهاماً ثم رجوعاً إلى تصور القدياء وحكم القدياء والنقل عن القدياء . ليس الأدب في رأي الأستاذ ضرباً من الفكاهة والتسلية ولا نادرة ظريفة ولا عبارة طريفة ولا حكمة بليغة ولا بيت شعر يملك النفس ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة . وليس الأديب في رأي الأستاذ من كان « كثير النادرة حاضر الذاكرة

واسع الاطلاع أنيس الجليس عذب الحديث حافظاً راوية . وليس كتاب الأدب في رأى الأستاذ ما كان جامعاً « لكثير من مسائل اللغة وقواعدها ، والشعر وأنواعه ، والنوادر الخاصة والعامه وتواريخ الأمم » . وليس الكاتب في رأى الأستاذ من كان « طلى العبارة عارف باختيار الألفاظ عالماً بكثير من المترادفات تنقاد البلاغة إليه انقياداً فيصور الحق باطلا ويجعل الباطل حقاً » .

ليس الأدب ولا الأديب ولا الكتاب الأدبي ولا الكاتب في رأى الأستاذ شيئاً مما قدّمنا . فما الأدب إذا؟ الأدب عند الأستاذ « نتائج العقول والقرائح البشرية وقوة الفكر والإدراك الإنسانى التى تنفتق بها ألسنة الشعراء وتسيل بها أقلام الكتاب فيفيضون على العالم من أحوال الاجتماع وصوره وأسرار النفس وخفايا الوجود ما يملأ النفس غبطة وإعجاباً بصحيح الآراء ، وجمال الافتتان ، ويمتازون عن العامة من الكتاب والمفكرين بدقة الإدراك وتصوير المعانى النفسية والاجتماعية تصويراً يقرب من أن يكون مدركاً بالحواس » . أفهمت شيئاً؟ أما أنا فلم أفهم شيئاً واضحاً ، وإنما يخيل إلى أن فى نفس المؤلف شيئاً يريد أن يقوله وهو لا يجد إلى قوله سبيلاً .

ولنلاحظ قبل كل شيء أن الفكاهة والنادرة والعبارة الجيدة والبيت المتقن وكل هذه الأشياء التى لم يرد الأستاذ أن يسميها أدباً ليست نتائج الآذان والأنوف ، ولا نتائج الأيدي والأرجل ، وإنما هى نتائج القرائح والعقول ، وهى ليست هواء من القول ولا سخفاً من الحديث ، وإنما هى على كل حال صورة لنفس إنسانية ما أو حياة اجتماعية ما . وإذا فهى أدب كما يريد أن يكون الأدب . الحق أن الأستاذ كلف بالأدب الغربى ، ملاحظ للفرق بينه وبين الأدب العربى ، متأثر بهذا الفرق . وهو يريد أن يحدده ويدل عليه ، فلا يعينه قلبه ولا لسانه لأنه لم يصطنع الأناة فى التفكير والكتابة . فهو يقول أكثر مما يفكر ؛ وهو يفكر أكثر مما يقول . وكذلك الحال حين يزعم الأستاذ أن نفوسنا تمل الآن أسلوب القصيدة العربية لأن الشعر العربى كما هو أصبح لا يلائم أذواقنا وميولنا وحاجاتنا . وأنا أترجم عن المؤلف ولا أنقل عبارته ، فعبارته شديدة الغموض لا تكاد تدل على هذا إلا إذا كلفها مشقة وجهداً . ومع هذا فليس من الحق أننا نمل الشعر العربى كما هو ونزهد فيه ، وإن كنا نريد له رقيماً وتطوراً يقاربان بينه وبين أذواق العصر الحديث وحاجاته . وليس من الحق فى شيء أن الأدب العربى كما يظن الأستاذ لا يمثل الحياة الاجتماعية والنفسية ولا يعرب عن أسرار الوجود ، وإنما هو نحو

من تمثيل الحياة الاجتماعية والنفسية وضرب من الإعراب عن أسرار الكون والوجود . ولكنه محتاج إلى أن يُفهمَ ويدرس مع العناية والإنصاف وأرجو أن تكون « أحاديث الأربعاء » قد دلتك على أن الأدب العباسي يمثل الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، وأن الأدب الأيوبي يمثل الحياة الاجتماعية في عصر بني أمية ، كما أنه يمثل نفوس الشعراء وظروفهم الخاصة في العصرين . ومالي أذكر أحاديث الأربعاء ! وهل يستطيع الأستاذ أن ينبئني لمَ يؤلف كتاباً في أدب الأندلس إذا لم يكن الأدب الأندلسي يمثل الحياة الأندلسية تمثيلاً قوياً أو ضعيفاً ؟ قل إن الأدب العربي لا ينحو نحو الأدب اليوناني وللاتيني والآداب الغربية الحديثة في تمثيل الحياة ووصف الأحياء ؛ فهذا شيء لا نزاع فيه ، لكنه لا يحو قيمة الأدب العربي في نفسه من حيث إنه مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية ومرآة للنفس الإنسانية . ولكن الأستاذ لم يُرد أن ينكر قيمة الأدب العربي ، وإنما هو كما قلت لك يقول أكثر مما يفكر ، ويفكر أكثر مما يقول ؛ لأنه سريع الحركة لا يُنضح ما يعرض له من المباحث . وآية ذلك أنه أراد أن يذكر قيمة الأدب الأندلسي فكان كغيره من الكتاب ، أستغفر الله ! بل استعار كلام القدماء فنقل عن ذخيرة ابن بسام ونقل عن كتاب نفع الطيب .

ولترك مناقشة هذه المقدمة لنتقل إلى ملاحظات يسيرة كنا نحب ألا يتعرض لها كتاب في الأدب العالي . أراد الأستاذ أن يلتم بتاريخ الأدب في الأندلس مقدمة لبحثه الأدبي ، وهذا حسن . ولكنك لا تكاد تبدأ قراءة هذه المقدمة التاريخية حتى تجد فيها ضروراً من الإهمال وإرسال القول على علته . تجد مثلاً أن العرب فتحوا ما لم يفتحه غيرهم من الأمم في ثلاثة قرون ، بل في قرن واحد ، فلم تمض على العرب ثلاثة قرون حتى كانوا قد سثموا الفتح وانصرفوا عنه إلى الاستمتاع بالحياة . وتجد مثلاً أن العرب خرجوا من بلادهم إلى مصر ثم إلى القيروان ، ولكنهم مروا ببلاد أخرى ففتحوها قبل أن يصلوا إلى مصر . وتجد فيها مثلاً أن دولة العرب في الأندلس كانت أعظم دولة أقامها العرب ، وأن مدينتهم في الأندلس كانت أعظم مدينة جاء بها الإسلام .

أحق هذا ؟ أكانت دولة قرطبة أعظم من دولة دمشق وبغداد ؟ أكانت مدينة قرطبة أعظم من مدينة بغداد والقاهرة ؟ وهل يباح لكتاب في الأدب العلي أن يتورط في مثل هذا الكلام المرسل على علته ؟ ! ثم هل أسمح لنفسى بأن ألاحظ

أن الكتاب لا يخلو من إهمال لغوي ، فلا ينبغي أن يقال : « إذا وفقنا الله إلى العودة في هذا الموضوع » ، وإنما يعاد إلى الموضوع لا فيه .

لقد يضيق بي الوقت والمكان عن أن أمضى في نقد الكتاب نقداً مفصلاً ، ولكنني أكتفي بما قدمت ، وأرجو أن يوفق الأستاذ في كتبه المقبلة لهذه الأناة العلمية التي تنقصه ، والتي تكفل من غير شك لكتبه ما هي أهل له من الإتيان والفوز .

النقد والأدب والحرية

حول مذهب الأغاني أيضاً

سيدي الدكتور

أحب أن أجاذبك الحديث لأنني أشوق ما أكون إليك وإلى حديثك . وأحب أن أعود بك إلى مذهب الأغاني لأن قليلاً على مثل مذهب الأغاني أن تخصص به خطرة وخطرتان من صحيفة الأدب . وإذا فاسمع أقص عليك حديثي :

أملك كتاب الأغاني منذ نيف وعشرين عاماً ، وقد عنيت منذ ملكته بأن أجعله حلية مكتبي . ولكنني أؤكد لسيدي وأنا من أشغف الناس بالأدب أنني لم أملأ يدي من أدب ذلك الكتاب الكريم على فرط حبي له وإعجابي به وعلمي بأنه المنهل الفياض الذي يصدر عنه علماء الأدب جميعاً .

ومنذ عشرة أيام ملكت الجزء الأول من مذهب الأغاني ، وفي عشرة أيام فقط قرأت الكتاب كله وملأت يدي منه ، وعرفت أي شعوب العرب وقبائلها ، وأي بطونها وأفخاذها أصلب عوداً في شعوب القول وأيها أرق نسجاً له .

إني لأومن بأنني لست من الباحثين المنقرين الذين يسوقهم بحمهم وتنقيهم إلى قراءة ما أورده صاحب الأغاني من فحش ومجون أو استيعاب تركه « المذهب » مما لا شأن له ولا معنى فيه . نعم لست من أولئك الباحثين المتعمقين . ولو كنت منهم لما أعوزني أن أرجع إلى الأغاني وقت الحاجة إلى البحث والاستيعاب . ولكنني لست بدعاً من سواد المتأدين الذين يحبون الأدب العربي حباً ملك عليهم مشاعرهم ، ويسرهم كل السرور أن يجدوه بديع النسق داني القطاف في كتاب واحد كما أجده في « مذهب الأغاني » .

لم يكن كتاب الأغاني من خواطر أبي الفرج أو إنشائه حتى يكون ترتيبه وتهذيبه وضم كل شكل إلى شكله وجمع كل ألف إلى ألفه . مسخاً وتشويهاً . ولكن أبا الفرج نقل آراء غيره في شعراء العرب ومغنيهم ، فأحسن كل الإحسان في نقله ولم يحسن في وضعه ، فجمع في الجزء الواحد بين أقوام لا صلة بينهم في نسب

الأدب ، وذهب بكل شاعر كل منذهب في تفاريق كتابه . وربما كان في شغل بإجادة الجمع عن إجادة الوضع . فهل يعاب على رجل رأى ذلك الذخر مبدداً فنظمه ، وتلك الثروة تائهة فجمعها ، وذلك الأدب الفياض . مكدرأ فصفأه ؟ ! وإذا كان سيدى الدكتور يرى تنسيق كتاب الأغاني وتهذيبه معارضة لأبي الفرج واعتداء عليه وهو لا شخصية له فيه ، فما رأيه في عمل أبي تمام والبحترى في حماستهما وقد عمد كل منهما إلى قصائد لشعراء الجاهلية والإسلام ، وفي كل قصيدة نفس صاحبها وخطرات مشاعره ونزعات سرائره وأسلوب نظامه ، فحذف منها ما حذف ، وفرق بين أجزاء القصيدة الواحدة ، فردّ الغزل والوصف والحماسة والأدب منها كلا إلى إلفه من كتابه . فما رأى سيدى ؟ أيعدّ ذلك مسخاً للأدب وتشويهاً له ؟ وإذا فقد جنى أبو تمام وصاحبه على شعراء العصور الخوالي ؟ أم يرى أنهما قد قرّبا بذلك النسق جنى الشعر من منال الأدباء ؟ !

ليسمح لى سيدى الأستاذ أن أقول : إن يكن أحد أحسن إلى أبي الفرج فالأستاذ الحضري بك ؛ لأنه قرّب إحسانه إلى المتأديين جميعاً ، وإن كتاب مهذب الأغاني كان يجب أن يظهر منذ أجيال بعيدة ، ولو هذبه ابن مكرم تهذيب الأستاذ الحضري له لأباح منه الأدباء تبرأ لا ترب فيه .

وبعد ، فهل مبلغ عنى صديقى وأستاذى الجليل أنى أكبر جريدة السياسة وأجل صحيفة الأدب فيها أن يتاح لأتاس يتخذونها ذريعة لشفاء حزازات الصدور وحك سخائم النفوس باسم النقد . وإلا فما لنقد الكتب وللتغلغل في كرامات العلماء والنيل من أقدارهم ؟ وهل بهذه الوسيلة يخدم العلم والأدب ؟ ! وإذا لم تُصنّ كرامات العلماء في صحيفة الأدب من جريدة السياسة في أى صحيفة نرجو أن تصان ! !
تلك كلمتى لرجل أجلّ علمه وأدبه ، وأعرف له نبلة ونزاهته . أما ذلك الذى قرأ نقدك فضحك وقهقه ، وما زال يضحك ويقهقه في الترام وتحت وابل المطر ، فأنت وحدك المسئول عنه لأنك أنت الذى سببت له تلك الحال ! .

والسلام عليك ورحمة الله

« كاتب »

* * *

لست أدري أياؤافقنى الأستاذ الحضري على هذا الرأى أم يخالفنى فيه ، وهو أن من الخير لكتاب ناشئ أن يكثّر الكلام حوله وتختلف الآراء فيه وتتناوله

الصحف السيارة بالرضا عنه حيناً والسخط حيناً آخر ؛ ففي ذلك إذاعة لأمر الكتاب وإلحاح في الدعوة إليه ، وضرب من الإعلان الجيد المفيد الذي قد يبتغيه المؤلفون بأموالهم فلا يظفرون منه بما يريدون .

إذا كان الأستاذ يوافقني على هذا الرأي فليهنئه أني نقدت كتابه وشددت في نقده ، وأنه ردّ على هذا النقد فنقدت ردّه ، وأن هذا الحوار بيننا قد أهم جماعة من المتأدبين فاشتركوا فيه ، ونشرت « السياسة » لهم فصلين يوم الأحد الماضي ، وهي تنشر لم فصلاً في هذا اليوم . وفي كل هذا ذكر للكتاب وإلحاح في الدعوة إلى الكتاب وتذكير للناس بأن الكتاب قد ظهر وأنه خليق أن يقرأ وينظر فيه . وما أحسب أن الأستاذ كان يظفر من جريدة « السياسة » بإعلان كهذا متصل مفصل متكرر مهما يبذل لها من مال .

على أني أرى لكل شيء حداً ، وأحسب أن قد نشرت « السياسة » في نقد الكتاب والذود عنه ما فيه كفاية ، وأن من الخير لصحيفة الأدب وقراءها أن تنتقل من هذا الموضوع إلى شيء آخر فيه نفع جديد . وما كنت لأستأنف القول حول « مهذب الأغاني » لولا أني رأيت فيما نشرت السياسة صباح الأحد ، وفيما تنشره صباح اليوم ، وفي أشياء كنت أريد أن أنشرها ولكن صاحبها طلب إلى ألا أفعل ، أموراً خليقة أن نقف عندها وقفة قصيرة أخيرة .

الناس يفهمون النقد فهمين متناقضين تناقضاً شديداً ، وكلاهما خاطئ سبيء الأثر . فهم من يفهم من النقد حمداً خالصاً وثناء طيباً وتقريباً من غير تحفظ . والنقد عند هؤلاء ضرب من المدح يقصد منه ترويح الكتاب وإذاعة أمره ورفع صاحبه بين الناس . لهذا لا يكاد أحدهم بفرغ من كتابه حتى يرسله إليك ويسعى به إليك ، وحتى يرجو منك أن تتناوله بالنقد وألا تحرمه كلمة من « كلامك العذب وأسلوبك الحلو وإنشائك الرائع » . وهو يقدر في نفسه أن الكلام العذب والأسلوب الحلو والإنشاء الرائع إنما هو كلامه وأسلوبه وإنشاؤه ، وأن الناقد إنما هو وسيلة لترويح الكتاب والثناء عليه لا أكثر ولا أقل . ومنهم من يفهم النقد على أنه طعن وقدح وتجريح ودلالة على السيئات ، فهو يكرهه ويكره أصحابه ويكره تأليف الكتب حتى لا يتعرض لألسنتهم وأقلامهم ؛ فإن اضطرتته حياته وصناعته إلى التأليف فهو يتوسل إلى الناقدين ألا يعرضوا لكتابه بخير ولا بشر ، وأن يخلوا بينه وبين القراء يقرءونه فيرضون عنه أو يسخطون عليه . وقد وصلت

إلى كتب أولئك وهؤلاء ، وقرأت من أولئك وهؤلاء أعاجيب ، وسمعت من أولئك وهؤلاء أيضاً . ولو أنى أخذت أنشر لك طرفاً من هذه الكتب أو أقص عليك شيئاً من هذه الأحاديث لضحكت كما ضحكت ، ولحزنت كما حزنت ، ولكنى لا أريد أن أؤذى أحداً ، فلاطو هذه الكتب ، وربما مزقتها ، ولأعرض عن هذه الأحاديث وربما نسيها .

وفي الحق أن الصلة بين النقاد والمؤلفين دقيقة بطبيعتها لا تخلو من الحرج . فأى مؤلف لا يطمع في الثناء على كتاب بذل فيه من الجهد ما بذل ولقى فيه من العناء ما لقى ! وأى مؤلف لا يكره أن يتناول النقاد جهده ونتيجة جهده بالنقد فيبينوا ما فيهما من ضعف ويدلوا على ما فيها من قصور ! كلنا يحب الثناء ويعتقد أنه مستحق له ؛ وكلنا يكره الذم ويعتقد أنه خليق ألا يتعرض له . ولكن شيئاً ينقصنا مع هذا وهو أن نقدر العلم قدره ، ونؤمن بأن لا قوام للعلم بغير النقد . ولا أكاد أفهم أن رجلاً يستحق أن يوصف بأنه عالم أو أديب أو من طلاب العلم والأدب إذا لم يكن يقدر النقد وحاجة العلم والأدب إليه .

يقدر النقد لا على أنه ثناء خالص ، ولا على أنه هجاء خالص ؛ فليس العلم في حاجة إلى الثناء ، وليس هو في حاجة إلى الهجاء ، وإنما هو يترفع عنهما جميعاً . وإنما ينبغي أن يقدر النقد على أنه تمحيص للعلم ودلالة على ما فيه من حق يجب أن يبقى ، وباطل يجب أن يزول ، أو قل على ما تعتقد أنه حق أو باطل . ولست أدري لم يؤذيك أن يدلك ناقد على أنك أخطأت وأنت لم تأخذ على الأيام عهداً بالإصابة المطلقة . ولست أدري لم تحرص على أن يصفك الناس بأنك موفق للحق أبداً ، ولم يقدر هذا التوفيق لإنسان ما .

النقد إذاً حاجة طبيعية لكل حركة علمية أو أدبية أو فنية . ولكن النقد لا خير فيه ولا نفع منه إذا لم يكن حراً من كل قيد من هذه القيود المنكرة التي تحول بين النقاد وبين أداء واجبهم على وجهه .

يجب ألا يتقيد النقد بالمجاملة وما إليها ؛ فقد تكون للمجاملة أوقاتها ومواضعها ، ولكنها أشد الأشياء منافرة للعلم ، وبعداً عن النقد الصحيح . وما رأيك فيمن يرى الحق فيعرض عنه لإرضاء لصديق ، أو رفقاً بأستاذ ، أو تقرباً إلى ذى مكانة ! أتراه رجلاً حقاً ذلك الذى يؤثر صديقه وأستاذه وصاحب المكانة على الحق من حيث هو وعلى الحق العلمى بنوع خاص ؟ وما رأيك فيمن يرى الباطل فيقره لإرضاء

للصديق والأستاذ وذى المكانة ؟ أترأه رجلاً حقاً ذلك الذى يؤثر الناس مهما تكن أقدارهم وصلاتهم على العلم فيرضيهم ليغضبه ؟
 كثيرة جداً هذه الأسباب التى تحول بين النقد وبين حريتهم . ولست فى حاجة إلى أن أحصيها ، فهى أظهر من أن تحتاج إلى أن يدل عليها . وأكبر ظنى أن حرية النقد ليست بدعاً من ضروب الحرية المختلفة ، فهى نتيجة من نتائج التربية الصحيحة وأثر من آثار الأخلاق القيمة . وهى عسيرة جداً فى بلد فسدت فيه الحياة الاجتماعية والسياسية ، واضطر الناس فيه إلى أن يسرفوا فى النفاق والمداجاة ليعيشوا . ولقد آلمنى ما قرأته فى الفصل الذى نشرته « السياسة » فى صباح الأحد لمعلم أراد أن ينقد كتاب الأستاذ الحضري ، فلم يجد بداً من إخفاء اسمه حتى على السياسة نفسها لأنه مشفق على راتبه ومنصبه فى وزارة المعارف أن يمسها الأستاذ الحضري ومغربى باشا بأذى

آلمنى ذلك ، لا لأننى أشفت على هذا المعلم من الأستاذ الحضري ، فأنا أعلم أن الأستاذ أشد رعاية للحرية من أن يؤذى الناس فى سبيلها ، بل لأن عاطفة كهذه قد تعبت بطائفة من الناس منهم الأساتذة والمعلمون ، وإذا كان المعلم يخشى النقد الأدبى على راتبه ومنصبه فكيف لا يخشى سلطان السياسة وأهواءها على هذا الراتب والمنصب ! وكيف لا يقف من الوزارات السياسية هذه المواقف المريبة التى ينكرها عليه الناس ! لا خير فى النقد إذا لم يكن حرراً . ولكن الحرية شىء ، وتجاوز الحدود شىء آخر . وربما كان من الحق لى أن أنكر على هذا المعلم الأديب شيئاً من تجاوز القصد فى نقده للأستاذ . فقد كان يستطيع أن يقول كل ما يريد أن يقول دون أن يضطر إلى هذه الألفاظ التى تؤذى فى غير نفع . وأنا معتذر إليه من هذا الإنكار ؛ فقد اضطرت إليه اضطراراً ، وكنت أحب ألا أقدم له إلا شكراً خالصاً لحسن ظنه بى ، ولكنى لا أريد أن أؤثر نفسى على الحق . كما أنى معتذر إليه من اضطرارى إلى ألا أنشر فى صحيفة الأدب هذا الفصل الثانى الذى بعث به إلى « السياسة » ناقداً لكتاب الأستاذ الحضري أيضاً . فأنا لم أفكر ولم تفكر « السياسة » فى نقد أخلاق الأستاذ الحضري ولا فى استنباط هذه الأخلاق من مذهب الأغاني . وما كان لى ولا للسياسة أن تفكر فى شىء كهذا ، فليس لنا بأخلاق الأستاذ الحضري شأن . وإنما سبيلنا مع الأحياء أن نعرض لكتبهم وآثارهم العلمية ليس غير ، فأما استنباط الأخلاق

والحصول فسبيلٌ نسلكتها مع القدماء والذين أصبحت حياتهم ملكاً للتاريخ .
وإني أعذر المعلم الأديب في تجاوزه حدود الحرية في النقد الأدبي ؛ فقد قلت
إن هذه الحرية أثار الحياة الاجتماعية والسياسية ، وإذ كنا حديثي عهد
بها في مصر فليس غريباً أن نتجاوز حدودها وألا نفرق بينها وبين الإسراف .

أما بعد ، فهل أنا في حاجة إلى أن أردّ على الكاتب الأديب « أحمد الألفي »
فما يطلب إلى من الإعراض عن تلخيص القصص ؟ وهل أنا في حاجة إلى أن
أثبت للكاتب الأديب أن ليس على الأخلاق منها خطر ؟ وهل أنا في حاجة إلى
أن أثبت له أن الفرق عظيم جداً بين تلخيص القصص وتهذيب الأغاني ؟ وهل أنا
في حاجة إلى أن أثبت بأن كتاب صبح الأعشى كتاب قيم من الوجهة الأدبية
والتاريخية لم يقدره الناس قدره بعد ، وربما لم يكن في الآداب العربية ما يعدها ؟
وهل أنا في حاجة إلى أن أثبت بأن صاحب صبح الأعشى قد أختصر كتابه وخلصه
في كتاب مطبوع يستطيع أن يرجع إليه إذا كان لا يريد أن يتورط في قراءة
صبح الأعشى .

أما الأستاذ الكاتب الذي نشرت « السياسة » فصله صباح اليوم فأنا أشكره
أدبه وظرفه ، واكنى أعذر إليه إذا لم أصدقه فيما يقول من أنه ملك الأغاني منذ
أكثر من عشرين سنة دون أن ينتفع به حتى ظهر كتاب الأستاذ الحضري .
لا أصدقه لأن أكبر ظني أنه يسرف في الإساءة إلى نفسه دفاعاً عن الأستاذ
الحضري ، وقد لا يحتاج الأستاذ الحضري إلى كل هذا الدفاع . ثم ألفت الأستاذ
إلى أن الفرق عظيم جداً بين ما صنع أبو تمام والبحري وغيرهما من أصحاب المختارات
الشعرية وما صنع الأستاذ الحضري بكتاب الأغاني . وما أظنه في حاجة إلى معرفة أن
من حقنا أن نتخير من شعر الشعراء ما نحفظه وما نرويه دون أن يكون لنا الحق
في أن نغير كتب القدماء ونذهب بها غير مذهبهم . وخلاصة القول أني أريد أن
ألفت القراء إلى شيئين : الأول أني ما زلت محتفظاً برأيي كاملاً في عمل الأستاذ
الحضري ، فهو سيء بالقياس إلى العلماء ، نافع بالقياس إلى عامة
الناس ، وأنفع منه أن تؤلف طولاء الناس كتب مستقلة لا تمسخ كتب القدماء
ولا تشوهها . الثاني أني سعيد كل السعادة بأن أبيع صحيفة الأدب للنقاد جميعاً ،
على ألا يخلو نقدهم من خصال ثلاث : الحرية ، والأدب ، والنفع .

شعراؤنا ومترجم أرسطاطاليس

ربما كان أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد أوفر كتّاب هذا العصر ومؤلفيه حظاً من السعادة وأحقهم بالغبطة والرضا . فما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً ظفر بمثل ما ظفر به الأستاذ من هذا الثناء المتصل والإعجاب الذى لا حد له . وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر أكره خصومه وأصدقاءه على أن يحمّدوا له عمله فى غير بخل ولا تقتير . وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر أجرى أقلام الكتاب بحمده وتقريظه وأطلق السنة الشعراء بمدحه وإطرائه كما فعل الأستاذ لطفى السيد حين أذاع فى الناس ترجمته لأخلاق أرسطاطاليس . فقد أجمع الكتاب على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم وعلى افتراقهم فى حب الأستاذ والانصراف عنه على حمده وتقريظه وشكر ما قدّم إلى اللغة العربية من خير بترجمة هذا الكتاب . وليس يعنينا ما كتب الكتاب من رسائل وفصول نشرتها الصحف وقرأها الناس ، وإنما الذى يعنينا هو هذا الشعر الذى أطلق به الأستاذ السنة الشعراء . وأى الشعراء ! شوقى ، وحافظ ، ونسيم . فإذا كان من الحق علينا أن نقدم إلى الأستاذ تهنئتنا الخالصة بهذا الثناء الطيب الذى هو أهل له ونحير منه ، وإذا كان من حقنا أن نثبت فى هذا الفصل أننا لم نكن مخبطين فيما قدرناه يوم كتبنا عن الأستاذ وعن ترجمته لأرسطاطاليس من أن ظهور هذا الكتاب حادث أدبى ليس كغيره من الحوادث - نقول إذا كان هذا كله من حقنا فقد يكون من حجتنا أيضاً أن نقف عند هذه القصائد الثلاث التى أنطق الشعراء بها كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس لتبين وجهاً من وجوه القوة الشعرية فى هذا العصر عندنا بعد أن بينا فى الفصول الماضية شيئاً من وجوه الحياة الأدبية فى هذا العصر . وأنا أعلم حق العلم أن من الإسراف أن نحكم على القوة الأدبية فى هذا العصر بكتاب « مهذب الأغاني » و « تهذيب الكامل » و « بلاغة العرب فى الأندلس » . وأعلم كذلك حق العلم أن من الإسراف والظلم أن نحكم على قوتنا الشعرية فى هذا العصر بهذه القصائد الثلاث التى أنشأها شوقى وحافظ ونسيم فى مدح الأستاذ لطفى السيد وترجمته لأخلاق أرسطاطاليس . على أن هذا إسراف وظلم ؛ فإن

لشوق وحافظ ونسيم وغيرهم من الشعراء قصائد أخرى قيمة ذهبوا فيها مذاهب مختلفة من الجحد والهزل ، فيها لذة للنفس ، ومتعة للقلب ، ورضا لمن يحب النقد . ولهذا أحب أن يلاحظ القارئ أنى لا أتخذ هذه القصائد عناوين لشعرائها ولا مقاييس لحظوظهم المختلفة من الإجادة والإساءة ، ومن السمو والإسفاف ، وإنما هي فرصة نتحدث إليك فيها عن هؤلاء الشعراء وعن بعض أبحاثهم في الشعر ومذاهبهم حين يعمدون إليه . وليس من شك في أنى لا أبخل بالثناء الطيب العذب على هؤلاء الشعراء جميعاً ؛ فهم حين أنشئوا قصائدهم هذه لم يستجيبوا إلا لعاطفة شريفة قيمة ، هي عاطفة الإنصاف وإكبار من يستحقون الإكبار ، والوفاء لمن هم أهل للوفاء . وليس هذا في نفسه بالشىء القليل ، ولا سيما بالقياس إلى الشعراء . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد على جلال خطره وعلو مكانته في أمته ليس بحيث يستطيع أن يبتز ثناء الشعراء أو يتملق آلهة الشعر ، وما كان ذلك من شأنه ولا من أخلاقه . فشعراؤنا إذا صادقون غير متكلفين ، مخلصون غير متصنعين فيما قدّموا إلى الأستاذ من مدح ، وفيما أهدوا إليه من ثناء . بل أنا لا أبخل على شعرائنا الثلاثة بشىء من الثناء غير قليل لما وفقوا له من الوجهة الفنية الخالصة ، فكلهم قد وفق لشيء من الإجادة لا بأس به ، كلهم قد جدّ في تخير الألفاظ وإتقان النظم وإحكامه ، وإقرار القافية في نصابها ، ففوق من هذا كله للشىء الكثير . وكلهم قد اجتهد في الغوص على المعاني — كما يقولون — وتلمس الغريب الطريف منها ؛ فلم يخطئه الحظ ولم تفته الطلبة ، وإنما عاد بشىء يمكن أن يحصى له بين الحسنات الشعرية .

على أنى أستأذن من شعرائنا وأستاذن من قبلهم أستاذنا لطفى السيد في أن أكون حرّاً حين أنقد هذه القصائد ؛ فقد تعودت هذه الحرية وحرصت عليها وأكبرتها عن أن أضحى بها في سبيل إنسان مهما تكن منزلته من الناس ومنى ولو كان هذا الإنسان هو الأستاذ لطفى السيد أو شوقى أو حافظ أو نسيم .

أريد أن أكون حرّاً ، وإذا فأنا معتذر إلى شعرائنا الثلاثة ، إذا لاحظت أنهم جميعاً قد عرضوا لذكر أرسطاطاليس ومدحه والإشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا يكادون يعرفون من أمره شيئاً . نعم ! ذكروا أرسطاطاليس ومدحوه وهم يجهلون آثاره . وأرجو أن يصدقونى — وهم يصدقونى — إذا قلت إنهم يجهلون حتى كتاب الأخلاق الذى أنشئوا من أجله هذه القصائد . وما أظن أن علمهم

بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، وما أحسب أنهم جميعاً قرءوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها حقاً . وهنا أتردد بين العتب والثناء ، فقد يكون مما يستحق الثناء والإعجاب أن يعتمد الشاعر إلى موضوع لا يدركه ولا يحيط بدقائقه وأسراره فيقول فيه شعراً لا يخلو من جودة ولا يبرأ من إحسان . ولكنى ثقيل ملحاح شديد الطمع مسرف في الحرص على المثل الأعلى ؛ فأنا لا أرضى لشعرائنا الجهل ، ولا أحب لهم أن يعرضوا للأشياء إلا إذا أتقنوها إتقاناً وظهروا على دقائقها وأسرارها حقاً . وقد أفهم أن يقول الشعراء ما لا يفعلون ، ولكنى لا أفهم أن يقول الشعراء ما لا يعلمون ، ولست أرى أنى أغلو في ذلك أو أسرف ، فما كان الجهل مصدراً للخير ولا وسيلة للإجادة ولا طريقاً إلى البراعة الفنية . وما رأيك في مثال يطمع في ابتكار الآيات الفنية وهو يجهل التشريح وما يتصل به من تكوين الجسم الإنساني وما إلى ذلك من هذه العلوم التي لا سبيل إلى الإجادة الفنية بدونها ! ! إن الإجادة الفنية إذا كانت أثراً من آثار الشعور ومظهراً من مظاهر الحس القوي والعواطف الدقيقة والخيال الحصب فهي لغو إذا لم تستمد غذاءها الحقيقي من العقل والعلم .

وربما كان شوقى أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب في هذا الموضوع . نعم ! هو أحقهم بالعتب ، فهو من بينهم قد تعلق بأرسطاطاليس وأراد أن يشيد بذكره ويرفع من شأنه ، وخص له من قصيدته أكثر مما خص للأستاذ المترجم . ولعلك تدهش ولعل شوقى نفسه يدهش إذا قلت لك وله إنه لم يمدح أرسطاطاليس وإنما مدح أفلاطون . نعم ! أراد عمراً وأراد الله خارجة . ولكنه أراد عمراً بالخير ، فانصرف هذا الخير عن عمرو إلى خارجة ؛ لأن الشاعر لم يحسن تلمس السبيل إلى عمرو . ولولا أن نفوس الفلاسفة والحكماء رضية بطبعها ، لكان من حق أرسطاطاليس أن يخاصم شوقياً وأن ينفَسَ على أفلاطون أستاذه هذا المدح الذي جاءه من حيث لا يحتسب . أراد شوقى أرسطاطاليس ، وأراد الله أفلاطون . ولست في حاجة إلى أن أطيل القول في أن شوقياً لم يمدح أرسطاطاليس ، فيكفى أن نقرأ قصيدة شوقى لنرى أنه يصف أرسطاطاليس بأنه سبق إلى التوحيد فأعلنه قبل البنيّة والحطيم ، وقبل المسيح أيضاً ، وبأنه كان قدسى الروح ، وبأن « لطفى » صدى صوته الرخيم ، وبأن رسائله كالسلافة إذا جرت في جسم النديم . وإذا كان بين فلاسفة اليونان من سبق إلى إعلان التوحيد فليس هو أرسطاطاليس ، وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سقراط أيضاً ؛ فقد سبق فلاسفة اليونان إلى إعلان التوحيد في

القرن الخامس قبل المسيح . ولكن الشيء الذي يستحق العناية هو أن هناك فيلسوفاً يونانياً يُقَرَّنُ إلى المسيح وتعتبر فلسفته أصلاً من أصول الديانة المسيحية ومصدراً من مصادرها . وليس هذا الفيلسوف أرسطاطاليس ، وإنما هو أفلاطون ، أفلاطون صاحب المثل ، أفلاطون الذي أمعن في طلب المثل الأعلى ، والذي استطاع أن يرقى بالنفس الإنسانية والفكرة الإلهية إلى حيث لم يسبقه ولم يدركه فيلسوف بعده ، أما أرسطاطاليس فقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد في السماء . ولهذا لم يصعد أرسطاطاليس في السماء . ولعله لم يرفع بصره إلى السماء ، وإنما خفضه إلى الأرض ؛ ذلك لأنه لم يكن يستوحى الحق من السماء ، وإنما كان يستنبطه من الأرض استنباطاً . وإذا كان هناك فيلسوف تلامذ فلسفته الشعر حقاً ، أو قل إذا كان هناك فيلسوف هو الشاعر حقاً ، فهذا هو أفلاطون لا أرسطاطاليس . ولو عرف شوقي إله أرسطاطاليس ، هذا الإله العاجز الجاهل المفتون بنفسه المنصرف إلى جماله عن كل شيء ، الذي لا يعلم إلا نفسه ، ولا يفكر إلا في نفسه ، ولا يُعجبُ إلا بنفسه – أقول لو عرف شوقي إله أرسطاطاليس هذا لرثى لهذا الإله ، ولرثى لأرسطاطاليس نفسه ، ولما استطاع أن يقول :

من كان في هدى المسيح وكان في رشد الكلیم
وغدا وراح موحّداً قبل البنيّة والحطيم

كلا ! لم يكن أرسطاطاليس في هدى المسيح ولا في رشد الكلیم ، ولم يخطر التوحيد كما نفهمه لأرسطاطاليس ، ولعله لم يخطر لغيره من فلاسفة اليونان القدماء . ولكن الشيء المؤلم حقاً هو أن يقول شوقي عن أرسطاطاليس :

ورسائل مثل السُّلا ف إذا تمشت في النديم
قدسية النفحات تُس كمر بالمذاق وبالشميم
يا لطف أنت هو الصدى من ذلك الصوت الرخيم

أى الرسائل يريد !! ومن الذي يستطيع أن يزعم أن آثار أرسطاطاليس تشبه السلافة من قرب أو من بعد ! ومن الذي يستطيع أن يزعم أن في رسائل أرسطاطاليس شيئاً قليلاً أو كثيراً من هذه النفحات القدسية ؛ ومن الذي يستطيع أن يزعم أن صوت أرسطاطاليس كان رخياً !!

أفهم جداً ألا يتعمق الشعراء في فهم المذاهب الفلسفية – وإنما أريد شعراءنا

خاصة - وأعذر شوقي وغيره إذا خيّل إليهم أن توحيد أرسطاطاليس يشبه توحيد المسيح أو توحيد المسلمين ، فهو توحيد على كل حال . وقد لا يصح أن نلج على شعرائنا في أن يدرسوا ما بعد الطبيعة ويتقنوا مذاهب الفلاسفة فيه ، كما كان يفعل أبو نواس ، ولكن الذي لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أعذره هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان إلى هذا الحد ، فيخيّل إليهم أن أرسطاطاليس كان حلو النثر رخم الصوت قدسيّ النفحات ، تشبّه آثاره بالسلافة . صفّ بهذه الأوصاف كلها أفلاطون فلن تبلغ من وصفه ما تريد ، ولكن لا تصف بها أرسطاطاليس . فكم كدّ نثر أرسطاطاليس عقولا وصدع رؤوساً . والأستاذ لطفى السيد مع أنه لم يترجم عن اليونانية شهيد بأن نثر أرسطاطاليس لا يشبه الخمر ولا يشبه العسل ولا يشبه الماء ، وليس فيه من النفحات القدسية قليل ولا كثير ، ولكنه نثر عالم قد أتقن لغته وعرف كيف يستغلها ويستثمرها ، ويلائم بينها وبين حاجات العلم والفلسفة .

أنت لا تحمد أرسطاطاليس ولا تحسن إليه بهذه الصفات ؛ فقد لا يكون من الخير للعالم أن تكون لغته ساحرة فتانة ؛ لأن العلم لا يحتمل سحر اللغة وفتنتها ، وإنما هو محتاج إلى الدقة وإلى التشدد في الدقة ، وإلى أن يسمى الأشياء بأسمائها - ولكنني قد قلت لك إن شوقي أراد أرسطاطاليس ، وأراد الله أفلاطون .

على أني أنتقل من هذا العيب إلى عيب آخر يشبهه ، وقد اشترك فيه شوقي ، وحافظ ، ونسيم ، وغيرهم من الكتاب أيضاً ، وهو أنهم لم يقرءوا كتاب الأخلاق ، ولم يقدروه قدره ، ولم يفتنوا للغرض من تأليفه ومن ترجمته ؛ فهم قد فتنوا بلفظ الأخلاق ، وخيّل إليهم أن أرسطاطاليس قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألفه ، وأن لطفى قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ترجمه . ولعل الرجلين قد فكرا في شيء من هذا ، ولكنني أستطيع أن أؤكد للشعراء والكتاب أن الغرض الأول من تأليف الكتاب وترجمته علمي لا عملي ، وأن المؤلف والمترجم أرادا خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا في الوعظ والإرشاد . وما أظن أن كتاب أرسطاطاليس في الأخلاق يصلح مراماً للوعاظ والمرشدين ، وإنما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور حين يدرس علم الأخلاق لطلابه في الجامعة وفي مدرسة الحقوق .

وهل أستطيع أن ألفت شوقي إلى أنه قد مدح أفلاطون ولم يمدح أرسطاطاليس

حين قال :

يبنى الشرائع للعصور بناء جبار رحيم

فقد يكون أرسطاطاليس درس السياسة ، ووضع في هذا الدرس أصولاً قيمة ، ولكنه لم يبن الشرائع . وإذا كان هناك فيلسوف يوناني شرع للناس فهو أفلاطون صاحب القوانين .

كل هذا يدلنا على ما قدمت من أن شوقي لم يدرس أرسطاطاليس قبل أن يمدحه . فلندع هذا العيب الأساسي إلى ملاحظات أخرى فنية .

انظر إلى هذه الأبيات :

وسريت من شعب الألب ب به إلى وادي الصريم
فتجارت اللغتان لا غايات في الحب الصميم
لغة من الإغريق قية مة وأخرى من تميم

ألاحظ قبل كل شيء أني لو كنت مكان شوقي لما ذكرت « الألب » بعد أن زعمت أن أرسطاطاليس كان على نهج المسيح وفي رشد الكليم . فالألب مستقر الوثنية اليونانية ، وعلى قمته كان يقوم قصر كبير الآلهة « زوس » . وألاحظ بعد هذا أن القافية قد عبثت بهذه الأبيات عبثاً غير قليل . فما وادي الصريم هذا ؟ وما صلة لطفى السيد بوادي الصريم وهو إنما نقل أرسطاطاليس إلى وادي النيل ! وما شأن تميم ؟ وهل من الحق أن اللغة التي ترحم الكتاب إليها هي لغة تميم ؟ وهل نعرف لغة تميم حقاً ؟ ! ولم لا تكون لغة قريش فهي لغة القرآن ، وهي اللهجة العربية الوحيدة التي نعرفها حقاً ! ! ولكن تميماً والصريم ينتهيان بالميم . وكم كنت أحب ألا يخضع شوقي للقافية هذا الخضوع .

وبعد فإن من الجحود والظلم ألا أثنى على هذا البيت القيم الملائم للحق ملائمة تامة ، وهو قوله :

لمسوا الحقيقة في الفنون وأدركوها في العلوم

هذا البيت آية في الصدق ؛ فقد لمس اليونان الحقيقة في الفن وأدركوها دون أن يلمسوها في العلم . أكرر أن هذا البيت آية في الصدق ، ومثل جيد للإيجاز البديع . وقد أسرف في الظلم أيضاً إذا لم أثن على هذا الجمال اللفظي في قوله :

العاشقين العلم لا يألونه طلب الغريم
المعرضين عن الصفا ثر والسعاية والتميم

وإن كان لفظ « الصغائر » لا يعجبني . وقد يكون من الإنصاف أيضاً أن أثنى على هذه الأبيات التي تمثل إنصاف شوقي ووفاءه وكرم خلقه :

| | |
|---------------------|------------------------|
| قسماً بمذهبك الجميل | ووجه صحبتك القسيم |
| وقديم عهد لا ضئيل | ل في الوداد ولا ذميم |
| ما كنت يوماً للكنة | تة بالعدو ولا الخصيم |
| لماً تلاحى الناس لم | تنزل إلى المرعى الوخيم |
| كم شاتم قابلته | بترفع الأسد الشقيم |
| وشغلت نفسك بالخصي | ب من الجهود عن العقيم |
| فخدمت بالعلم البلا | د ولم تنزل أوفى خديم |

* * *

ولندع قصيدة شوقي إلى قصيدة حافظ . وليكونن موقفنا مع حافظ أشد حرجاً ومشقة من موقفنا مع شوقي . ذلك لأن حافظاً يزعم شيئاً ونحن نزعم شيئاً آخر . قلنا إن شعراءنا الثلاثة لم يقرءوا كتاب أرسطاطاليس ، وما نظن أنهم تجاوزوا مقدمة المترجم العربي . ولكن حافظاً يزعم لنا أنه قرأ الكتاب فيقول :

| | |
|------------------|----------------------|
| إني قرأت كتابه | بين الخشوع والاعتبار |
| فإذا المؤلف مائل | جنب المترجم في إطار |
| وعليهما نور يفيض | من المهابة والوقار |

كلا يا حافظ ! لم تقرأ الكتاب ولم تتجاوز مقدمة الأستاذ لطفي السيد ، ولم تر المؤلف والمترجم مائلين في إطار ، وإنما تخيلتهما كذلك وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذي تذكره ، وأنا زعم بأنك لن تجادل ولن تمارى فيما أقول .

فلو أنك قرأت الكتاب حقاً ورأيت الفيلسوفين في هذا الإطار يفيض عليهما هذا النور لقلت فيهما كلاماً غير هذا . وهل تريد أن تقنعني بأن شاعراً مثلك مجيداً غنياً خصب الخيال يستطيع أن يقرأ كتاباً ككتاب أرسطاطاليس ويتفهمه دون أن يوحى إليه الشعر آية من آيات البيان في وصف هذا العقل الذي لم تعرف الإنسانية مثله بعد ؟ ! كلا ! أنت كشوقي لا تعرف أرسطاطاليس ولم تقرأ ترجمة الأستاذ لطفي ، ولكنك أحق بالرضا ، وأقل تعرضاً للعتب من شوقي . ذلك لأنك ذهبت مذهب أرسطاطاليس فلم تلتمس ما ليس في يدك ، ولم تتجاوز الأفق الذي أنت

فيه ، مدحت لظني خاصة ، وتأدبت مع أرسطاطاليس لا أكثر ولا أقل . ومن هنا أحسنت في مدح لظني إحساناً لا بأس به وإن لم يقصر عن مثله شوقى . ولكن حدثني عن هذا البيت :

بكتاب أرسطاطاليس تا ج نواذر الفلك المدار

ألم يثقل عليك ! أتحب هذه الإضافات ؟ ! وما معنى « نواذر الفلك المدار »؟ وما معنى تاج هذه النواذر ؟ وما معنى أن يكون كتاب أرسطاطاليس تاجاً لهذه النواذر ؟ أعترف أنى لا أفهم شيئاً إلا أنك سلكت هذه الطريقة الطويلة لتصل إلى لفظ « المدار » فتظفر بقافية وتحشر في القصيدة بيتاً كنت تستطيع أن تزهد فيه . وكذلك استعبدتك القافية في قولك :

ترن الكلام كأنه ماس بميزان التجار

فما ميزان التجار ؟ وما الحاجة إليه إلا أنه قافية ؟ !

ولكنى أثنى في غير تحفظ على هذه الأبيات الجيدة حقاً ، الصداقة حقاً :

| | |
|----------------------|-----------------------|
| قالوا لقد هجر السيرة | اسة وانزوى في عقردار |
| ترك المجال لغيره | ورأى النجاة مع الفرار |
| لا تظلموا رب النهى | وحذآر من خطل حذار |
| هجر السياسة للسيا | سة لا لنوم أو قرار |
| لو أنهم علموا الذى | يبنى لهم خلف الستار |

وإن كنت أبجد شيئاً من الابتدال في قوله « ترك المجال لغيره » ، وأشعر بأن لفظ « مع » شديد القلق في هذا الشطر : « ورأى النجاة مع الفرار » . وهلا قال : « ورأى الركون إلى الفرار » .

وهل يأذن لى حافظ في ألا أحب « لقم الطريق » في قوله :

واجعل على لقم الطريق ق صوى تلوح لكل سار

وقد يكون اللفظ صحيحاً ، ولكن ليس كل صحيح جيداً ملائماً للغة الشعر . وأكبر ظنى أننا مدينون بهذا البيت كله للفظ « سار » فهو قافية ؛ والسرى لا يستتبع الصوى والأعلام . والصوى والأعلام تستتبع الطريق، ولكنها لا تستتبع « لقم الطريق » .

وهل يغضب حافظ إذا لم أرتح إلى قوله :

عجّل بها قبل « الفسا د » وقبل عادية البوار

وأنا أعلم أنه يطلب إلى الأستاذ لطفي السيد أن ينشر كتاب « السياسة » قبل كتاب « الكون والفساد » ولكن ألا يشاركني حافظ في أن ضرورات الشعر قد تكون منكراً أحياناً ، وفي أن التعبير بالفساد عن « كتاب الكون والفساد » ضرب من هذه الضرورات المنكرة ! . ولكن أشد من هذه الضرورة نكراً « عادية البوار » التي جاءت لا أدري لماذا ! أستغفر الله ! جاءت للقافية ، فأخرها راء ، وويل لشعرائنا من القافية !

وسواء أَرْضَى حافظ أم غضب فسأقول ما في نفسي ورزقي على الله ، كما يقولون . ظن حافظ أن كتاب « السياسة » لأرسطاطاليس قد يعيننا على معالجة السياسة الإنجليزية وحل المسألة المصرية ، ولهذا آثره على كتاب « الكون والفساد » وطلب إلى الأستاذ لطفي أن يقدمه وأن يتعجل في نشره ولم لا ! ألسنا متعجلين في حل المسألة المصرية تتحرق أكبادنا ظمأً إلى الاستقلال التام أو الموت الزؤام ! ولكن كتاب « السياسة » لا يقدم ولا يؤخر في حل المسألة المصرية ولا في فهم السياسة الإنجليزية ، ولن ينتفع به الوفد الرسمي الذي سيعالج « شامبرلين » أو « كرزن » أو « ماكدونالد » ، كما أن الشيخ الحرّبي لن ينتفع بكتاب الأخلاق حين يريد أن يعظ المجرمين . ولنذع قصيدة حافظ إلى قصيدة نسيم .

* * *

ولكني متهم حين أعرض لنسيم ، فقد تفضل بالثناء على ، وأشار إلى أن لي نثراً يعجبه . على أني سأكون حرّاً ، وسأغضب نسيماً كما أغضبت صاحبيه ، فهو مثلهما ينتظر من كتاب الأخلاق ما ينتظران وما لم ينتظر أرسطاطاليس ولا لطفي . وكما أن شوقي قد أخطأ حين قارن بين أرسطاطاليس والمسيح ، فقد أخطأ نسيم حين ذكر « هوميروس » على أنه من شعراء المدح ، وحين تمنى أن يوفق لمدح لطفي شاعر كهوميروس . فما كان هوميروس مادحاً ، ولا هو من أصحاب المديح ، وإنما هوميروس وأصحابه أهل قصص وإشادة بذكر الأبطال الذين انقضت عصورهم . فأما صاحب المدح من شعراء اليونان فهو « بسندار » وتلاميذه ، وشعراء الإسكندرية خاصة « ككاليماك » و « تيوكريت » وغيرهما .

وقد لا تخلو قصيدة نسيم من ملاحظات لفظية وتكلف في شأن القافية ،
ولكنني أعترف - لا لأن نسيماً ذكرني - بأن قصيدة نسيم أقل تكلفاً من قصيدتي
صاحبيه ، بل أعترف بشيء آخر أجل من هذا خطراً ، أعترف بأن في قصيدة
نسيم شيئاً من الخفة لم يوفق له شوقي ولا حافظ . وانظر إلى مطلع قصيدته :

شعرٌ يُزَفُّ بلا نسيب وبلا شكاة من حبيب
ما عيبٌ مرقصة خلّت من ذكر غانية لَعُوب

في هذا الكلام - على أنه عادي - شيء من الظرف والعدوبة . وفي قصيدة
نسيم شيء آخر وهو أن شخصيته ظاهرة مؤلمة مؤثرة ؛ فهو لم ينس ابنه ، ابنه الذي
فقدته ، ولم يذكره وهو شاعر أن يتحدث بحزنه وبثه إلى ممدوحه وهو فيلسوف .
وأحسب أن الأستاذ لطفى تأثر بهذه الأبيات من قصيدة نسيم أكثر مما تأثر بمدح
نسيم وصاحبيه ، فأنا أعرفه حساساً رقيق النفس .

وفي قصيدة نسيم هذه الأبيات التي تقدمه على صاحبيه لأن فيها فكرة طريفة
جريئة . أليس يتمنى على الملك فؤاد أن يكفل تربية ولي العهد إلى لطفى مترجم
أرسطاطاليس ، كما وكل فيليب تربية الإسكندر إلى أرسطاطاليس ! !

ليت المليك وقد رأى ما فيك من خلق رحيب
يُدلى إليك بناشئ في حجر سُدته ربيب
تسقيه من نهى العلو م ووردها غير المشوب
وتُريه في ريعانه وضح المسالك والدروب
فهناك الفاروق يصب ح كابن فيلبس المهيب
يمشى بنورك في الصبا ويشيد باسمك في المشيب

أنا أقدم في هذه المرة نسيماً على صاحبيه .

« مختارات سلامة موسى »

للأستاذ سلامة موسى

« مطالعات في الأدب والحياة »

للأستاذ عباس محمود العقاد

أريد أن أدع هذا العصر الذي نعيش فيه ، لأني أحسن شيئاً من الضيق في البحث عنه ودرس كتابه وشعرائه . أحسن شيئاً من الضيق لأني أجد فيه نقصاً شديداً ، ولأني أشعر بأن حريتنا محدودة جداً إذا أردنا أن نعرض للمعاصرين بالنقد والتقريظ . فخير لنا أن ندع هذا العصر الذي يستمتع أهله بالحرية في حياتهم اليومية ، ولكنهم يكرهون هذه الحرية في حياتهم العقلية ، إلى عصور أخرى لم يستمتع أهلها بالحرية ، ولكن مضي الزمن قد أتاح لنا أن نتناولها بالدرس والنقد أحراراً لا يحد حريتنا إلا العلم وما يقتضيه من إخلاص وإنصاف .

أريد أن أدع هذا العصر ، ولكن شيئاً يمسكني ويضطرنني إلى أن أبقى فيه يوماً أو يومين ، وإلى أن أكتب فيه فصلاً أو فصلين ، وأحس في نفسي أني أسىء إلى هذا العصر وإلى حق الحرية العقلية علينا إذا تركته إلى العصور الأخرى دون أن أقول فيه ما أريد أن أقول ، ودون أن أعلن فيه آراء أشعر بها وأرى أن من الحق على إعلانها . فلو أن الناس جميعاً صنعوا مثل ما أصنع وأبوا أن يتناولوا العصر الذي يعيشون فيه بالنقد ، لكانت النتيجة منكراً ، ولتعرضت الحرية العقلية لخطر شديد . وقد يكون من حق الناس أن يحرصوا على الحرية في حياتهم اليومية العادية ، ولكن من الحق عليهم أن يشتد حرصهم على الحرية في حياتهم العقلية . فلأعلن رأيي إذاً ولأكن حرراً في إعلان هذا الرأي ، ولأبقى في هذا العصر يوماً أو يومين ، ولأكتب فيه فصلاً أو فصلين ، ولأجتهد ما استطعت في أن أتبين ما لهذا العصر الذي نعيش فيه من قيمة أدبية قليلة أو كثيرة ، وليكن الناس أحراراً في أن يحمّدوا ذلك مني أو يذموه ، وفي أن يعرفوا ذلك أو ينكروه ، فأنا أكتب للناس من غير شك ، ولكني أكتب لنفسي قبل أن أكتب للناس .

أعترف بأنني قضيت ساعات لذيذة جداً مع الأستاذين سلامة موسى وعباس محمود العقاد ، وأنا لا أعرفهما ولم أتحدث إليهما قط فيما أذكر ، ولكنني مع ذلك

أحمد هذه الساعات التي قضيتها معهما ، وأشكر لها أجمل الشكر ، وأقدم لها عليها أحسن الثناء . قضيت معهما ساعات قصاراً لم تتح لي أن أقرأ كتابيهما القيمين اللذين سأحتفظ بهما أمامي حتى أفرغ من قراءتهما متى أذن العمل وسمحت بذلك الظروف ، ولكني قرأت في كتابيهما فصولاً ، وأنا سعيد مغتبط بأن أعلن أني لم آسف على الوقت الذي أنفقته في قراءة هذه الفصول ، وإنما حمدت إنفاق هذا الوقت الذي أنفقته وأنا أتمنى أن يتيح لي العمل وظروف الحياة وقتاً آخر أنفقه في إتمام الكتابين ، بل في استعادة فصول منهما .

لست أدري في أي كتاب فرنسي قرأت أن موسيقياً استمع لموسيقى آخر وهو يُوقع على البيانو ، استمع له ساعة أو ساعتين ثم قال له : حسبك ، فقد عرفت الآن صوت نفسك . يريد أنه عرف موسيقاه وأسرارها وخواصها وما بينها وبين نفسه من صلة .

لست أدري أين قرأت هذا الكلام ، وأحسبني قرأته في كتاب من كتب الأديب الفرنسي المعروف « رومان رولان » . وسواء أصدقتني الذاكرة أم كذبتني فأنا لم اخترع هذه القصة اختراعاً ، وإنما قرأتها في كتاب ، وأنا أستعيدها الآن وقد قرأت فصولاً من كتاب الأستاذ سلامة موسى وفصولاً أخرى من كتاب الأستاذ عباس محمود العقاد ، ولم أتم قراءة الكتابين ، لأقول لها : حسبكما ، فقد عرفت صوت نفسيكما وأنا بهذه المعرفة مغتبط سعيد .

وأنا أعلم حق العلم أن الناس جميعاً سيقبلون مني ما أقول في الأستاذ سلامة موسى مهما يكن ؛ لأن الأستاذ سلامة موسى ليس من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ؛ فقد يكون سعيدياً ، وقد يكون حرّاً دستورياً ، وقد يكون وطنياً ، بل قد يكون اتحاديّاً ، ولكنه على كل حال لا يعلن رأيه السياسي أو لا يتكلف إعلانه ولا يتخذه لنفسه لوناً . وإذا فأنا حرٌّ في أن أحمد كتابه أو أن أذمه ، وأنا حرٌّ في أن أتناوله بالنقد أو التقريظ ، لأنه ليس من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ؛ فالناس ينظرون إليه كما ينظرون إلى كاتب مفكر ليس غير .

أما الأستاذ عباس محمود العقاد فله شأن آخر ، لنقده أو تقريظه شأن يخالف نقد الأستاذ سلامة موسى أو تقريظه . ذلك لأن الأستاذ عباس محمود العقاد من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ، وأي لون سياسي ! وأي ظهور ! هو سعدى مغرق في السعدية ، وهو كاتب من كتاب « البلاغ » وإذا فعاداتنا

وآدابنا السياسية تقتضى أن نسلك معه طريقاً غير الطرق التي نسلكها مع المحايدين أو مع الأنصار السياسيين . فإذا تجاوزنا هذه الطريقة الخاصة التي تقتضيها الخصومة السياسية الحزبية فلن نعدم من خصومنا السياسيين من يتخذ هذا حجة علينا ، ولن نعدم من أنصارنا السياسيين من يخالفنا في الرأي أو من يغاضبنا مغاضبة تختلف شدة وضعفاً باختلاف مزاجه وطبيعته وقوة إيمانه بمذهبه السياسي . ومع ذلك فقد أخذت نفسى بأن أكون حرّاً في النقد ، وأعطيت على نفسى موثقاً من الله لأكون حرّاً مطلق الحرية ، ولأنسين في هذا النقد صلوات المودة والقربى وعواطف الرضا والسخط . وإذا كنت قد أخذت نفسى بتلك الخصلة وأعطيت على نفسى هذا الموثق وتناولت الأصدقاء والزملاء والأساتذة بالنقد والتقريظ ، لم أصطنع في هذا كله إلا الإنصاف والحق ، فقد يكون لى أن أتجاوز الخصومات السياسية ، وأن أجعل خلاف الأحزاب دبر أذنى وتحت قدمى ، لأقول كلمة حق في الأدب ليس بينها وبين السياسة والأحزاب صلة .

فليطمئن خصومنا السياسيون ، وليطمئن أنصارنا السياسيون أيضاً ، وليعترف أولئك وهؤلاء بأن للعلم والأدب حقهما في الوجود إلى جانب السياسة والأحزاب . وإذا كان من الحق أن ليس للعلم والأدب وطن ، فمن الحق أيضاً أن ليس للعلم والأدب حزب سياسى . وإذا كنت قد أخذت نفسى بأن أكون حرّاً في النقد فلا تكن حرّاً حقاً ، ولأنس في سبيل الأدب والعلم مذهبي السياسى كما نسبت عواطف المودة والقربى ومكانة الزميل والأستاذ . والناس أحرار في أن يذهبوا مذهبي أو ينصرفوا عنه ؛ فقد قلت وأعيد أنى أكتب لنفسى قبل أن أكتب للناس .

ليطمئن أولئك وهؤلاء مرة أخرى ؛ فأنا أمقت المذهب السياسى للأستاذ عباس العقاد مقتاً شديداً وأزدرية ازدراء لا حد له ، ولا أقرأ للأستاذ العقاد فصلا من هذه الفصول السياسية التي يكتبها في « البلاغ » ولن أقرأ منها فصلا ، بل لم أقرأ من فصولها الأدبية فصلا في « البلاغ » ، ولولا أنها جمعت في كتاب وانفصلت عن هذا السخف السياسى المنكر الذى تنشره هذه الصحيفة السخيفة لما قرأتها ولا نظرت فيها ، ولكنى رأيت أمامى كتاباً في الأدب ؛ فنظرت فيه وقرأت بعض فصوله ، ورأيت أنه خليق أن ينقد وأن تقال فيه كلمة حق وإنصاف . سأنقده وسأقول فيه كلمة الحق والإنصاف هذه ، وسيكون هذا النقد وهذا الإنصاف في جريدة السياسة التي تخاصم السعديين وتزدرى سياستهم ؛ لأن « للسياسة »

إلى جانب مذهبها السياسي الحزبي مذهباً آخر تقدسه وتجدد في تقديسه ، ولا يفهمه غيرها من الصحف ، وهو حرية الرأي مهما يكن صاحبه ومهما يكن لونه السياسي .

واكن أريد أن أبدأ بالأستاذ سلامة موسى ، لأني لن أتكلم عنه كثيراً كما أريد أن أتكلم عن الأستاذ محمود العقاد .

لن أتكلم عنه كثيراً لأنه ليس في حاجة إلى كلام كثير ؛ فهو ساذج سهل خفيف الروح محب إلى النفس ، شديد البغض للتكلف قليل الحظ منه أو ليس له منه حظ ما . وإذا فأت تستطيع أن تكتفي بأن تقول عنه إنه كاتب خصب مجيد . هو كاتب خصب قبل كل شيء ، ويكفي أن تقرأ هذا الكتاب الذي أذيع في الناس منذ حين أو أن تقرأ طائفة من فصوله لتعلم أني لم أكذبك ولم أسرف عليك ؛ فقد تناول موضوعات مختلفة شديدة الاختلاف ، وعرض لمسائل مفترقة عظيمة الافراق ، وأنت مع ذلك تجده يتنقل في هذه الموضوعات والمسائل في غير تكلف ولا مشقة كما يتنقل الرجل في بيته الذي ألفه وأطال الإقامة فيه من غرفة إلى غرفة ومن حجرة إلى حجرة دون أن يشعر بوحشة أو غربة . هو خصب بل شديد الخصب ؛ لأنه كثير القراءة ، وأحسبه مسرفاً فيها ؛ فهو يقرأ في الأدب العربي ، وهو يقرأ في الأدب الغربي ، وهو يقرأ ضرورياً من العلم مختلفة وألواناً من الفلسفة متباينة . وهو لا يقرأ لنفسه وحدها وإنما يقرأ لنفسه وللناس أيضاً ، ليس بخيلاً ولا ضئيلاً ، ليس أثيراً ولا مجدداً في حب نفسه ، لا يريد أن ينتفع وحده ، وإنما يريد أن ينتفع الناس معه . ولعله يكره أن ينتفع وحده دون أن ينتفع الناس معه .

قلت إنه يقرأ في الأدب العربي والغربي ، ويلم بضروب من العلم وألوان من الفلسفة . وقلت قبل هذا إنني لم أعرفه ولم أتحدث إليه . وإذا فلم أعرف عنه كثرة القراءة وتنوعها إلا لأني رأيت يتحدث في موضوعات كثيرة متنوعة ، ويتحدث فيها عن علم وبصيرة وعن دراية وفهم . وهو كثير القراءة متنوعها ، وهو كثير الاستفادة من هذه القراءة المتنوعة والانتفاع بها ؛ فقد منحته شيئاً من الذوق وحسن الفهم قلما يظفر به المصريون . تقرأه فكأنك تقرأ أحد كتاب الإنجليز الذين أحسنوا الدرس وثقفوا عقولهم تثقيفاً متقناً . هو مثقف حقاً ، ولكني أريد أن أكون حراً ، ولن يكره مني الأستاذ سلامة موسى أن أكون حراً معه ، فالمثقف حقاً

يجب الحرية ولا يكرهها . وأنا أشهد أنه مثقف حقاً ، وإذا فأنا أستبيح لنفسي أن أكون حرّاً في نقده .

يخيل لي أنه يسرف في القراءة ، ويخيل لي أن إسرافه في القراءة هذا يحمله على الإسراف في الكتابة أي يحمله على تناول موضوعات لم يتقنها ولم يقتلها ، لا أقول علماً ، وإنما أقول بحثاً وتفكيراً . وأحسبه لو فكر فيما يعلم واصطنع الأناة فيما يكتب ، لاستطاع أن يتجنب شيئاً من السخف يتورط في مثله كبار الكتاب حين يجتنبون الأناة والروية فيما يكتبون .

يقول الأستاذ سلامة موسى مثلاً : إن المصريين القدماء فكروا في الموت كثيراً وتحدثوا عن الموت كثيراً . وهذا حق لا شك فيه ، ولكن الذي لا أستطيع أن أفهمه ولن يستطيع الأستاذ أن يفهمه إذا خلا إلى نفسه هو قوله : إن تفكير المصريين في الموت كثيراً وذكرهم للموت كثيراً قد استتبعها هذه النتيجة الغريبة ، وهي أن الأمة المصرية ماتت موتاً لم تمته أمة أخرى ، ففقدت استقلالها ألى عام . هذا إسراف في القول ولعب بالألفاظ . فقد تكون الأمة المصرية نامت ولكنها لم تمت . وليست العاطفة الوطنية ولا تملق الجماهير هو الذي يحملني على أن أنكر أن الأمة المصرية قد ماتت في عصر من عصورها ؛ فأنا شديد المقاومة في العلم للعواطف الخاصة على اختلافها ، وأنا قليل الاكتراث لعواطف الجماهير وأهوائها ، ولكني مع ذلك أعتقد أن الأمة المصرية لم تمت قط وهي لم تفقد استقلالها ألى عام ، ولئن كانت قد فقدته حيناً أو أحياناً لأنها لم تنسه قط . ولو أن الأستاذ سلامة موسى فكر قليلاً لرأى ما أرى ولقال كما أقول . لم تمت الأمة المصرية ؛ وآية ذلك أنها لا تزال حية تشعر وتحس وتفكر وتناضل في سبيل الحياة . ولم تنس استقلالها يوماً منذ دالت دول الفراعنة ؛ وآية ذلك أن الأجانب الذين تسلطوا عليها قد اضطروا دائماً إلى إحدى اثنتين : إما أن يتجنسوا بجنسيتها المصرية ويندجوا فيها ، وإما أن يأخذوا مصر بشيء من العنف والقهر يشبه الأحكام العرفية ، كذلك اتخذ المقدونيون والمماليك والفاطميون الجنسية المصرية ، فأتيج لهم الحمد واستقرار الملك وأصبحت دولهم مصرية كدول الفراعنة ، وأبي الفرس والرومان والبيزنطيون الأولون أن يتجنسوا بالجنسية المصرية ، فلم يستقر لهم أمر في مصر إلا بالعنف والقهر وبالسطو والبأس . لم تمت الأمة المصرية ، ولم تنس استقلالها . ومتى ماتت هذه الأمة ؟

أكانت ميتة حين أساغت الفلسفة اليونانية وطبعتها بطابعها الخاص ؟

أكانت ميتة حين أساغت الديانة المسيحية وطبعتها بطابعها الخاص ؟

أكانت ميتة حين أساغت الإسلام وطبعته بطابعها الخاص ؟

أكانت ميتة حين آوت حضارة اليونان والعرب وآداب اليونان والعرب ؟
ومع هذا فهي قد فعلت هذا كله في العصر الذي يزعم الأستاذ سلامة موسى أنها كانت فيه ميتة قد فقدت الاستقلال . وهبها ماتت حقاً وفقدت استقلالها حقاً ، أفتظنها ماتت لأنها أكثر التفكير في الموت وأسرفت في ذكر الموت ، كما يقول الأستاذ سلامة موسى ؟ وكيف يستطيع رجل كالأستاذ قد ألم بضروب من العلم مختلفة وذاق ألواناً من الفلسفة متباينة أن يعتقد أنه يكفي أن تفكر في الموت ونذكره لنموت ! ولكن الأستاذ لا يعتقد هذا ولا يريد ، وإنما فتنته صورة لفظية حلوة ، وهي أن الأمة المصرية ماتت لأنها أسرفت في ذكر الموت . فتنته هذه الصورة اللفظية فصرفته عما كان فيه من جد . وقد أفهم أن يلهو الكاتب ويداعب الفن ، ولكنني أريد أن يكون الكاتب حريصاً ، لأنه وإن كان يكتب لنفسه فالناس يقرءون ما يكتب ، وهم لا يفهمونه كما يفهمه ، ولا يقدرونه كما يقدره ، وإذا فشىء من الاحتياط لا بأس به .

كان اليونان يتخذون لأنفسهم مثلاً قامت عليه فلسفة سقراط وأفلاطون وأخلاق أرسطاطاليس ، وهو : « لا تسرف » . وأحسبني محتاجاً إلى أن أذكر الأستاذ سلامة موسى بهذا المثل الحكيم ؛ فهو من أنصار الحديد ، وهو يعلم أني أرى رأيه وأشاركه فيه دون تحفظ ولا احتياط . ولكن نصره للجديد قد اضطره إلى شيء من الإسراف كنت أحب - وما زلت أحب والأستاذ مثلي يحب - ألا يتورط فيه الباحثون المنصفون وهو مسرف في ازدياء الأدب العربي القديم والغض منه . وقد أفهم ألا يكون هذا الأدب القديم كما هو ملائماً كله لذوقنا الحديث أو كافياً لحاجات أنفسنا ، ولكن القدماء لم يضعوا أديهم لنا وإنما وضعوه لأنفسهم . وليس من شك في أن هذا الأدب القديم كان يلائم أذواق القدماء وحاجات نفوسهم ، فإذا لم يلائم أذواقنا وأهواءنا فلنبتغ غيره لا أكثر ولا أقل . وهو مسرف أيضاً حين يقول : إن الأدباء المصريين لم يكن لهم شأن في حركة الاستقلال ؛ فهم لم يقودوا الأمة في هذه الحركة ، وإنما قادتهم الأمة ، بل قادهم الرعاع إلى الاستقلال . قد يكون هذا حقاً بالقياس إلى هؤلاء الشعراء الذين تبعوا الجمهور ولم يتبعهم .

ولكن الأستاذ نفسه قد كتب فصلا عن المجددين ذكر فيه الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد ونسى فيه مصطفى كامل ، فما رأيه فى هؤلاء ؟ ألم يكونوا من الأدباء ؟ أقادوا الأمة إلى الاستقلال أم قادتهم الأمة إلى الاستقلال ؟ يقول الأستاذ إن لطفى السيد قد أوجد فكرة الوطنية وجمع حولها المسلمين والأقباط . وهذا صحيح ، وصحيح أيضاً أن الأستاذ لطفى السيد قد أوجد فكرة الاستقلال التام قبل أن تعلن الحرب الكبرى وقبل أن ينشأ الوفد وقبل أن يؤم الثلاثة دار الحماية . وإذا فع احتفاظنا بالنسبة نستطيع أن نقول : إن مصر لم تخل من « روسو » و « منتسكيو » و « فولتير » . والأستاذ مسرف فى هذا الفصل الذى كتبه عن الوزير الفرنسى « مرسيل سانبا » . فلست أدرى إلى أى حد كان هذا الوزير من كبار الأدباء الذين يؤبه لهم فى الأدب ، ولكنى أعلم أنه كان من زعماء الاشتراكية ، وكان بحكم مذهبه السياسى يؤثر العلم على الأدب . وقد سمعته يخطب فلم يعجبني ، وهو لن يعجبك إذا قرأت ما نقل عنه الأستاذ سلامة موسى ، فهو يذم الفلسفة ويفرق فى ذمها ، ولكنه مع ذلك يفلسف حين يذكر أن لكل فرد نفسين : نفساً فردية وأخرى اجماعية ! كأن الإنسانية قد فرغت من إثبات وجود النفس الفردية لتشتى بالبحث عن هذه النفس الاجتماعية الجديدة . وهو يذم الأدب ويزدرية ، ولكنه يفرق فى الخيال حين يزعم أن الإنسانية بعد ثلاثة قرون ستستطيع أن تسبح فى الكون ، وأن تنتقل من كوكب إلى كوكب ، وأن تهاجر من الأرض إلى أى كوكب يروقها ؛ قد يكون هذا كله حقاً بعد قرون ، ولكنه الآن خيال ، وهو إلى الأدب أقرب منه إلى العلم .

كتاب الأستاذ سلامة موسى روضة قيمة نضرة ، لا تستطيع أن تلم بها دون أن تجد فيها فائدة ولذة .

* * *

أما الأستاذ عباس محمود العقاد فأريد أن أنقده ، ولكنى أعترف بأنى خائف متهيب ؛ لأنه مهيب مخوف . فلاكن شجاعاً ، ولأهجم على كتاب الأستاذ فى ثبات وأمن ، ولأعترف بأنى أحسست حين نظرت فى هذا الكتاب شيئين متناقضين أحسست سخطاً وأحسست رضاً ، وبعبارة واضحة أحسست غموضاً ومخفاً ، وأحسست وضوحاً وقيمة ، ولأفصل :

قرأت مقدمة الكتاب فسخطت وضجرت وضقت ذرعاً بالكاتب وكتابه ، وأكرهت نفسي على المضي في قراءته ، ذلك لأني لم أفهم من المقدمة شيئاً نعم ! لم أفهم منها شيئاً . و يقيني أن المتواضعين أمثالي لن يفهموا من هذه المقدمة شيئاً ، لا لأنها لا تدل على شيء ، بل لأنها أدق من أن تتناولها العقول المتواضعة . أنا أريد أن يضحك الأستاذ العقاد ، وأزعم أنه لم ولن يفهم من مقدمته شيئاً ، لا لأنها لا تدل على شيء بل لأنها أدق من أن يفهمها عقل الأستاذ العقاد نفسه . سألت نفسي حين كنت أسمع هذه المقدمة : هل درس المؤلف اللغة الألمانية ؟ وهل تعمق في الفلسفة الألمانية حتى طبعته بطابعها ووسمته بسمتها ؟ وأحب أن يضحك الأستاذ العقاد وأن يضحك القراء جميعاً مني لا من المؤلف ، وأحب أن يكون أول الضاحكين صديقي منصور فهمي . فأنا أعترف بأن الفلسفة الألمانية تمتاز عندي بالغموض والإبهام ، وأن الله لم يوفقني في يوم من الأيام إلى أن أفهمها أو أجد فيها لذة إلا حين كنت أقرأها في الكتب الفرنسية الملخصة . ومع ذلك فقد وجدت لذة عند أفلاطون وأرسطاطاليس والفارابي وابن سينا ، بل عند الدواني والتفتازاني ، وعند « ديكارت » و « كونت » و « إسبنسر » و « بركسون » ، وجدت اللذة العقلية عند هؤلاء جميعاً . ماذا أقول ! بل وجدت لها عند « جوت » و « سيلير وهين » ولكني لم أجد لها عند « أمانويل كانت » ولا عند « هيجل » . ولقد وضقت ذرعاً غير مرة بنقد العقل المحض ، ونقد العقل العملي ، وانصرفت غير مرة عن المؤلف إلى الشراح الفرنسيين لأعرف شيئاً عما أرادته فيلسوف ككنزبرج . إذاً فأنا أعترف بأن مقدمة الأستاذ العقاد قد ذكرتني بتلك الأيام السود التي قضيتها مع « كانت » و « هيجل » ، واهتمت فيها نفسي بالغباوة والجهل ، وقلت مدعناً لقضاء الله ضاحكاً من نفسي ومن الفلسفة ومن الفلاسفة : وفوق كل ذي علم عليم . وإذاً فقد وضقت ذرعاً بالعقاد وكتابه ، وبحث في غير نفع عن الجمال كما يريد العقاد في مقدمته ، وعن الحياة كما يريد العقاد في مقدمته ، فلم أجد شيئاً ، أو قل وجدت شيئاً أكرهه ، وهو أني جاهل غبي قاصر عن فهم العقاد ، فقلت : وفوق كل ذي علم عليم . وأخذت أفكر في الغموض وأسبابه ، وانتهيت في ذلك إلى نظريات قد يتيح الله لي من الوقت والفرص ما يمكنني من ذكرها وتفصيلها ، ولكني أكتفي الآن بالإشارة إلى أني قلت في نفسي : إن من الغموض ما يصدر عن جهل وغفلة ، كغموض قوم لا أريد أن أسميهم الآن لأني لا أريد أن أضيف

خصوصاً إلى خصوم ، وحسبي العقاد وأنصار العقاد . ومن الغموض ما يصدر عن إسراف في العلم والفلسفة وقصور اللغة والبيان ، ومثلت لذلك بالعقاد ، أقولها وأمرى إلى الله . ومن الغموض ما يصدر عن طول اللسان وقصر العقل ، ومثلت لذلك بأديب ثرثار في غير طائل ولكنه لا يخلو من أصل قيم ، ولا أريد أن أسميه لأن فله يومه ، وويل له مني وويل لي منه . ولأعد إلى العقاد . تركت هذه مقدمة الجبارة الطاغية ، ومضيت في الكتاب فإذا علمت حقاً ، وفهم حقاً ، وعقل المخلوق أن يلتفت الناس إليه ، وما أشك في أنهم قد فعلوا ؛ فقد وصل صوت الأستاذ إلى بغداد وكتب إليها منه كاتبون ، وهو مخلوق حقاً بهذه الشهرة .

أعترف بأن الأدب ثقيل أحياناً ! لأنه ينسبك الخصومة السياسية ويجب إليك خصمك السياسي كما يجب إلى أدب العقاد ، وبأن السياسة ثقيلة أحياناً لأنها تنسبك القرابة الأدبية وتبغض إليك الأدب كما تبغض سياسة العقاد أحياناً أدب العقاد . ولست أخدع نفسي ؛ فمن الأدباء الذين يخاصمونني في السياسة ويرون فيها رأياً غير رأبي من يقول في ما أقوله في العقاد . ولقد سمعت شباباً من السعديين يقولون في محكمة الجنايات وقد خلبتهم بلاغة المحامين الذين كانوا يدافعون عن « السياسة » : ما أكفأهم أولاد الكلب لو لم يكونوا عدلين ، وأنا أعتذر إلى أساتذتنا من رواية هذا الكلام المنكر ، ولكنه يؤرخ أخلاقنا وآدابنا في هذا العصر .

أعجبت إذاً بكتاب العقاد ولم أقرأه كله وإنما قرأت منه فصولاً . ومهما تكن الظروف فلا بد من أن أقرأ ما بقي منه ؛ أعجبت بفهمه للأدب كما ينبغي أن يفهم الآن ، واحتياظه من الإسراف الذي تورط فيه الأستاذ سلامة موسى أحياناً والدكتور أحمد ضيف دائماً . أعجبت بتوفيقه إلى التفرقة بين حاجات القدماء والمحدثين ، وأعجبت بدقته في فهم الهزل الأدبي والأدب الذي هو هزل كله . أعجبت بهذا كله إعجاباً لا حد له ولا تحفظ فيه ، لولا أن لغة الكاتب لا ترضيني من كل وجهة ، ففيها إهمال ، وهي لا تخلو من غموض ، مصدرها أن عقل الأستاذ أطول من لسانه . على أن شيئاً في الكتاب أعجبنى بنوع خاص وهو هذه الفصول التي كتبها عن أبي العلاء عامة وعن رسالة الغفران خاصة ، لم أكد أرى هذه الفصول حتى حرصت على قراءتها حرصاً شديداً ! لأنني كما تعلم شديد الصلة بأبي العلاء ،

وأحب أن أرى آراء الناس فيه وأن أتبين مقدار ما بين هذه الآراء وبين آرائى من قرب أو بعد .

أول هذه الفصول يتناول حزن أبي العلاء وتشاؤمه . وليس ينكر أحد أن أبا العلاء كان حزيناً غالباً في الحزن ، ومتشائماً مسرفاً في التشاؤم . والناس جميعاً أحرار في أن يحزنوا وأن يتشاءموا كأبي العلاء ، أو أن يبتهجوا وابتسموا كأصحاب اللذة ، أو أن يتوسطوا بين الأمرين . الناس أحرار ، وهم لم ينتظروا أن نقول لهم هذا ليكونوا أحراراً وليذهبوا في الحياة أحد هذه المذاهب الثلاثة . وإذا للعقاد أن يحزن كما يحزن أبو العلاء ، أو أن يبتهج كما يبتهج أبو نواس ، أو أن يتخذ بين الأمرين مكاناً وسطاً . فالأمر في هذا راجع إلى الطبيعة والمزاج قبل أن يرجع إلى العقل والتفكير . ولكن الذى أخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه في فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقاً في رسالة الغفران ، هذا نكر من القول لا أدرى كيف تورط فيه كاتب كالعقاد . نعم إن العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه ، فهو بعد أن أنكر الخيال على أبي العلاء عاد فأثبت له منه حظاً قليلاً ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئاً غيرى ، أما أنا فلن أنخدع له . فهو ينكر على أبي العلاء أن يكون شاعراً عظيم الحظ من الخيال في رسالة الغفران . « سنه سوده » كما يقول العامة . وهل يعلم العقاد أن « دانت » إنما صار شاعراً نابغة خالداً على العصور والأجيال واثقاً من إعجاب الناس جميعاً بشيء يشبه من كل وجه رسالة الغفران هذه ؟ أستغفر الله ! إن من الأوربيين الآن من يزعم أن شاعر فلورنسا قد تأثر بشاعر المعرة قليلاً أو كثيراً .

وما الخيال ؟ أما إذا كان الخيال ماكرة تمكن الكاتب أو الشاعر من أن يخترع شيئاً من لا شيء أو يؤلف شيئاً من أشياء لا ائتلاف بينها ، فلم يكن أبو العلاء على حظ من الخيال لأنه لم يخترع في رسالة الغفران شيئاً من لا شيء ولم يؤلف بين متناقضات ، ولكننا نعلم أن علماء النفس لا يسمون هذه الملكة خيالاً وإنما يسمونها وهمياً ، وهم يبنوننا أن الخيال لا يخترع شيئاً من لا شيء وإنما يستمد صورته ونتائجه من الأشياء الموجودة يؤلف بينها تأليفاً غريباً يبهر النفس ويفتها . وإذا كانوا صادقين ونحسبهم صادقين فحظ أبي العلاء من الخيال في رسالة الغفران لا حد له . ليس لأبي العلاء حظ من الخيال ؛ وإذا فماذا يلدنا من رسالة الغفران ؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر الجنة والنار وما فيهما ؟ أليس لأن خيال أبي العلاء

الخصب القوي قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفاً غريباً قيماً لذيذاً ! لم يكن أبو العلاء ملزماً أن يخترع الشعراء والعلماء والجنّة والنار ! فـ « دانت » لم يخترع « فرجيل » ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الأشخاص الذين لقبهم فيه ، وإنما استمدهم جميعاً من الأدب القديم أو من الدين المسيحي ، ومع ذلك فهو صاحب خيال ، وخياله هذا مصدر مجده الخالد . لا تقل إن حظ أبي العلاء من الخيال قليل ، بل قل إن حظه من الخيال عظيم جداً قيم جداً خليق بالخلود ، لأنه الخيال الخصب المنتج حقاً ، هو الخيال الذي تجده عند « دانت » والذي تجده عند « أناتول فرانس » . عند « أناتول فرانس » بنوع خاص . وما أقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبي العلاء ! ليس بين الرجلين إلا فرق واحد ، وهو أن تشاؤم المكاتب العربي محزون مظلم ، وتشاؤم المكاتب الفرنسي مبتهج مشرق . ومن غريب الأمر أن من الفرنسيين من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذي يظلم عليه العقاد أبا العلاء . انخدع بعض النقاد الفرنسيين بكثرة ما يروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان في القرون الوسطى فقالوا : إن الرجل لا شخصية له وإنما هو يجمع آثار غيره لا أكثر ولا أقل . ويكاد العقاد يقول هذا في رسالة الغفران ! لأن أبا العلاء ملأها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة ، وما أخذ عن رجال الدين . ولكن غير العقاد خليق بأن يتورط في مثل هذا الخطأ . فسرّ البلاغة — ولقد كدت أقول الإعجاز — أقوى وأظهر في رسالة الغفران من أن يغفل عنه أديب كالعقاد .

أرى أن العقاد قد وفق التوفيق كله لفهم السخرية العلائية في رسالة الغفران . ولعلّ أول من سبق إلى ذكر هذه السخرية ، ولعلّ لقيت في سبيل هذه السخرية العلائية شيئاً من العنت والأذى . ولكني كنت أحب أن يذهب العقاد في تحليل هذه السخرية العلائية إلى أقصى ما تنهى إليه حرية البحث . فلم يكن أبو العلاء ساخرًا من الناس في حياتهم العادية ولا أمالمهم وأعمالهم وحدها وإنما رسالة الغفران مثل قوى شنيع للسخر بما كان للناس من مثل أعلى في الدين ؛ فهو لا يسخر من شهواتهم ولذاتهم ، وإنما يسخر من دينهم وقيمتهم . والذي أحب أن يلتفت إليه قارئ رسالة الغفران ليس هو هذه السخرية التفصيلية التي نجدها عند ما يعرض أبو العلاء لإوزّ الجنّة أو بقرها أو عند ما يعرض للخصومة بين الشعراء ، وإنما هي السخرية الحميلة العامة المنكرة التي تمثل الله عز وجل كأنه قد فرغ للذات أهل الجنّة وشهواتهم يديرها ويدبرها ، لا عمل له إلا هذا ولا تفكير له إلا

في هذا . إن الذي يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية لا يستطيع أن يسلم بأن أبا العلاء كان مسلماً حقاً . وقد أفهم أن يتنجب العقاد مثل هذا البحث لأن فيه شيئاً من الحرج ، وإكفى أحب أن يكون الناس جميعاً مثلي يكرهون أنصاف الحقائق ، ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شيء .

أنا معجب بما كتب العقاد عن أبي العلاء . وأرجو أن أعجب بما كتب عن المتنبي حين أقرؤه .

« جان جاك روسو ، حياته وكتبه » بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك -
« أشهر قصص الحب التاريخية » بقلم الأستاذ سلامة موسى -
« رسائل الأحران في فلسفة الجمال والحب » بقلم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

وصلت إلى رسالتان كنت أود أن أثبتهما في هذا الفصل وأن أردّ عليهما ،
ولكني آثرت ألا أفعل ، ورأيت أن أكتفي بالإشارة إليهما ؛ لأن هذا الفصل أضيق
من أن يسع الحوار والجدال . لإحداهما من الأستاذ عباس العقاد فيها خير وشر
وفيها ثناء وذم . وأنا أتقبل هذه الرسالة شاكراً ما فيها من خير وشر ومن ثناء وذم .
وأؤكد لصاحبها أنه لم يصدق في رسالته كلها كما صدق في آخرها حيث يقول :
« إن صوتي يسمع على ما فيه من نشوز . وأنا أعلم أن في صوتي نشوزاً وأحمد الله على
أن هذا النشوز لا يمنع الناس من الاستماع لهذا الصوت ، فقد يكون في الاستماع
له خير ، مهما يكن قليلاً فهو خير » .

أما الرسالة الثانية فأرق من رسالة العقاد وأدعى إلى الابتسام والفكاهة . ويجب
أن أكون شديد الحرص على الإيجاز لآخذ نفسي بالأناشيد . ويجب أن أكون
شديد الحرص على المجاملة لأمنع نفسي من ذكر صاحبها ، فلن أسميه وإن كان
يميل إلى ذلك شديداً .

قرأ كاتب هذه الرسالة في حديث من هذه الأحاديث أني أصف بعض
الكتاب بأن لسانه أطول من عقله وأن له يومه ، فخطرت له خواطر وعبثت به ألوان
من الخيال ، وكتب إليّ يتعجلني في نقد هذا الكاتب والدلالة عليه وبلح في تعجُّله
إياي . وأنا أجيب هذا الكاتب الأديب أني لم أردّه ولم أقصد إليه ، وأنه يستطيع
أن يستريح من هذه الناحية ، وأن يتركني حراً أتخير اليوم الذي يعجبني أن أنقد
فيه هذا الكاتب وأمثاله ، فهو ليس كاتباً واحداً ، وإنما صورة لكتاب كثيرين .
ولأدع رسالة العقاد ورسالة هذا الكاتب الأديب ، ولأنتقل إلى هذه الكتب التي
وضعت أسماءها في أول هذا الفصل . وإني لأعلم أني سأجد في نقدها أو في نقد
بعضها مشقة غير قليلة ، فكلها خليقة بالنقد ، وبالنقد الشديد ، وكلها خليق
بالثناء ، وبالثناء الكثير .

ليس من اليسير أن أنقد كتاب صديقي هيكل ؛ لأن قراءته ليست يسيرة .
نعم ! ليس من اليسير ولا من المحبب إلى النفس أن نقرأ هذا الكتاب القيم ونستمع
بما فيه من لذة علمية وأدبية ، ففي الكتاب لذات علمية وأدبية كثيرة ، ولكن الله
أراد أن تحول بيننا وبين هذه اللذات حوائل مختلفة ، منها ما هو منكر بغض ،
ومنها ما هو ثقيل على النفس ، ومنها ما يخرج ويغيب . يجب أن يكون هيكل شديد
الالتواء على النقاد ، مسرفاً في ازدياء القراء ، غالباً في الاقتناع بأنه وحده موفق
للخير حين يفكر وحين يعمل . فقد ذكر أني تناولت الجزء الأول من كتابه حين
ظهر في سنة ١٩٢١ فقرأته بعد مشقة ، ونقدته مخلصاً ناصحاً للكاتب أن يكبر قراءه
بعض الشيء ، وأن يعنى بهم ولو قليلاً . وكنت أحسب أن هذا النقد سينزل من
نفس صديقي هيكل منزلة حسنة ، فيجيبني راضياً إلى ما دعوته إليه . وكنت
أنتظر ظهور الجزء الثاني من كتابه لأثني عليه ثناء خالصاً من كل عيب ، ولأحمده
حمداً بريئاً من كل انتقاص . ولكني أعترف بأنني أحسست شيئاً كثيراً مما يسمونه
خيبة الأمل حين انتهى إلى هذا الكتاب . ذلك أني رأيت صاحبي هذه المرة كما
رأيته في المرة الماضية مزدرياً لقراءته مزدرياً لنقاده ، لا يحفل بأولئك ولا بهؤلاء . وما
أحسب إلا أن هذا الازدياء خلق من أخلاقه ليس إلى إصلاحه من سبيل .

لا أعرف كتاباً علمياً أدبياً أردأ طبعاً من كتاب الدكتور هيكل ، بل لا
أعرف كتاباً علمياً أدبياً أقبح ورقاً من كتاب الدكتور هيكل ، بل لا أعرف كتاباً
علمياً أدبياً بلغ فيه الإهمال والفتور ما بلغاه في كتاب الدكتور هيكل : طبع
ردىء ، مفعم بالأغلاط المنكرة ، وورق ردىء يصرف القارئ عن أن ينظر في
الكتاب ، ويصد من يحب اقتناء الكتب عن أن يقتني هذا الكتاب ، وإهمال
يصرف عن القراءة أشد الناس رغبة في القراءة ، ويزهد في الاستفادة أحرص الناس
على الاستفادة . أذكر أني طلبت إلى الدكتور هيكل حين ظهر الجزء الأول من
كتابه هذا أن يتق الله في قراءته : في أبصارهم وأذواقهم وفي ميولهم وأهوائهم ، فيحسن
طبع كتبه ويتخير لها ورقاً لا يؤذى الأبصار ولا يشق عليها . وأراني مضطراً إلى أن
ألاحظ أن صديقي لم يُعَنَ بما دعوته إليه ، فكانت طبعة الجزء الثاني كطبعة
الجزء الأول إن لم تكن أشد منها إمعاناً في السوء .

أنا أعلم أن الذين يُقدمون على التأليف والنشر يتعرضون في أكثر الأحيان لخطر
أشد من خطر النقد ، وهو ضياع ما ينفقون من أموال . ولكنني أعلم من جهة أخرى

أن الذين يؤلفون وينشرون إذا كانوا من العلماء والأدباء حقاً يضمنون بما يؤلفون وينشرون على الورق القبيح الرديء ، وهم بالطبع يريدون أن يتجملوا في كتبهم كما يتجملون في أزيائهم ، وهم يُعنون بأن تروق كتبهم الأبصار قبل أن تروق النفوس ، كما أنهم يعنون - إن لم يكونوا من أتباع ديوجين - بأن تروق أشخاصهم وأزيائهم أبصار الناس قبل أن تروق آراؤهم عقول الناس . بل أنا أزعج - والناس جميعاً يرون هذا الرأي - أن من الأسباب القوية التي تعينك على أن تنزل من نفوس الناس منزلة تحببك إليهم وتمكنك منهم ألا ينبو شخصك عن عيونهم . ومثل هذا يقال في الكتب . ولكن صديقنا هيكل لا يريد أن يسمع لشيء من هذا ، وهو بإعراضه عن هذا النصح يسىء إلى كتابه ، لأن القراء لا يرغبون فيه ولا يسرعون إليه ، ويسىء إلى قرائه ، لأنه يحرمهم قراءة هذا الكتاب اللذيذ .

ومن غريب الأمر أني ضحكت منذ أيام حين انتهى إلى كتاب هيكل ؛ لأنه انتهى إلى وقد قرأت في جريدة « الطان » فصلاً عنيفاً كتبه الناقد الأدبي لهذه الصحيفة ، حمل فيه حماسة منكراً على الشاعر الفرنسي المعروف « هنرى درينيه » وعلى طابعه ، لأنهما نشرتا ديواناً لهذا الشاعر في طبعة بلغت من الإتقان والزينة وجودة الورق أن ارتفع ثمنها على أوساط الناس ، وأصبح الكتاب لا يتاح إلا للأغنياء والمترفين . ضحكت ورثيت لأوساط الناس الذين يزدريهم « هنرى درينيه » فيغلي كتبه ويسرف في إتقانها وتزيينها ، ويزدريهم هيكل فيرخص كتبه ويسرف في إهمالها وانتقاصها . رثيت لأوساط الناس من هذين الكاتبين اللذين يختلفان فيما بينهما اختلافاً شديداً ، ولكنهما يسلكان طريقين مختلفين تنهى بهما إلى غاية واحدة هي ازدياء القراء . أما أحدهما فيغلو في الترف ، وأما الآخر فيغلو في التفلسف . وما أصدق المثل اليوناني الذي قامت عليه فلسفة الفلاسفة حقاً وهو « لا تسرف » .

ثم لا يقف أمر هذا الكتاب عند سوء الطبع وقبح الورق . فما رأيك في كتاب تبحث فيه عن فهرست فلا تجد ! وما رأيك في كتاب لا تستطيع أن تلم بما فيه إلا إذا قرأته من أوله إلى آخره ! ليس لكتاب هيكل فهرست ، أستغفر الله ! بل ليس في كتاب هيكل عناوين للموضوعات التي يتناولها . وكل ما في كتاب هيكل من هذا النحو أرقام ثلاثة هي ٩ و ١٠ و ١١ ، تأخذ الكتاب فيصادفك رقم ٩ ثم يتفضل عليك المؤلف فيذكرك بما كان في الجزء الأول ، وينبهك إلى أن هذا الفصل الذي تقرأه هو الفصل التاسع من فصول الكتاب كله . ثم تمضي في الكتاب وتمضي

وتمضى حتى تتجاوز خمسين من صحف الكتاب فتجد رقم ١٠ . ثم تمضى وتمضى وقد تنسى نفسك وقد تصل . وقد يختاط عليك الأمر ، ولكنك تمضى حتى تتجاوز الثمانين بعد المائة من صحف الكتاب ، وإذا أنت أمام الرقم الثالث ١١ ثم تمضى حتى تنهى من الكتاب أو قل من الجزء ، وترى نفسك مضطراً إلى أن تنتظر ظهور الجزء الثالث الذى سيبتدئ طبعاً برقم ١٢ . هذا كل ما فى الكتاب من تقسيم . وأنت ترى أنه قليل ، أقل مما ينبغى ، وأنت تستطيع أن تقول إن الكتاب يخلو من التقسيم والترتيب . وإذا كان إهمال الورق والطبع إسرافاً فى التفلسف وازدراء للقراء ، فإهمال التقسيم والترتيب غلو فى التقصير وازدراء للبحث العلمى نفسه . ذلك أن البحث العلمى بطبيعته محتاج إلى التقسيم والترتيب ، بل قل إن البحث العلمى تقسيم وترتيب قبل كل شيء . فالانصراف عن التقسيم والترتيب إثم على العلم إذا تكلفه صاحبه وتعمده ، وهو قصور فاحش إذا اضطر إليه اضطراراً . وكم كنت أريد أن يخلو كتاب هيكل من صفتين أعتقد أنا أن شخص هيكل منهما برىء .

ثم لم يقف الأمر فى هذا الكتاب عند هذا الحد ، فهيكلم لم يكتب بإهمال الطبع والورق ، ولا بإهمال الفهرست ولا بإهمال التقسيم والترتيب ، بل أضاف إلى هذه الضروب من الإهمال ضرباً آخر ليس أقل منها قبحاً عندى ، وقد يكون أشد منها قبحاً عند غيرى من الأدباء والنقاد ، ذلك هو إهمال اللغة .

ليس من الثناء على هيكل فى شيء أن نقول إنه كاتب مجيد ، فالناس جميعاً يعلمون أنه كاتب مجيد ، وما أظن أن بين قراء الصحف من يستطيع أن ينكر أنه مدين لقلم هيكل بساعات لذيذة تأثرت فيها نفسه ألواناً من التأثر ، فغضبت مع الكاتب للحق ، ومخطت مع الكاتب على الباطل ، وشعرت مع الكاتب بالوطنية الصادقة والحرص على المنفعة القومية ، واستمتعت مع الكاتب بلذة العلم والأدب حين يبحث عن العلم والأدب ، وحين يتناول بتحليله الدقيق ونقده الموفق كبار الكتاب والأدباء ولا سيما « أناتول فرانس » و« بيرلوتى » . الناس جميعاً يعلمون هذا من هيكل ، ويعترفون بأنهم مدينون له بساعات لذيذة قيمة . والناس جميعاً يعلمون أن هيكل على امتيازه الفنى وبراعته الكتابية يحسن لغته العربية ويتقنها ويتصرف بها كما يحب ويسخرها كما يشتهى . وربما كانت له فى ذلك شخصية بارزة حين يختلج فى نفسه الرأى ويشعر بأن اللغة قد تضيق برأيه فيكرها على أن

تتسع ويرغمها على أن تؤتية من الألفاظ ما هو في حاجة إليه . ولكنى لا أدري
أيعلم الناس أن صاحبنا يكره التعمق في اللغة والإسراف في تخير الألفاظ القديمة
وتجنب الألفاظ الحديثة المبتدلة؟ ولقد كانت بينه وبينى في ذلك مناقشات
ومخاصمات حظ الهزل فيها أكثر من حظ الجلد ، ولكنها كانت على كل حال
مظهراً من مظاهر اختلافنا في الرأي أمام هذه المسألة الفنية . وأنا أفهم حق الفهم
أن يميل بعض الكتاب إلى تخير الألفاظ المتقنة ، بل أنا أفهم حق الفهم أن
يتخرج بعض الكتاب في استعمال ألفاظ لا يجدها في المعاجم ، أنا أفهم هذا حق
الفهم ، وأفهم شيئاً آخر وهو أن يطلق بعض الكتاب لأنفسهم الحرية في استعمال
ما يعرض لهم من الألفاظ رضيت عنه المعاجم اللغوية أو سنحطت عليه .
أفهم هذين المذهبين ، وأريد أن أتوسط بينهما ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ؛
لأنى أريد أن أحتفظ للغة بجمالها وبهجتها من جهة ، وبحياتها وقوتها من جهة
أخرى ، وأريد أن أكون قادراً على أن أصف ما في نفسى وألا أسلب نفسى هذه
القدرة لأنى لا أجد في المعاجم لفظاً أشعر بأنه يعجبني ويؤدى ما في نفسى . ولكن
هناك شيئاً لا أستطيع أن أفهمه ، وما أحسب أن أحداً يستطيع أن يفهمه ، وهو أن
يسرف الكاتب في حرته اللغوية حتى يهدم قواعد اللغة ويتجاوز حدودها وقوانينها
في غير نفع ولا نكتة فنية ولا ضرورة قاهرة . لا أستطيع أن أفهم مثلاً أن يذكر
اللفظ المؤنث ويؤنث اللفظ المذكور . فقد تستطيع أن تكون حراً في اللغة بل إباحياً ،
ولكنك لن تستطيع أن تمنح هذه الحرية التي لا تخير فيها ولا نفع . وأى فائدة تعجدها
وأى لذة تظفر بها حين تضم فعلاً يجب أن يكسر ، وتذكر لفظاً يجب أن يؤنث ؟
ومع هذا فأنا أجد هذا النحو من الخطأ اللغوي في كتاب صديقي هيكل .
ولست أريد أن أسرف ولا أن أطيل في إحصاء هذا الخطأ ، وإنما أريد أن أدل
عليه دلالة موجزة . أريد أن أسأل كيف استطاع هيكل أن يقول : « وكان قدمه
قد استقر يومئذ في الأدب » وهو يعلم أن القدم مؤنثة لا مذكرة .
أريد أن أسأله كيف استطاع أن يقول : « وألا نكون من السخف حتى نضحى
هناؤنا بسبب مثل هذا الرأي الأخرق » . ومتى كان « حتى » ظرفاً مكانياً ! وإنما
أراد هيكل أن يقول : « وألا نكون من السخف بحيث نضحى . . . » وأكبر
ظنى أنه كتب هذا ولكنه أهمل العناية بطبع الكتاب فتورط في هذا الخطأ .
ومثل هذا الخطأ الذى ورطه فيه إهمال العناية بالطبع قوله : « فرفضت مخافة

ما يصيب ذلك أبواها من سوء . فما رأيك في هذا المفعول الذي ينصب بالآلاف وكان حقه أن ينصب بالياء ؟ وخطأ آخر لا أستطيع أن أغفره وهو حيث يقول : « وأنت تعلمين أنك أشد ما يكون في هذه الحال خطراً » أراد « أشد ما تكونين » . وخطأ آخر أشد من هذا نكراً وهو قوله : « ووقف والذى المحترم موقف مهوباً » . وليس من شك في أن على المطبعة وحدها تبعة هذا « الموقف » الذى كان ينبغى أن ينصب ويصرف فنع الصرف . ولكن أعلى المطبعة وحدها تبعة هذا « المهوب » الذى ينبغى أن يكون مهيباً بالياء لا بالواو ؟ هذا كله ولما أتجاوز الخامسة والعشرين من صحف الكتاب . وقد أخذت نفسى بأن أكون ميسراً لا معسراً حتى لا يقول أنصار حرية اللغة : تقعر في النقد ولم ينس دروس الأزهر الشريف . وما أشد حرصى على ألا أنساها ! ولست أشك في أن الإهمال وحده هو الذى اضطرب هيكلا إلى هذه الأغلط . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن الإهمال يباح للكتاب والعلماء .

أما بعد ، فهل أنا في حاجة إلى أن أثنى على هذا الكتاب ؟ ألتست أتعرض للسخف إذا أثبتت على فيلسوف كجان جاك روسو ، وعلى كاتب كهيكل ! وأى الناس من قراء هذا الحديث يجهل مكانة روسو في الأدب الفرنسى خاصة ! وأى الناس من قراء هذه الفصول يجهل مكانة هيكل في أدبنا العربى الحديث ؟ ! الناس جميعاً يعرفون مكانة هذين الكاتبين ، ولكن من قراء العربية من لا يتاح لهم أن يقرءوا « جان جاك روسو » في لغته الفرنسية أو في ترجمة عربية . وهؤلاء ينتفعون من كتاب هيكل انتفاعاً قماً حقاً ، لأنهم يجدون فيه شخص روسو ماثلاً مثولاً واضحاً ، ولأنهم يجدون فيه آراء روسو مبسطة أحسن بسط مفصلة أبجل تفصيل ، هذا كله في إيجاز حسن وتجنب للإطالة والإسراف . بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا فأزعم أن الذين قرءوا « روسو » بالفرنسية وأكثروا قراءته وأتقنوها يجدون لذة لا تكاد تعدلها لذة في قراءة هذا الكتاب الصغير الذى نشره هيكل عن جان جاك روسو . يجدون هذه اللذة المقدسة التى يجدها الأديب حين يقرأ نقداً صادقاً صحيحاً لكتب قيمة لذيذة ، وحين يوازن بين هذا النقد وبين ما شعر به وهو يقرؤه ، وحين يتم بهذا النقد نقص قراءته ، وحين يوجهه هذا النقد وجوهاً من التفكير لم يعرض لها ولم يلتفت إليها الناس جميعاً حين يقرءون هذا الكتاب فيجدون فيه من اللذة العقلية والقلبية ما لا ينقصه إلا سوء طبع الكتاب . فأنا لا أغفر

هيكل سوء طبع الكتاب. لا أغفره له؛ لأن الكتاب قيم حقاً ، خليق ان يقرأ وأن تعاد قراءته . ومن الجناية على مثل هذا الأثر القيم ؛ أن يعرض على الناس في مثل هذه الثياب الدميمة . وكم يحسن هيكل لو تفلسف في غير هذا الأمر فلم يسيء إلى روسو ولا إلى نفسه هذه الإساءة المنكرة . وأقسم لو كنت غنياً لتكلفت نحو هذه الإساءة ولأعدت طبع الكتاب في عناية متقنة وإتقان خليقين بموضوعه وبكاتبه وبقرائه .

ولكني قد أعطيت نفسي من الحرية في نقد هذا الكتاب أكثر مما ينبغي لها فيما يظهر . وما رأيك في محرر « السياسة » الأدبي يتناول بهذا النقد العنيف رئيس تحرير « السياسة » ثم لا يستحي أن ينشر هذا النقد العنيف في جريدة « السياسة » نفسها ؟ أليس هذا إسرافاً أو شيئاً فوق الإسراف ؟ ! كلا ! ليس إسرافاً ، إنما هو القصد كل القصد والاعتدال كل الاعتدال . فهيكل تلميذ لطفي السيد . ولقد أذكر أن لطفي السيد علمنا حين كان مدير « الجريدة » أن نقد أصحاب الصحف في صحفهم ، وعودنا أن ينشر نقدنا راضياً به مبهجاً له معتزلاً إن كان في الأمر ما يدعو إلى الاعتذار . ونحن قوم يحب بعضنا بعضاً ، ولكننا نتحاب في الحق والعلم والأدب وحرية الرأي قبل كل شيء . ولو علمت أن في هذا النقد ما يغضب صاحبي أو يغيظه لما نشرته لا في « السياسة » ولا في غير « السياسة » . أستغفر الله ! بل لو علمت أن في هذا النقد ما يغضب صاحبي أو يغيظه لنشرته ولضجيت بصحبة هيكل في سبيل ما أعتقد أنه حق . ولكني أعلم أن صاحبي أو أن أصحابي جميعاً في الرأي والمذهب فوق هذه الملاحظات التي لا ينظر إليها إلا صغار النفوس . وإذا كانت « السياسة » قد وسعت تقريظ خصم من خصوم « السياسة » فهي حرية أن تسع نقد رئيس تحرير « السياسة » . وليس معنى هذا أنني لن ألقى من رئيس تحرير « السياسة » شططاً ولا عتاً ، فأنا أعلم ما ينتظرنى منه بعد أن يعود من سفره ، ولكني أعلم أننا سنتحاور ونختصم ، ثم نتضحك ونفترق وقد أعلن إلى هيكل كما تعود أن يعلن إلى كلما اختصمنا في أمر كهذا أنني أجهل اللغة العربية . فلأنتظر سخط هيكل ورضاه ، ولأنتقل منه إلى كاتب آخر كنت أريد أن أرضيه لأنني أحبه وإن كنت لم أعرفه ، ولأن الكلفة لم ترتفع بيني وبينه كما يقولون ، فلا بد من اصطناع المجاملة حين أعرض له . ولكن كيف السبيل إلى المجاملة وصناعة النقد لا تحتملها ولا ترضاهما ! وقد أراد الله أن أكون ناقداً ،

فأراد أن أكون ثقيلًا إذا ، ولأقل صراحة للأستاذ سلامة موسى أنى غير راض عن كتابه الذى أذاعته مجلة الهلال منذ أيام .

للأستاذ سلامة موسى فى نفسى منزلة قيمة ؛ لأنى أعجب بعقله وحريرته ومذهبه فى التفكير وطريقته فى الكتابة ، ولهذا كله اغتبطت حين وصل إلى كتابه ، وأخذت أحمد « للهلال » عنايتها بالآداب واجتهادها فى نفع قرائها واستعانها بالأستاذ سلامة موسى .

وعنوان الكتاب لذيذ خلّاب ، وإن كنت لا أدرى إلى أى حد يرضى عنه النحو ، ومن الذى لا يجد لذة فى قراءة قصص الحب ؟ أعترف أنى من الذين يكلفون بالحب وأخباره وأحاديثه ، ويجدون فيها لذة وتفكها ونفعاً . وإذا فقد اغتبطت بكتاب الأستاذ سلامة موسى حين وصل إلى ، وقلت إنى سأجد فى قراءته من اللذة ما ينسىنى بعد المسافة بين دارى وبين الجامعة . ولكنى لم أكد آخذ فى قراءة الكتاب حتى رأيت أنه لا يصلح للمترو . ولا يغضب الأستاذ سلامة موسى فأنا أقرأ فى المترو كتب « أناتول فرانس » ، بل أنا أقرأ فى المترو تاريخ المقدونيين فى مصر ، وتاريخ الجمهورية الرومانية . فليست قراءة الكتب فى المترو ازدراء لها ، وإنما هى إكبار لهذه الكتب وثقة بها . وأى ثقة بكتاب تعدل الاستعانة به على احتمال المكروه! أسفت إذا حين أحسست أن كتاب سلامة موسى لن يعينى على المترو ، واضطرت إلى أن أقرأه فى مكتبى . وأنا مضطر إلى أن أعترف بأنى أسفت أيضاً حين قرأته فى مكتبى ، لا لأن الكتاب ليس أهلاً للعناية ، ولا لأن الكتاب لا يبعث فى نفس قارئه لذة قوية ، بل لأن الكتاب لا يمثل كاتبه . وأنا أحب فى هذا النوع من الكتب أن أرى أشخاص المؤلفين ، وأن أتحدث إليهم وأستمع لهم . هذا الكتاب لا يمثل كاتبه ، وإنما هو طائفة من الأحاديث حظ النقل فيها أكثر من حظ التفكير . وكأن الكاتب قد نظمها نظماً ، وألصق بعضها ببعض إلصاقاً ، دون أن يتكلف إظهار شخصيته أو قوته فى النقد . وفى الحق أن موضوع الكتاب لا يصلح موضوعاً لبحث قيم تظهر فيه شخصية الكاتب . فكيف تظهر شخصية الكاتب فى رواية أحاديث الحب عند العرب واليونان والرومان والفرنج المحدثين ! وكيف يمكن أن ينسى الكاتب اختلاف هذه الأمم ويمتلىء بموضوعه امتلاءً فيتحدث عنه وكأنه يتحدث عن نفسه !

ومع ذلك فقد ينخيل إلى أن الأستاذ سلامة موسى كان يستطيع أن يحسن إلينا

بعض الإحسان في غير موضوع . كان يستطيع مثلاً أن يضع لكتابه مقدمة صالحة فيها شيء من البسط والتفصيل لهذه الآراء القيمة التي يعرض فيها الحب على الناس . كان يستطيع أن يحكم عقله وقوته النقدية حين يعرض علينا رأى العرب في الحب ، وحين يعرض علينا رأى الفرنج في الحب . ولكنه لم يفعل من هذا شيئاً ، وإنما عرض علينا أطرافاً من القول نقلها عن طائفة من الكتاب العرب والفرنج ، وخيل إلينا أن هذه الأطراف المقتضبة التي ألصق بعضها ببعض إلصاقاً تمثل آراء العرب في الحب حقاً ، وآراء الفرنج في الحب حقاً . خيل ذلك إلينا ، ولم يخيله إلى نفسه طبعاً ؛ فهو يعلم أن مثل هذه الأطراف من القول لا تمثل آراء أصحابها ، فضلاً عن أن تمثل آراء الأمم التي ينتسب إليها أصحاب هذه الأطراف .

وكنت أحب أن يكون الأستاذ سلامة موسى ناقداً بعض الشيء حين يعرض لأخبار الغزاليين من العرب ، كجميل وكثير وغيرهما ، ولكنه لم يكده يفعل من هذا شيئاً ، وإنما يترك القدماء يقولون ما يشاءون ، واختار من أحاديثهم أطرافاً رواها في غير نقد ولا تحفظ إلا ما يدعو إليه الإيجاز . وفي الحق أنى لست أدري على من تقع تبعة هذا التقصير : أعلى الأستاذ لأنه مال إلى هذا النحو من التأليف الذي قد يليق بالتجارة أكثر من لياقته بالبحث العلمي ، أم على مجلة (الهلال) التي عرضت على الأستاذ هذا النحو من التأليف ، لأنها تعرف عقلية الكثرة من قرائها ومقدرتهم ، أم على القراء أنفسهم لأنهم يضطرون الكتاب إلى أن ينصرفوا عن البحث والنقد ليكون فهمهم ميسوراً ، ويضطرون (الهلال) إلى أن تقدم إليهم كتباً حظ الجمع فيها أكثر من حظ النقد ! ومهما يكن من شيء فإن هذا الكتاب بعيد كل البعد عن أن يؤسنى من الأستاذ سلامة موسى ، وأنا واثق بأنى سأضطر بعد حين إلى أن أثني عليه ثناء خالصاً .

* * *

وقد بلغت من هذا الفصل أقصاه ، ولم أبدأ في ذكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وكتابه في فلسفة الجمال والحب . وأنا بين اثنتين إما أن أنقد هذا الكتاب كما أحب وكما يليق بصاحبه ، فأطيل عليك ، وربما تأخرت عن هذا الدرس الذي يجب أن أذهب لإلقائه في مدرسة الآثار ، وإما أن أرجئ نقد هذا الكتاب إلى حديث الأربعاء في الأسبوع الآتى . ويظهر أنى أؤثر الثانية على الأولى . فإلى الأسبوع الآتى إذاً .

عود إلى كتاب هيكل
رسائل الأحران فى فلسفة الجمال والحب
للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

أخى طه

تحية واحتراماً . أكتب لك عما تبرعت به من نقد الجزء الثانى من كتاب جان جاك روسو ، حياته وكتبه . ولست أقصد بما أكتب إلا مناقشة لصديق وستجدها مناقشة خالية من كل ما تهتم به نفسك من عنف أو شدة .

أخذت على هذا الجزء الثانى من كتابى عن روسو أنه مطبوع طبعاً رديئاً على ورق غير لائق بكتب العلم والأدب ، وأن به أغلاطاً مطبعية كثيرة . وأخذت على أنى فى إهمال الطبع وعدم اختيار الورق وعدم العناية بالتصحيح أزدرى الجمهور ، وأنى لا أحفل باللغة كما ينبغى ، وأنى لم أضع لكتابى فهرساً ولم أبويه ، وجعلت لهذا النقد أكثر من أربعة أنهر فى السياسة . ثم أثنت على الكتاب بأن موضوعه جان جاك روسو ، وبأن كاتبه هيكل ، وجعلت لهذا الثناء نصف نهر من أنهر السياسة .

ولست أخفيك أنى أشعر بأن نصف النهر هذا فيه من المعنى ما « ينحجل تواضع » روسو لو أنه كان حياً ، وما « ينحجل تواضعى » أنا اليوم ، واعدرتنى إذا استعرت فى هذا المقام عبارة سعد زغلول . لكنى أود أن أسألك إذا كان القارئ البعيد عنى وعن روسو يشعر بمثل شعورى بعد أن يفرغ من قراءتك ، لقد عرف أن الكتاب مطبوع طبعاً سيئاً على ورق ردىء ، وأن به خطأً مطبعياً وإهمالاً لضبط بعض الألفاظ من الجهة اللغوية ، وأنه مع ذلك كتاب دسم مفيد ، لكن سوء طبعه وورقه يصدان عن قراءته ، فما الذى يمكن لهذا القارئ أن يقف عليه من أمر الكتاب؟ ما هو هذا الغذاء الأدبى والعقلى الذى لا يستطيع أن يصل إليه والذى كان حقاً عليك أن تدله عليه؟ ألا تظن أنه - ولم يستدل على شيء منه - يشعر

بأنك لم تقرأ الكتاب ، بل اكتفيت بتقليب صفحاته ، واقتصرت بعد ذلك على الكتابة عن الشكل والصورة الظاهرة من غير أن تكلف نفسك عناء الوقوف على موضوع الكتاب ، لترى إن كان على سوء شكله يستحق احتمال القراء عناء مطالعته ، ولتنتقد مباحث الكاتب فتحكم له أو عليه .

ثم هب يا صديقي أن قارئك كان رجلاً صالحاً من أهل الأزهر الذين تعودوا قراءة الكتب مطبوعة على الورق الأصفر أو النباتي ولا تزيد على الكتاب الذي تفضلت بنقله بهاء ولا رواء ، وهب أن قارئك كان من الذين يولعون باستقصاء ما في الكتب مهما يحملهم هذا الاستقصاء من عناء . وهب أنه كان من الذين لا يحفلون بالظواهر ولا يعنون كثيراً باللباس ولا يفهمون قيم الناس بأرديتهم ويحسبون التأنق لهواً ، فماذا يكون حكم القارئ على ما كتب حين يراك اقتصرت على نقد الطبع والورق ؟ وهلا تخشى أن يقول لك إن وضع صحيفة في آخر الكتاب لبيان الخطأ والصواب كانت تكني لرد نقدك الألفاظ ، وإنه كان أحوج إلى العلم بشيء من موضوع الكتاب !

أما نقدك غياب الفهرس والتبويب فكنت أود أن أشاركك رأيك فيه ، لولا أن هذا الجزء الثاني من كتاب جان جاك في غير حاجة إلى فهرس أو تبويب ؛ فهو يلخص رواية هلويز الجديدة وكتاب التربية وينقدهما ، وليس فيه شيء آخر . فهل كان يكفيك أن يكتب بدل ٩ و ١٠ و ١١ - هلويز الجديدة ، واميل ، وصوفيا ، كما فعل فاجيه ولتر وغيرهما من الذين كتبوا عن روسو؟ وهل تحسب الفارق كبيراً في نظر العلم والأدب إلى حد لا يصبح معه نقدك مشوباً بشيء غير قليل من الإسراف الذي ذكرت أنك لا ترضاه ؟

وتقول لو أنك كنت غنياً لقممت بطبع الكتاب في صورة تليق بروسو وبهيككل وإني أشكر لك حسن ظنك ورقيق شعورك . وربما رأيت أنت كتابي على غير ما رأيته لو أنني كنت غنياً . على أنني لا أقول لك ذلك عن ثقة ؛ فإن بي عيباً آخر قد يحول دون إتقان الطبع ، وأظنك تعرفه . فإني تتحكم في صفتان ليس أضر منهما على تجارة الحياة وتبادل المنافع ، هاتان الصفتان هما الأنفة والحياء . وقد أسرف الحظ فيما خلعه على من كل منهما إلى حد انقلب معه ما يجده الناس في كل منهما من فضل عيباً عندي ونقصاً . وليس لي من سبيل إلى محاربة هذا الإسراف في الصفتين إلا أن يستطيع الإنسان محاربة طبعه .

هاتان الصفتان تحولان بيني وبين الناس وتجارتهما . وأشهد أني ما اغتبطت يوماً لهذا العجز ، كما أشهد أني ما حزنت يوماً بسببه ؛ فهو يحميني من شرور كثيرة ، ويدع المجال أمامي فسيحاً لأحظى من نعيم الحياة بما تيسره المقادير من غير أن أخشى مداخلة الناس في أمري لتكدير صفو نفسي . ثم هو في الوقت نفسه يمنع عليّ الاستفادة من معاملة الناس والاستعانة بذوي الإخصاء منهم في طبع كتي وتصحيحها وتوزيعها واسترداد نفقاتها لطبع كتب أخرى ، كما يمنع عليّ الاستفادة من معاملتهم في غير هذه من شؤون الحياة ، ويضطرنني إلى القناعة من علاقاتي بالناس بما ييسر لي أقل حظ من النعيم أطعم فيه . فأنت تراني أشد ما أكون غبطة ما دمت جالساً إلى مكنتي متصلًا بالناس في غير حاجة إلى معاملتهم والاتجار معهم . وتراني أشد ما أكون حياء وحيرة ما اتصلت بالناس في تجارة . وهذا يا صديقي هو السر فيما رأيت من سوء ورق كتابي وطبعه ، وهذا هو السر فيما تهمني به خطأ من ازدراء الناس . ولو أنصفت لقلت : إنه عكوف النفس على ذاتها وقناعتها بالرضا الداخلي الذي لا يعني كثيراً بحكم الناس ؛ لأن حكمهم لا يصل إليه ، وإن وصل فلا يعلق به .

وقد لا يسوءك في هذا المقام أن أخبرك أني حين قرأت نقدك ابتسمت أن رأيتك تأثرت فيه بصداقتك إياي أكثر مما تأثرت بموضوعك . فإنك قد عاجلت إخفاء ما تبعته المودة في نفسك من محبة صادقة ، فلم حرصك على التعرض لشكل الكتاب دون موضوعه ، مع إظهارك الإعجاب بالموضوع عرضاً ، على أنك كنت تود أن يكون ما يظهر للناس من صاحبك بالغاً ما يستطيع بلوغه من الكمال ؟

لكنك يا صديقي تعلم ما انطوت عليه نفسي ، وتعلم أني لا أكتب إلا ما يكون متاعاً لي ولذة ، فإذا نشرته بعد ذلك فلا أني لا أستطيع المحافظة عليه ، وأخشى أن يضيع وقد أحتاج يوماً لأتلذذ بمجهوداتي الماضية في الساعات المجدبة من حياة الحاضر . وهذا هو ما دعاني لتقسيم ما كتبت عن روسو إلى ثلاثة أجزاء ، فكنت كلما فرغت من قسم من بحثي وهجمت على مشاغل الحاضر ونخشيت أن أوخذ بها إلى حد نسيان ما كتبت ، قدمته للطبع لكي لا يضيع ، وهذه غاية يبغي لبلوغها أن يطبع بأقل نفقة ممكنة ومن غير عناء كبير .

على أني أعدك يا صديقي ، إن أراد الحظ لي أن أظهر للناس كتباً أخرى ، بأن أجاهد لأحرص على رضاك . وإذا أنا وجدت من عناية الأقدار ما يسمح لي

بإتمام الجزء الثالث من كتاب روسو - وهذا ما لا أعذك به - فلن أكتفى بما اكتفيت به في الجزءين الأولين ، ولن أتركه بغير فهرس أو تبويب ، ولن أطبعه إلا على ورق يعجبك ، ولن أتركه بغير بيان لما فيه من خطأ مطبعي ، ومن زلات القلم حين الكتابة .

لكني مع ذلك كنت أرجو ألا يقف نقدك عند الغضب لي مني ، وإظهار هذا الغضب في ثورة صريحة . وكنت أود أن تتناول موضوع الكتاب وأن تبين لقارئك في شيء من التفصيل ما تراه من وجوه حسنة وقبحه وكماله ونقصه ؛ فقد يمكن ملافاة ما كان من نقص في الطبع والورق عند إعادة طبع الكتاب ، سواء أعدت أنت الطبع أو أعدته أنا أو أعاده غيرنا . لكن ملافاة نقص الموضوع لا تكون إلا إذا دل النقاد المؤلف على مواقع الخطأ في البحث ومواقع التواء الدليل . وأصدقك القول أني أحوج إلى هذا النقد مني إلى نقد الشكل والصورة . فنقد الشكل والصورة أعرفهما وأعرف أسبابهما من غير حاجة إلى أن يدل عليهما أحد ، كما أعرف وسائل علاجهما ، وهذه الوسائل على ما نعلم يسيرة لمن أراد الإصلاح . فأما النقص في الموضوع ، وأما التواء الدليل فيحتاج إصلاحهما إلى تنبيه من أمثالك الأصدقاء المخلصين ذوي الفضل والعلم . فهل لك أن تكلف نفسك العناء فتتفنى وتنفع الناس ، ويكون الشكر لك مضاعفاً ؟ !

وما أحسبك حين تعرض لهذا النقد مضيقاً وقتك سدى ، فإن في رواية الهلويز تحليلاً نفسياً شيقاً ومباحث فلسفية غير تافهة . وكتاب التربية هو خير ما كتب روسو . وأحسبني حين لخصتهما ونقدتهما لم أترك شيئاً جوهرياً مما جاء فيهما أو ورد عليهما ، وإن كنت قد أوجزت في التلخيص والنقد فذلك لأوفر على القارئ وقته ، ولأحول بينه وبين الملل ، ولأعصم نفسي من زلة ادعاء العلم بما لا أعلم . وقبل أن أختم هذه الكلمة أرجو أن أعيد أمامك كلمة مما سطرته في مقدمة الجزء الأول لتكون متساعحاً معي بمقدار ما يسمح به قدرى لمجهودي . قلت في تلك المقدمة : « لا أدعي استطاعة القيام بهذا البحث على وجه كامل ، لأنني لم أتخصص له ، وإنما هويته فأخذ مني وقتاً ومجهوداً كانا من خير الأوقات والمجهودات التي أنفقت في حياتي فلم أشعر معهما بألم ولا بملال ، بل كنت أتقل إلى تذوق أنواع من اللذة ، وأشعر في أعماق روحي بدسم ما يصل إليها أثناءهما من الغذاء ، ولكنني على كل حال لم أتخصص . والبحث الكامل لا يتأتى إلا بالانقطاع والمزاولة

والإمعان وطول التفكير في الساعات والأيام والأشهر المختلفة ، وعند مراجعة المؤلف ومن كتب عنه من الكتاب الكثيرين جداً . وإذا كنت قد قرأت كتباً كثيرة فهي على كل حال قليلة إلى جانب ما كتب أو أخذ عن روسو .
هذا ومع شكرى لله على حسن عنايتك بكتابتى أرجو أن تتفضل بقبول فائق الاحترام .
أخوك

محمد حسين هيكل

ولن أطيل الوقوف على كتاب هيكل وإن كان يسألنى هو ويسألنى غيره أيضاً أن أتناول موضوع الكتاب بالنقد والتحليل ؛ فقد أحسبني أشرت في الفصل الماضى إلى موضوع الكتاب وقيمه ، إشارة إن لم تكن مفصلة مغرقة في الإسهاب فهي إشارة كافية . وماذا يريد منى القراء حين أعرض لكتاب هو تحليل لشيء من كتب جان جاك روسو ؟ أليس يكفى أن أشير إلى مكانة روسو وأثره في الأدب الفرنسى خاصة وفي الأدب الأوروبى عامة ؟ أم هل يريدون أن أتناول كتب جان جاك روسو بالبحث المفصل والنقد المطول كما فعل هيكل نفسه ؟ أم هل يريدون أن أتناول التحليل والتحليل والنقد بالنقد ، فأكتب حاشية على شرح هيكل بلحان جاك روسو ، أو تقريراً على حاشية هيكل على جان جاك روسو ؟ أليس في هذا إطالة لا حاجة إليها وإسراف نستطيع أن نجد عنه منصرفاً !!
ربما كان من الحق على أن أقول في صراحة ووضوح : إن كتاب هيكل يتناول بالنقد والتحليل كتابين قيمين من كتب جان جاك روسو ، هما هلويز الحديدية وكتاب إميل أو التربية . والناس بين رجلين : أحدهما قرأ جان جاك روسو فمن الحق أن أفصل له كتب جان جاك روسو ، والثانى لم يقرأ هذا الكتاب فمن الخير أن أحثه على قراءة هيكل ليجد في كتابه كل ما يحتاج إليه أو أكثر ما يحتاج إليه في هذين الكتابين من كتب جان جاك روسو .

أعلم أن كتاب هيكل يستحق كثيراً من الثناء في موضوعه وفي مذهبه في النقد والتحليل ، وأن هذا الثناء الذى يستحقه قد يكون أكثر جداً من الثناء القليل الذى قدمته إليه في الفصل الماضى . ولكنى أعلم حق العلم أن صديقتى هيكل لا يطمع منى في هذا الثناء الكثير ، وإنما يكفيه أن أقول إن كتابه قيم نافع حسن التأليف وإن لم يكن حسن التبويب والتقسيم . وهل من الحق أن صديقتى هيكل يريد أن أدله على ما فى الكتاب من عيب ليتقيه حين يعيد طبع الكتاب ؟

أما أن يكون هذا حقاً فإني لا أطلب منه إلا أن يتقى ما ذكرت من العيوب العرضية في الفصل الماضي ، فهو إن اتقاها أحسن إلى كتابه وإلى الناس . وليطمئن هيكلم ؛ فليس من الحق أنى لم أقرأ من كتابه إلا صحفاً قليلة ، فقد ذكرت بنفسى أكثر كتابه ، ولعله يذكر أنه قرأ على من طائفة قبل أن يشرع فى طبع الكتاب . أنا إذاً لا أجهل الكتاب فى جملة ولا فى تفصيله ، وانكى لا أحب أن احلل التحليل ولا أن أفصل التفصيل ، ولا أن أتورط فى الشروح والحواشى والتقارير . وأحسب أن الفصل الماضى يكفى لما أريده حين أكتب هذه الفصول ، وهو أن أرغب القراء فى أن يقرءوا كتاباً أحسبه قيمياً نافعاً ، وأمكنهم من أن يقدروا طائفة من الكتب على وجهها .

أعود فأقول : إن صديقى هيكلم يستطيع أن يطمئن ؛ فقد يكون نقدى شديداً ، وقد يكون نقدى عرضياً . ولكن هناك شيئاً لاشك فيه ، وهو أن هذا النقد إن لم ينفع الكتاب لم يضره . على أنى أختم هذه الكلمة بالاعتذار إلى هيكلم من خطأ أخذته به فكنت أنا المخطئ وكان هو المصيب ، أنكرت عليه استعمال كلمة «مهور» بالواو لا بالياء ، ونهى بعض الأدباء إلى أن هذا الاستعمال صحيح ، فرجعت إلى المعاجم فإذا الكلمة تستعمل بالياء والواو ، وإذا هى قياسية حين تستعمل بالياء ومسموعة حين تستعمل بالواو . وإذا فلم يخطئ الكاتب وإنما أخطأ الناقد ، وإذا فقد نقصت الأغلاط المطبعية واللغوية فى الكتاب ، وهذا شىء لا بأس به .

ولأنتقل من هيكلم إلى كاتب آخر لا يشبهه فى شىء . ومن كتاب هيكلم إلى كتاب آخر ليس بينه وبينه صلة ، لأنتقل إلى الأستاذ الرافعى وإلى كتابه فى فلسفة الجمال والحب . وأنا أشهد أن هذا الانتقال ثقيل مؤلم ؛ لأن الفرق بين الكاتبين عظيم وبين الكتابين أعظم .

الأستاذ الرافعى لا يحب النقد إلا أن يكون هذا النقد على هواه . وقد كنت أتحدث إليه يوم السبت الماضى فعرفت أنه يحب النقد على هذا الشرط ، ولم أكد أعلن إليه أن لى فى كتابه رأياً قد لا يرضاه حتى أعلن إلى متشدداً أنه سيرد على ، وطلب إلى رئيس التحرير متشدداً أن ينشر رده ذلك ، وهو يرى رئيس تحرير «السياسة» يدفع إلى رده على نقد كتابه يسألنى أن أنشره فى صحيفة الأدب . وإذا فأنا أكتب ما أكتب وأنا أعلم أن الأستاذ الرافعى

سيغضب وسيردّ ، وسيكون سخطه شديداً . وكل هذا ليس شيئاً ؛ فقد غضب ناس قبل الأستاذ الرافعي ، وسخطوا وردوا وأسرفوا في الرد ، فلم يصرفني ذلك عن رأي ، ولم يحولني ذلك عن مذهب .

وإنما الشيء العسير حقاً هو أن أنقد كتاب الأستاذ الرافعي . فكيف تستطيع أن تنقد كتاباً لا تفهمه ؟ وما رأيك في أني لا أفهم كتاب الأستاذ الرافعي ؟ لا أفهمه . ولقد اجتهدت في أن أفهم ، فقرأت وقرأت واستأنفت القراءة ، ولكني لم أفهم شيئاً .

ولقد ذكرت هذا أو بعضه للأستاذ الرافعي فقال : ولم تتخذ نفسك مقياساً للناس ! ثم لم نستطع أن نمضي في هذا الحديث الذي كان يمكن أن يكون قياً : لست أتخذ نفسي مقياساً للناس ، وإنما أتخذ نفسي مقياساً لنفسي ، فإذا قلت إنني لا أفهم فليس معنى هذا أن الناس لا يفهمون ، وإذا قلت أفهم فليس معنى هذا أن الناس يفهمون . ولكنك تسألني أن أنقد كتابك وأعلن رأيي فيه ، فلم تسألني هذا ؟ ألسنت تسألني إياه لأنك تريد أن يعرف الناس رأيي في كتابك ، ولأنك تظن أن كتابك قد يصيب خيراً قليلاً أو كثيراً حين أتناوله بالنقد ؛ وأنت قد سألتني أن أنقد كتابك ، سألتني هذا حين أهديت إلي هذا الكتاب ، وسألتنه حين كتبت إليّ في الصيف الماضي كتاباً جلولاً رقيقاً تطلب إليّ فيه أن أقول رأيي في الكتاب ، وإذا فلك علي أن أقول رأيي في الكتاب . وأن أقول في صراحة ووضوح ، وفي قصد واعتدال أيضاً . ورأيي في الكتاب أني لا أفهمه فلا أستطيع أن أقول إنه رديء أو جيد ، بل أستطيع أن أقول إنني لا أفهمه ، وإذا فلا يمكن أن يكون جيداً . ذلك أني وإن لم أتخذ نفسي مقياساً للناس فلست من الأميين ولا من الذين يشق عليهم أن يفهموا الآثار الأدبية القيمة . وإذا فإذا كتبت كتاباً لا سبيل إلي أن أفهمه فيجب أن يكون في هذا الكتاب عيب حال بيني وبين فهمه ؛ ذلك لأنني أقرأ القرآن فأفهمه ، وأقرأ الشعر فأفهمه ، وأقرأ ضرورياً من النثر العربي والأجنبي فأفهمها ، وأقرأ كتابك فلا أفهمه ، فيجب أن يكون كتابك شيئاً لا كالكتب ، ويجب أن يكون مذهبك في الكتابة شيئاً لا كالمذاهب .

والحق أني ترددت كثيراً قبل أن أكتب هذا الفصل ؛ فأنا أعلم أن الأستاذ الرافعي قد تكلف مشقة لا تكاد تعدلها مشقة في وضع هذا الكتاب ، ذلك

شيء يظهر واضحاً جلياً لمن يقرأ من هذا الكتاب أسطراً قليلة ، أو هو تكلف العناء في طبعه ونشره وأنفق مالا في هذا الطبع والنشر ؛ فقد يكون من الإسراف في القسوة أن تعرض لعمل كهذا فيه مشقة وعناء ومال ، فتعلن أنه غير جيد ، وتعلن أنك لا تفهمه .

ولكن ما رأيك في أن مثل هذه الكتب التي تزداد وتغلو الصحف في حمدها وتقريظها يتناولها الشبان فيقرءونها ويحتذونها ، فهموها أو لم يفهموها ، وتكون لها الآثار المختلفة في عقولهم وآرائهم وأساليبهم الكتابية ؟ أليس هؤلاء الشبان علينا حق أن نلقتهم إلى هذه الكتب ونعينهم على أن يقدروها قبل أن يقرءوها ؟ بلى ! لهم علينا هذا الحق . وأنا مضطر إلى أن أعتذر إلى الأستاذ الرافعي من أنني لا أستطيع أن أثنى على كتابه ولا أن أحث الشبان على قراءته .

تظلم الأستاذ الرافعي إن قلت إنه لا يشق على نفسه في الكتابة والتأليف ، بل أنت تنصفه إن قلت إنه يتكلف من المشقة في الكتابة والتأليف أكثر مما ينبغي . ولقد كنت أريد أن أقول إنه ينحت كتبه من الصخر ، ولكني أجد في هذه الحملة ما لا ينبغي لوصف هذه المشقة !

ومالي لا أتبسّط بعض الشيء : فأقول إن كل جملة من جمل هذا الكتاب تبعث في نفسي شعوراً قوياً مثلاً بأن الكاتب يلدها ولادة ، وهو يقاسى في هذه الولادة ما تقاسيه الأم من آلام الوضع ، ولو أنه ظفر بعد هذه الآلام بما تظفر به الأمهات بعد آلام الوضع ، لقلنا آلام قيمة لها نتائجها الحسنة وآثارها الخالدة ، ولكنه لا يظفر من هذه الآلام بشيء . فأنت لا تجد لذة في قراءة هذه الحمل المتعبة المكدودة التي شقت على كاتبها وهي تشق على قارئها .

وكذلك تظلم الأستاذ الرافعي إن قلت إن حظ من العلم باللغة العربية وآدابها وبدقائقها وأسرارها قليل ، وإنما الحق أن الذين يعلمون هذه اللغة كما يعلمها الأستاذ الرافعي قليلون جداً ، وأحسبهم يمحسون . والحق أن الذين يظهرون على أسرار هذه اللغة ودقائقها كما يظهر عليها الأستاذ الرافعي قليلون جداً ، وأحسبهم يمحسون أيضاً . ولكن ماذا تريد وقد أبت الأستاذ الرافعي ، أو أبت عليه فطرته ، أن يكون علمه باللغة مفيداً وأن يكون ظهوره على أسرارها نافعاً ! ماذا تريد وقد حرص الأستاذ الرافعي على أن يكون عالماً وحده منفصلاً عن هذا العالم الذي يعيش فيه .

كنت أصف العقاد في فصل مضى بشدة الغموض أحياناً ، وقد رضى الأستاذ الرافعي عن هذا الفصل وأنبأني أنه لم يرض عن شيء مما كتبت كما رضى عن هذا الفصل . ولكني أعترف بأن غموض العقاد أحياناً ليس شيئاً بالقياس إلى غموض الرافعي دائماً . فأنا لم أفهم مقدمة العقاد ، ولكن فهمت كتابه كله . أما كتاب الرافعي فقد قرأت مقدمته فلم أفهمها ، فقلت كتاب ككتاب العقاد ، فسأفهم رسائله بعد أن أعيتني مقدمته ، ومضيت في هذه الرسائل ، فليتني ما مضيت ؛ لأنني آتمت الكتاب ولم أفهم منه شيئاً .

يجب أن أكون منصفاً ، فأنت تستطيع أن تقطع كتاب الرافعي جملاً جملاً وأن تجد بين هذه الجمل طائفة غير قليلة فيها شيء من جمال اللفظ وبهرجه يخلبك ويستهوئك ، وفيها معان قيمة لا تخلو من نفع ، ولكن المشقة كل المشقة في أن تصل هذه الجمل بعضها إلى بعض وتستخرج منها شيئاً قيماً . لن تظفر من هذا بشيء ، وأكبر ظني أن الأستاذ الرافعي نفسه لا يحاول أن يقول شيئاً حين يكتب هذه الرسائل ، وإنما هو يذهب في النثر مذهباً غريباً ، فيتكلف العناء والمشقة في الغوص على المعاني الغريبة ، ثم يتكلف العناء والمشقة في أن يسبح على هذه المعاني الغريبة ألفاظاً غريبة ، حتى إذا تم له من ذلك خلق غريب رصّ هذا الخلق بعضه إلى بعض فاتسقت منه رسالة ، ثم يستأنف العمل حتى تتسق له رسالة أخرى ، ورسالة ثالثة ورابعة ثم يرص هذه الرسائل بعضها إلى بعض فيتنسق له منها كتاب .

وليس أدل على غموض الرافعي من هذه النادرة التي لا أراها تخلو من ظرف وأنا أترك للعقاد وأصحابه أن يصدقوها أو يكذبوها ، وهي أن العقاد أراد أن ينقد كتاب الرافعي فانتفع منه بما كتب على الغلاف ، واتخذ عنوان الكتاب وسيلة إلى أن يذكر مذهبه هو في فلسفة الجمال والحب . وأحسب أن العقاد لم يكتف بالغلاف في القراءة ، وإنما وصل إلى قلب الكتاب ، ولكنه اضطر أن يكتبني بالغلاف حين أراد أن يكتب لأنه لم يجد في الكتاب شيئاً .

ومن غريب الأمر أن لدينا في مصر رجلين : أحدهما فيلسوف الجمال والحب ، والآخر أديب الجمال والحب . فأما الأول فهو العقاد ، وقد قلت لك غير مرة إنني لا أفهمه أحياناً . وأما الثاني فهو الرافعي . وأنت تظن أن الفلسفة أشد عسراً على الفهم من الأدب ، وأنتك تستطيع أن تفهم الأديب في يسر ،

بل يجب أن تفهمه في يسر ، وأنتك تعذر الفيلسوف إذا وجدت مشقة في فهم فلسفته . ولكن الله أراد أن تنعكس الآية هذه المرة فتفهم فلسفة العقاد في الجمال والحب ، أو ما يسميه العقاد فلسفة الجمال والحب، ولا تفهم أدب الرافعي في الجمال والحب . وإذا أراد الله شيئاً فلا مرد له .

وأنا أريد الآن أن أختم هذا الفصل بطائفة قليلة من الجمل نتخذها نموذجاً لما في كتاب الرافعي من الغموض والإغراب والعسر . انظر إلى هذه القطعة البديعة : « اجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينيه نيفاً وأربعين سنة ، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله في فصول وأبواب جف القلم منها على نيف وأربعين جزءاً كلماتها في حوادثها ، وإن السطر منها ليرعد في صحيفته من الغيظ ، وإن الكلمة لتبكي بكاء يرى ، وإن الحرف ليئن أنيناً يسمع ، وإن تاريخه كله ينتفض لأنه مصيبة ملكية مصورة في ملك » .

اللهم إني أشهد أني لا أفهم شيئاً ، إلا أنه يشبه العمر بكتاب من كتب التاريخ، والحوادث بالكلمات التي تكتب في هذا الكتاب، والسنين بأجزاء الكتاب . فأما هذه السطور التي ترعد غيظاً في الصحف ، وأما بكاء الكلمات الذي يرى ، وأنين الحروف الذي يسمع فعلم ذلك كله عند الله وعند الرافعي ! ومع هذا فهذه الجملة أيسر ما في الكتاب . ومهما يكن من شيء فإن الذين يريدون أن يروضوا أنفسهم على الطلاسم واقتحام الصعاب وتجشم العظام من الأمور يستطيعون أن يجدوا في كتاب الرافعي ما يريدون .

أحسن إليّ وأنا مولاك

في صيف السنة الماضية أهدى الأستاذ الرافعي إليّ كتابه «رسائل الأحرار في فلسفة الجمال والحب» ، وكتب إليّ يسألني أن أقول في كتابه شيئاً ، وأن أحسن كما أحسن الله إليّ ، وألا أنسى نصيبي من الدنيا ولا أبغى . وإذا فقد كان يسألني أن أثني عليه ، وقد كان على هذا الثناء حريصاً . وقد كان يدبر في نفسه أني آمن " إن أجبتة إلى ما يريد فأثنت وأطريت ، وأنى معرض لحرب شعواء إن أبيت عليه الثناء والإطراء . وكان في كتابه أقرب إلى التضرع والتسول منه إلى الوعيد والتذير . وقد ضحكت من كتابه هذا وأهملته فيما أهمل ، ثم نقدت فلسفته في الجمال والحب ، فأغضبه هذا النقد . ويظهر أنه أغضبه إلى حد أن أفقده رشده وصوابه ، فكتب ما ستقرأ .

وفي الحق أني قرأت هذا الفصل الذي ستقرؤه ، فترددت بين اثنتين : رأيت أن فيه سفهاً كثيراً وشتماً منكراً وتجاوزاً لحدود الأدب والأخلاق ، فقدرت في نفسي أن نشره شر لأنه ترويج للمنكر . ورأيت أن الرجل قد هوجم في كتابه ، فمن حقه أن يدفع عن نفسه ، ومن الحق عليّ أن أنشر له هذا الدفع وإن كان قد أسرف فيه إسرافاً وأسف فيه إسفافاً ، وقدرت في نفسي أن الناس يقرءون مثل هذا الشر ويحتملون مثل هذا المنكر في طائفة من الصحف ، فليس عليهم بأس من أن يقرءوا سفه الرافعي ويحتملوا منكره مرة في « السياسة » . وقدرت في نفسي أيضاً أن للناس شيئاً من الحق في أن يظهروا بأنفسهم على أخلاق الكتاب وآدابهم ومناهجهم في الحوار وهم أحياء . وإذا كنت أكره أن أعرض لأخلاق الأحياء وآدابهم ، وإذا كان الرافعي قد أراد أن يعرض نفسه على الناس وأن يعرضها عارية مجردة كأشبع ما خلقها الله ، فليس من حق أن أحول بين الناس وبين هذه النفس ، وليس من حق أن أحول بين الرافعي وبين إظهار نفسه للناس كما خلقها الله في غير تكلف ولا تصنع . وقدرت في نفسي شيئاً آخر ، لو أن للرافعي حظاً من الإنصاف لقدّم إليّ

الشكر عليه . ذلك أن الرافي كغيره من الكتاب يستطيع أن يكتب ما يفهم وأن يقول أحياناً كلاماً يدل على شيء . وهو إنما يستطيع هذا حين يحس ويشعر ، ويريد أن يصف ما يحس ويشعر ، أى حين يكون صادقاً في وصف نفسه لا كاذباً عليها ولا واصفاً لها بما ليس فيها . وآية ذلك أنك ستقرأ هذا الفصل فتفهمه أو تفهم منه شيئاً كثيراً ؛ لأن نقدي إياه قد آذاه وأمضه ، فأحس شيئاً من الألم ، وأجرى هذا الألم قلمه بما كتب ، فكان صادقاً في وصف نفسه وإعلان ألمه ، ومن هنا كان مفهوماً . وهو إذاً يستطيع أن يكون مفهوماً حين يكون صادقاً . ومن هنا تستطيع أن تتبين العلة الصحيحة في أن فلسفته في الجمال والحب لا تفهم ولا تدل بجلتها على شيء ؛ ذلك لأنه لا يحس هذه الفلسفة ولا يشعر بها ولا يصف جمالاً يخلبه حقاً ، ولا يذكر حباً بعث قلبه على الخفوق ، وإنما هو يكذب على نفسه حين يزعم لها حب الجمال وفهمه ، ويكذب على قلبه حين يزعم له الخفوق بألم الحب ولذته ، ويكذب على الناس حين يزعم لهم أنه يصدر فيما يكتب عن حس وشعور . هو متكلف ، وهو يعرض لما لا يعلم ، وهو يصف ما لا يحس . ومن هنا تورط في سخف القول وهراء الحديث . ولكنه على كل حال يستطيع أن يكتب شيئاً يفهم إذا لم يكذب على نفسه ولم يصفها بما ليس فيها . فإذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يعشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة ، فهي أن يصدقوا حين يكتبون ، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ؛ ومن هنا فهمنا القدماء ، ولم نفهم هؤلاء السادة « المتقادمين » .

قدرت في نفسي كل هذه الأشياء ، فأثرت أن أنشر فصل الرافي وأنا مع ذلك معتذر إلى القراء من نشره ؛ لأنني لم أعدهم أن أنشر مثل هذا الحق في صحيفة الأدب . ومع ذلك فإني واثق بأن كثيراً من القراء سيشكرون لي نشر هذا الفصل ، لأنهم سيضحكون منه كما ضحكت ، وسيستعينون به على قضاء ساعة لا تخلو من فكاهة وتسلية . وما رأيك في رجل يزدريني ثم يكتب هذا الفصل الطويل فلا يدل به إلا على أن الله قد ملأ نفسه غلا وحقدًا وخوفًا من النقد وذعراً ! وما رأيك في رجل يفلسف في الجمال والحب ، أى يضع نفسه بين الفلاسفة بل بين كبار الفلاسفة ، فلم يفلسف منهم في الجمال والحب إلا قليل ، ثم لا تمنعه فلسفته أن يكون طفلاً ، فيتحداني ويطلب إلى أن أكتب كتاباً

ككتابه أو كفصل من كتابه . أستغفر الله ! ومتى أبيع لمثلي من الضعفاء أن ينهض لتقليد الرافعي ! أعترف بأني عاجز عن أن آتي بكتاب ككتاب الرافعي أو بفصل كفصول الرافعي ؛ لأن الله لم يرد أن أكون غامضاً غموض الرافعي ، ولا كاذباً على نفسي وعلى الناس كذب الرافعي ، ولا عابثاً بحمال هذه اللغة عبث الرافعي ، ولا متسولاً على الناس في المدح والثناء تسول الرافعي ، ولا حاقداً على الناقدين حقد الرافعي . أبي الله على كل هذه الحسنات ؛ فليس غريباً أن يعجزني كتاب الرافعي ، بل فصل من فصوله ، بل جملة من جملة . ستضحك حين تقرأ هذا الفصل ، ستضحك حين ترى الرافعي يعتب عليّ في غيظ وحقد . إني لم أسمه حين خطأتي في نقد هيكل لاستعمال كلمة « مهبوب » ! ولقد أحب أن يعلم الرافعي أنني لم أسمه لأنه لم يكن أول من دلت على هذا الخطأ ولا آخرهم ، وإنما سبقه إلى ذلك هيكل نفسه ، وروى لي في ذلك شعراً ، ثم دلت على هذا الخطأ الأستاذ « وحيد » في مقال نشرته له « السياسة » وراح لي إلى هذا الخطأ تلميحاً ظريفاً . فإذا كنت لم أسم أحداً فلم يكن ذلك نفاسة على الرافعي ولا بجحوداً لعامه باللغة ، وأنا الذي يقول في الفصل الماضي : إن الذين يحسنون العلم باللغة كما يحسنها هو قليلون .

ستضحك حين تقرأ هذا الفصل فترى الرافعي قد انتهى به الغرور والعجب إلى حيث خيل إليه أنه أغضبني ، وأني كنت أسمع كلامه فتبتلعني ثيابي ، وأني اقتلعت نفسي من المجلس اقتلاعاً ، بل فررت منه مرتين : تركته عند « عزمي » مرة وفررت إلى هيكل فتبعني ، فتركت له « السياسة » كلها وأخطأ حين فسر هذا الاقتلاع بأنه أثر الخوف أو ما يشبهه . ولو فسر به بشيء آخر يشبه استثقال الفضل واستبطاء الحركة لوفق لبعض الصواب . وأخطأ حين قدر أن ثيابي كانت تبتلعني وم تبتلعني ثيابي !

لقد يكون من الحق على الرافعي لو أنصف نفسه أن يعلم أنني من قوم قد بلوا السفهاء فأحسنوا بلاءهم ، وصبروا لهم واحتملوا منهم شراً كثيراً لاضجرين ولا متخرجين ولا مستخفين في ثيابهم . وإن رجلاً يحتمل من السفهاء مثل ما نحتمل منذ امتحن الله مصر في أخلاقها هذه الأعوام الأخيرة لخليق ألا يضيق صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء واحداً ، أو يبسم ثغره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء واحداً .

أحب أن يعلم الرافعي أني لا أضيع بالسفهاء ذرعاً، وقد أرى في سفههم سبيلاً إلى اللهو والتسلية . وأحب أن يعلم الرافعي أني بعيد كل البعد عن أن يغضبني فصله هذا أو يؤذيني ، وأنى إن أشفق على أحد من هذا الفصل فإنما أشفق على كاتبه ؛ لأنه كتبه وهو محموم أو كالمحموم ، وأشفق على قارئه لأنه سيقراً نكراً من القول هو إلى هذيان الحمى أقرب منه إلى كلام العقلاء . ولقد نقدت الناس من قبل الرافعي فلم أصانعهم ولم أرفق بهم ، وفيهم ضيق الصدر ، وفيهم من لا يحتمل النقد ولا يسعه ، فلم أجد منهم هذا الألم ولا هذا السخط ولا هذا الشيء الذي يذهب على الرجل بعقله وصوابه . ويحك ! وما عليك أن يقول الناس في كتابك إنه جيد أو رديء إذا كنت مقتنعاً بأن كتابك جيد ! ويحك ! وفيم تسأل الناس آراءهم في كتابك إذا كنت ضيق الصدر بهذه الآراء ؟ ويحك ! وفيم تغشى الناس في بيوتهم ودور أعمالهم ! وفيم تلح عليهم بالبريد مرة وبالبرق مرة أخرى ، وفيم ترسل إليهم الوسطاء وتتوسل إليهم بوجوه الناس ، ليتصدقوا على كتبك بكلمة ، إذا كنت لا تستطيع أن تقبل هذه الكلمة كما يريد صاحبها أن تكون ؟ ! ويحك ! ألامدح وحده تسلك هذه السبل وتصطنع هذه الوسائل وتتكلف هذه المشقات ! وما قيمة المدح يكره عليه صاحبه ! وما قيمة الثناء يبذله الرجل ليتخلص من ملح ثقيل ، كما يبذل الرجل درهمه في غير إحسان ولا حب للإحسان ولكن ليتخلص من هذا السائل الذي يتبعه في الطريق أو يأخذ عليه السبيل ! أفى هذا الثناء تطمع ، فإن ظفرت به فأنت سعيد ، وإن لم تظفر به فأنت كهذا السائل الملح يؤيسه العطاء فيتبع مانعه بالشم والسب !؟ ويحك ! إنك تذكر قوماً قرءوا كتابك وأثنوا عليه . أواثق أنت بأنهم قرءوه ؟ أواثق أنت بأنهم فهموه ؟ أواثق أنت بأنهم أثنوا عليه ؟ ألم يخطر لك أنهم إنما ذادوك عن أنفسهم وألقوا إليك طرفاً من الثناء ليكفوك عن اتباعهم والإلحاح عليهم ؟ صدقني ، فأقسم ما أريد بك إلا الخير ، وما أكتب هذا إلا مشفقاً عليك رقيقاً بك ناصحاً لك . إن الذين يخيل إليك أنهم يرضون عن كتابك لم يقرأه أكثرهم ولم يفهمه واحد منهم ، ولم يخلصوا في الثناء عليك ، وإن على هؤلاء الناس لوزراً غير قليل ؛ فهم يشجعونك على الإيغال في السخف ، ويبعثون في نفسك غروراً وإعجاباً بما كان ينبغي أن تستخزي له وتستحي منه .

رحم الله حفي ناصف ! إن لك معه قصة لم أنسها بعد ، قصة توسط فيها البريد وتوسط فيها البرق ، وتوسط فيها بعض الناس ، لينتزع من الرجل ثناء على كتاب من كتبك ، أحسبه « حديث القمر » .

رحم الله حفي ناصف ! لقد لقيته ذات يوم ، فإذا هو متبرم بك ساخط عليك ، يرسلك ويرسل كتابك معك إلى الشيطان ، وإن بين الأساتذة الأحياء لمن شهد معي تبرمه وسخطه في القطار بين القاهرة وحلوان .

لا تقل إذاً أنني على فلان وفلان ؛ ورضى عنى فلان وفلان ؛ فليس لهذا الثناء ولا لهذا الرضا قيمة ، ولكن قل نقدنى فلان وفلان ، وعابنى فلان وفلان ؛ فإن أصدق الناس فى نصحك والإخلاص لك هم الذين ينقدونك لا الذين يحمدونك . إن الذى يحمذك إما أن يكون كاذباً عليك ، وإما أن يكون متخلصاً منك ، وإما أن يكون محباً لك قد صرفه حبه عن عيوبك . فأما الذى ينقدك فهما يكن سبب النية ومهما يكن مسرفاً فى ظلمك والخور عليك ، فهو يدلك على عيوب أنت خليك أن تمتحنها فإن تكن فىك اجتهدت فى أن تبرأ منها ، وإن لم تكن فىك حمدت الله واجتهدت فى ألا تتورط فيها . كن عاقلاً ونحف حامدك أكثر مما تخاف ناقدك .

كن عاقلاً ، واعلم أن الثناء الخالص الذى لا يشوبه النقد إنما هو كالماء أذيب فيه كثير من السكر ، وتوشك إن أسرفت فى شربه أن يأخذك الغثيان ، وخير لك وأصلح لصحتك أن تضيف إلى هذا الماء والسكر عنصراً ثالثاً يحول بينك وبين التواء . فما كان لك ولا للناس نفع قليل أو كثير فى أن تقيء لهم من حين إلى حين رسائل أحزان أو شيئاً يشبه رسائل الأحزان ...

أما بعد ، فإنى أقوم مقام هيكل فأشكر ثناءك عليه وإكبارك إياه ، وأؤكد لك أنه ليس فى حاجة إلى هذا الثناء لينشر ما تبعث إليه من الفصول . وأؤكد لك مرة أخرى ، وقد أكد لك هيكل نفسه ، أنه لا يستطيع نشر هذه الفصول إذا لم أرد أنا نشرها ما دام إلى أمر صحيفة الأدب . ثم أؤكد لك أن رئيس تحرير « السياسة » يؤثر نقدى إياه على حمدك له ، لأن رئيس تحرير السياسة يؤثر الليمون على السكر الخالص . ثم أنصح لك ألا تدخل بينى وبين هيكل فتضطر نفسك إلى ما لا تحب . أحسبك لا تطمع فى أن أرد على ما فى فصلك هذا من رد على ما نقدتك به ؛ فأنت لم ترد إلا بشتم وسب . وما زلت أقول إن

هذا دليل على أن كتابك ليس جيداً . وما زلت أقول إنى أفهم القرآن وغيره من الآثار الأدبية القديمة والحديثة ، وإذا فعجزى عن فهم كتابك دليل على أن كتابك ردىء .

أما « السحاب الأحمر » فسأحدثك عنه ، ولكن حين أريد أن أحدثك عنه ، وكما أريد أنا وقواعد النقد ، لا كما تريد أنت وتهالكك على الثناء .

* * *

أرجو أن يتقبل الدكتور أحمد زكى أبو شادى منى أجمل الشكر لهذه الأبيات التى تفضل فأرسلها إلى يثنى فيها على حديث الأربعاء ، والتى أعتذر إليه من نشرها ، لا لشيء إلا لأنى أرى الشاعر قد أسرف فى حسن الظن بى ، وغلا فى الثناء على ، حتى حال بينى وبين نشر أبياته هذه ، فأنا أحتفظ بها عندى ، وأرجو أن أوفق لتصديق ظن الشاعر بى ورأيه فيما أكتب . وإذا كنت قد نصحت للرافعى بالألا يسرف فى حب الثناء وإذاعته بنوع خاص ، فأنا خليق أن أنتصح بما أنصح به للناس ، وأعيد للشاعر شكرى ، وأرسل إليه تحيتى الخالصة .

ولدى كتب أخرى أحب أن أنشرها اليوم ، ولكن ضيق المكان يضطرنى إلى أن أرجئها إلى الأسبوع الآتى . فلينتظر أصحابها فلن تهمل .

١ - أسلوب الأستاذ وحيد

٢ - مجلة الحديد للأستاذ محمود عزى

١ - سألتى منذ أسبوع كاتب أديب عن رأيي في أسلوب الأستاذ وحيد ، وقد كنت أريد أن أقول في هذا الأسلوب كلمة ، وكنت أرجئ هذه الكلمة من وقت إلى وقت حتى سألتى هذا الأديب ، فرأيت أن أجيبه في هذا الحديث . ولكن الأستاذ وحيد تعجل الأمر وسبقني إلى الإجابة ، فوصف نفسه بما أراد له تواضعه واقتصاده وحبه للاعتدال .

وليس من شك في أن للأستاذ وحيد أن يجيب من شاء بما شاء وكيف شاء . وليس من شك في أنى أعرف له رفقه بي وأشكر له ضنه بوقتي وأقدر له تواضعه . ولكن هذا كله شيء ، وحتى أن أتناول أسلوب الأستاذ وحيد بكلمة في هذا الحديث شيء آخر . وأنا شديد الحرص على هذا الحق شديد الضن به . فليعذرني الأستاذ إذا لم أكتف بجوابه ، وليعذرني إذا حرصت على أن أعلن رأيي في أسلوبه .

ليس من الحق أن أمر هذا الأسلوب « ضئيل بثيل » كما يقول صاحبه ، وإنما الحق أنه جليل بليل ، أو عظيم نظيم ، أو خطير بطير ، أو ما شاء الأستاذ وحيد من هذا الإتياع الذى يحسن أحياناً ويسوء أحياناً ، والذى يجيده الأستاذ وحيد كما يجيد غيره من ألوان التكلف اللغوى لإجادة يحسد عليها حقاً . ولقد قلت الكلمة ، وكنت أريد ألا أقولها إلا بعد تحفظ واحتياط ، وبعد أن أقدم بين يديها المقدمات ؛ لأنى لا أريد أن أسوء الأستاذ . وإذا كنت لا أريد أن أسوءه فليس ذلك لأنى أريد أن أجامله أو أصانعه ، وإنما هو لأنى آراه خليقاً ألا يساء ، بل آراه بالثناء حريماً برياً ! .

قلت الكلمة في غير تحفظ ولا احتياط . فلأفسرها لي تعلم الأستاذ وقراؤه أنى لم أرد بها شراً . وإنما أردت بها حقناً الخير .

الأستاذ وحيد ، أو قل أسلوب الأستاذ وحيد ، ظاهرة أدبية غريبة في

هذا العصر ، غريبة من وجوه عدة . فالناس لم يألفوا الكتابة على هذا النحو ، وإنما ألفوا أن يرسلوا النثر إرسالا مع الطبع ، فيكتبون كما يفكرون وكما يتكلمون . وإذا أرادوا أن يتكلفوا الإحسان ويستزيدوا من الإلتقان اجتهدوا في اجتناب التكلف ، وأحسنوا تخير ألفاظهم على أن تكون سهلة جزلة ، وحرصوا على أن تكون أساليبهم مستقيمة لا ملتوية ولا معوجة : وبعبارة مجملة . ألف الناس في هذه الأيام ألا يعوقوا القارئ بالتفكير في ألفاظهم وأساليبهم عن التفكير في آرائهم ومعانيهم ، لا أستثنى من هؤلاء الناس إلا قوماً لم يرزقهم الله حظاً من المعنى ولم يتح لهم أن يكونوا من ذوى الآراء ، وقد قضى عليهم أن يكونوا كتاباً ، فهم يتكلفون إجادة اللفظ وتعقيد الأسلوب والتحدث إلى الآذان حين عجزوا عن أن يتحدثوا إلى القلوب والعقول . أما الأستاذ وحيد فليس واحداً من هؤلاء ؛ لأنه لا يكتب ليبهز الناس بلفظ أو يسحرهم بأسلوب . وهو لا يرى نفسه كاتباً كبيراً ، ولا يزعم لنفسه مكانة ممتازة بين أهل الأدب . وهو لا يريد أن يروعك باللفظ ولا أن يسحرك بالأسلوب ، وهو لا يكتب ليكتب ، وإنما يكتب لأنه يريد أن يقول لك شيئاً . وقد يكون هذا الشيء عظيماً فيطيل فيه إطالة حسنة ، وقد يكون هذا الشيء سيراً فيوجز فيه إيجازاً بديعاً . وليس هو إذاً من عبید الألفاظ ، وإنما هو من أهل الرأي ، ولكنه مع ذلك يعنى باللفظ والأسلوب عناية خاصة لا يشاركه فيها أحد . وقد يكون من العسير جداً أن يشاركه فيها إنسان ؛ فأنت لا تقرؤه في سهولة ويسر ، وأنت مضطر إلى أن تحتل شيئاً من العناء قليلاً أو كثيراً لتفهم عنه وتصل إلى ما يريد . أما منذ حين فقد كنت تحتل هذا العناء في أسلوب الأستاذ وحيد ، فقد كان هذا الأسلوب شديد الالتواء ، فيه تعرج وانعطاف وفيه انثناء وانحناء . وقد كنت تجد الضمائر فتبحث لها عن المراجع ولا توفق لها إلا بعد شيء من الجهد . ولو أنك من الذين يقرءون اللاتينية واليونانية القديمة لشبهت لك جمل الأستاذ وحيد في طوره الأول بجمل هاتين اللغتين اللتين يريد منطقهما أن يكثر فيهما التقديم والتأخير ، حتى إن فهمهما يصبح أقرب إلى حل المسائل الحسابية منه إلى فهم الكلام المؤلف .

كنت أفكر كثيراً في اللاتينية واليونانية حينما كنت أقرأ فصول الأستاذ وحيد في طوره الأول . وكنت « أبني » كلام الأستاذ وحيد كما « يبني » الطلاب

جملهم اللاتينية حين يريدون أن يترجموها ، ، أو قل حين يريدون أن يفهموها ، ومعنى هذا البناء في اصطلاح الذين يدرسون اللاتينية واليونانية هو هدم الجملة التي وضعها الكاتب وإقرار الألفاظ في مواضعها كما يريد الفن ، بحيث يوضع المتبدأ في أول الجملة ثم يليه الفعل ثم يليه المفعول وما يشبهه على النحو الطبيعي . كنت أبني جمل الأستاذ وحيد فأرتبها كما يريد النحو ، لا كما يريد فن الأستاذ . وكنت أجتهد في تلمس النكت الفنية التي حملت الأستاذ على أن يقدم ويؤخر ويدور بمعناه دوراناً يتعب القارئ ويشق عليه ، فكنت أظفر بهذه النكت أحياناً وأخطئها أحياناً أخرى ، ولكنني كنت أجد في الحالين لذة وفكاهة ، وكنت أقول في نفسي إن عقل الأستاذ وحيد عقل لاتيني ركب في شخص عربي .

ولعلني أذكر أن كثيراً من الناس كانوا يجدون ما كنت أجد من المشقة في فهم الأستاذ وحيد ، وكانوا يجدون ما كنت أجد من الفكاهة واللذة في تحليل جملة كما نقول نحن ، أو في « بنائها » كما يقول طلاب اللاتينية واليونانية . ولعلني أذكر أنني حاولت تقليد الأستاذ وحيد واجتهدت في ذلك فلم أظفر بشيء ، ولم يقدر الله لي هذا الفوز ، ولكنه قدره لغيري ، فاستطاع اثنان أو ثلاثة أن يقلدوه فيحسنوا تقليده ، ولكنهم كانوا مقلدين ، أي متكلفين لا يصدرن عن طبع ولا يجرون مع سجية ، فلم يتح لهم جمال الصنعة الوحيدية الحرة .

ومهما أنس فلن أنسى مقالا نشرته الأهرام للأستاذ وحيد في حوار الأحرار للمستورين ، أراد صاحبه الجدل فكان آية الفكاهة ، وكان عنوانه : « ما قول فئة ما قولها ؟ » وقد أراد كتاب « السياسة » جميعاً يومئذ وأنا منهم أن يردوا على الأستاذ وحيد ، فأعياهم ذلك ولم يوفق له واحد منهم ثم انتدب صديقنا الأستاذ إبراهيم دسوقي أباطة فأجاب الأستاذ وحيد بمقال عنوانه : « ما قول فئة ما قولها » . ولقد اتقن الأستاذ دسوقي أباطة تقليد صاحبه يومئذ حتى خدعني عن نفسه ، وحتى خيل لي أن وحيداً قد رد علي وحيد . ولست أدري أكان جاداً أم مازحاً ذلك الذي زعم لي أن الأستاذ وحيد قد أعجب بهذا الفصل حين قرأه واعترف بأن في « السياسة » قوماً يحسنون الكتابة أو اعترف بشيء يشبه هذا . ولكنني قلت : إن أسلوب الأستاذ وحيد ظاهرة غريبة في هذا العصر .

ويجب أن أتم تفسير هذا الرأي ، فليست غرابة أسلوبه في التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والتأنيث والتذكير وإرجاع الضمير ، بل هي في ذلك كله وفي شيء آخر ، في تخير اللفظ الغريب الذي لم يألفه الناس أو لم يسمعه ، فتراه يبحث عن ألفاظ لم يسمع بها أحد من قبل ، وتراه يوفق لهذه الألفاظ في معاجم اللغة فيسرع إلى اصطناعها وإذاعتها ، ويكره قراءه على أن يعرفوها ويصطنعوها . ثم لا يكتفى بالغوص على الألفاظ الغريبة ، وإنما هو يحرص على الصيغ والأشكال أيضاً ، فيستعمل الصيغ القياسية إذا كان الناس قد ألفوا الصيغ السماعية ، ويلجأ إلى السماع إذا كان الناس قد ألفوا القياس . وأكبر ظني أنه يكبد نفسه ويشق عليها في البحث عن هذه الألفاظ والصيغ . وأكبر ظني أنه يرى هذا المثل الأعلى في الفن من جهة ، ويراه وسيلة إلى نشر اللغة وإذاعتها من جهة أخرى . وأكاد أقدر أنه يكتب كما يكتب الناس أول الأمر ، ثم يترجم هذه اللغة السهلة المألوفة إلى لغته الغريبة النادرة . على أن أسلوب الأستاذ وحيد قد تطور في هذه الأيام الأخيرة تطوراً شديداً ، تطور في شكله وصورته كما تطور في معناه وموضوعه وغايته ، فاستقامت الحمل ، واستقرت الألفاظ في مواضعها ، وقلت الضمائر ورجعت إلى مراجعها المألوفة ، وعرف المعرف ونكّر المنكر ، ثم اشتد البحث عن اللفظ الغريب والصيغ النادرة ، فقربت المسافة بين الأستاذ وحيد وبين أصحاب الرجز من الأعراب ، كروبة والعجاج وذى الرمة والشماخ ومن إليهم . وإلى هذا التطور في الشكل والصورة تطور الأسلوب في الموضوع والغاية ، فقصده الأستاذ وحيد إلى الهزل وافتن في المزاح ، وكأن هذا الأسلوب كان قد خلق لهذه الغاية ؛ فإن الذين يحبون الأستاذ والذين يكرهونه والذين يشاركونه في الرأي والذين يخالفونه فيه والذين يجلونه واضحاً جلياً والذين يجدونه عويصاً بويصاً ، كل هؤلاء يقرون لأسلوبه في هذه الأيام، وبعبارة أدق في هذه الأسابيع الأخيرة، بالظرف وخفة الروح . نعم ! خلق أسلوب الأستاذ وحيد للفكاهة لا للجد . وليس هذا غريباً ؛ فإنك لا ينبغي لك أن تكلفني مشقة التأويل والتحويل وجهد التقديم والتأخير إلا إذا كنت تكافئني على هذه المشقة وتثيبي على هذا الجهد . وقد تعودنا ألا نرى في الجد مكافأة ولا ثواباً ، وإنما المكافأة الحلوة والثواب اللذيذ هو هذه الفكاهة تسليك وتلهيك وأنت محزون مشغول ، وتحملك على أن تسيع

الجد ضاحكاً وإن كان مرّاً معنّاً في المرارة . وأى الناس يستطيع أن يجحد ظرف الأستاذ وحيد في استكشاف كلمة « الألبان » و « الفنخير » و « الفشوش » ! وأى الناس يستطيع أن يجحد ظرفه حين يفسر هذه الكلمات على نحو ما تفسرها معاجم اللغة ، ولكنهم يتخذ سعداً موضوعاً لهذا التفسير ! وأنا أريد أن أعود إلى الألبان بعد حين . وأى الناس يستطيع أن يجحد ظرف الأستاذ وحيد في هذا الإيجاز البديع الذي يوفق له أحياناً توفيقاً غريباً ، فيكتب المقال لا يتجاوز السطر والسطرين وإن فيه لشيئاً كثيراً ، وإن القارئ ليقرأ فإذا هو قد حفظه عن ظهر قلب . ولقد يستطيع الناس أن يقولوا في الأستاذ وحيد ما يشاءون ، ولكنهم لن يستطيعوا أن ينكروا أنه مرسل الأمثال في هذه الأيام . أليس هو الذي أرسل هذا المثل البديع « أما ألبان ! »

وقد قلت إنى أريد أن أعود إلى « الألبان » فأنا أخالف الأستاذ وحيد في ترجمتها إلى الفرنسية ، لا لأن هذه الترجمة خاطئة ، فهي ترجمة حرفية صحيحة ، بل لأنها لا تؤدي في الفرنسية ما نفهم من اللفظ العربي ، فنحن لا نفهم من لفظ الألبان كثير اللعب ، سواء أراد الأستاذ وحيد أو لم يرد ، وسواء أرادت المعاجم اللغوية أم لم ترد ، وإنما نفهم رجلاً يسرف في اللعب المضحك ، ويسرف فيه حتى يُسلى ويلهى ويبعث على الإغراق في الضحك . وواضح أن لفظ Grand joueur لا يؤدي هذا المعنى . وما رأى الأستاذ وحيد في أن نترجم هذه الكلمة بلفظ pitre فهو فيما أرى أوفق الألفاظ للدلالة على ما نفهمه من لفظ « الألبان » ، فهو يدل بالدقة على ما يفهمه الناس من لفظ « بلياتشو » . أليست هذه الترجمة أدق وأوفى ؟ !

واختيار لفظ الألبان هذا مظهر لذوق الأستاذ وحيد ، ويجب أن نعترف بأن هذا الذوق رقيق دقيق ، أو قل هو دقيق بقيق . فأنت تجد في القاموس ألفاظاً كثيرة مشتقة من اللعب تبدل على هذا المعنى نفسه ، تقول رجل تلعب وتلعب وتلعب وتلعب بفتح التاء وكسرهما . وللكلمة وجوه كثيرة كلها غريب وكلها قوى ، ولكن أقربها إلى الظرف والفكاهة هذه الصيغة التي اختارها الأستاذ وحيد ، صيغة « الألبان » . ولعل زيادة الألف والنون هي التي جعلت هذا اللفظ خفيفاً سائغاً محبباً إلى الآذان جارياً على الألسنة .

ولست أريد أن أترك أسلوب الأستاذ وحيد دون أن أذكر هذه البطاقات

Billets التي أخذ يرسلها منذ حين إلى الأخبار يضمنها أنباء فكاهية عن سعد، وهي تذكر ببطاقات أنطوان التي يرسلها إلى « الجورنال » كل يوم من ملاعب التمثيل .

وجملة القول في أسلوب الأستاذ وحيد أنه ظريف كل الظرف إذا ذهب به الكاتب كما يذهب الآن مذهب الفكاهة والمزحل . فأما إن قصد به إلى الجدل فذلك شيء آخر .

* * *

واندع أسلوب الأستاذ وحيد على كره منا لنتقل إلى مجلة « الجديد » . وأؤكد لعزى أنى شديد الرغبة في أن أتحدث عن « الجديد » ، وشديد الحرص بنوع خاص على أن أقرأه وأتدبره ؛ فقد يكون « عزى » صديقاً لي ، ولكنى لأفكر في صداقته حين أكتب ، وإنما أفكر في شيء آخر يصل بينه وبين الذين يقرؤونه من أحبائه وأعدائه ، وهو أنه خفيف الروح جذاب شيق التفكير ، وأى الناس لا يجب أن يقرأ فصلاً تظهر فيه خفة الروح ، ويظهر فيه تفكير شيق قوى ! .

لو أنى أردت أن أميز عزى من الكتاب السياسيين – فعزى لا يتشدد بالأدب ولا يتمدح بأنه أديب ، ولا يلصق نفسه بالأدباء إلصاقاً – لميزته بخفة روحه ، وميله إلى الطرافة والابتكار ؛ ولعل أحسن مميزات له ولشخصيته الكتابية بنوع خاص هو اسم مجلته « الجديد » ، فعزى جديد حين يتكلم ، جديد حين يكتب ، جديد حين يفكر ، هو جديد في لفظه ومعناه .

وما رأيك في هذه الثقافة « البيضاء المتوسطة » التي تجدها مرات في مقدمة مجلته ، والتي يترجم بها اللفظ الفرنسي : Culture Mediteraneenne ، يريد ثقافة الأمم التي عاشت حول البحر الأبيض المتوسط . أراد أن يعبر عن هذه الثقافة تعبيراً موجزاً شاملاً فجعلها بيضاء متوسطة ، كما أن الناس جعلوا البحر أبيض متوسطاً .

هذا تعبير مترجم ، وهو جديد كعزى . ولست أخفى على عزى أنى أقبل لفظ « الثقافة » وأقرأه وأعين على إذاعته واستعماله ، ولكنى لا أحب هذه « البيضاء المتوسطة » . وأستطيع أن أسمي ثقافته البيضاء المتوسطة هذه ثقافة يونانية رومانية . فقد يكون من الحق أن الحضارة نشأت في مصر ونقلها الفينيقيون

إلى اليونان ، ولكن هناك حقاً آخر لاشك فيه قد يغضب المتعصبين للشرق ، ولكن هذا لا يغير منه شيئاً؛ هذا الحق هو أن الثقافة البيضاء المتوسطة ليست شيئاً آخر غير الثقافة اليونانية اللاتينية في عصرها القديم والحديث . فلنسمها إذاً بهذا الاسم . فهو صحيح ، وهو خفيف على السمع ، وهو برىء من التكلف الذى نجده فى هذا البياض والتوسط . ولكن عزمى جديد يشذ عن المألوف دون أن يشذ عن هذا الشذوذ ! وهو يفكر بالفرنسية ، فإذا كتب فى العربية فهو إنما يترجم إليها . ولعلك تذكر له « منطق الأشياء » « وطبيعة الأشياء » يريد أن يترجم من الفرنسية *La logique des choses. La nature de choses* . ولعلك تذكر له « المعلومة الأولى » و « المعلومة الثانية » يريد أن يترجم

La donnée التى هى ترجمة فرنسية للكلمة اللاتينية *Data* . كل شىء عند « عزمى » جديد ، وقد يغرق أحياناً فى الجدة فيجعل على نفسه سبيلاً ، ولكن الإنصاف يقضى بأن نقول إنه لا يتكلف هذا تكلفاً ، لا يقصد إليه حباً فى البدع ، وإنما هو مضطر إليه اضطراراً ، كأنه قد فقد طبيعته القديمة فى التفكير والتعبير ، واستبدل منها هذه الطبيعة الفرنسية والحديدة . هناك خطأ فى التعبير يمضك ويثقل عليك حين تلقاه ، وهناك خطأ آخر يحملك على الابتسام ، وربما بعثك إلى الضحك والإغراق فيه ، ومن هذا الخطأ اللغوى المضحك الخفيف ، خطأ عزمى الذى يضطر إليه حين يترجم عن الفرنسية . على أنى لا أريد أن أطيل فى هذه الملاحظات العرضية ، فلنهمج على الموضوع هجوماً ، ولنهى عزمى بهذه المجلة المصرية الراقية التى كان المصريون وما زالوا فى حاجة إليها .

ولكن ما موضوع هذه المجلة ؟ كنت أحب أن يكون الأدب من موضوعاتها ، لتكون مجددة فى الأدب كما هى مجددة فى السياسة وفى غيرها من فروع الحياة . ولكنى لم أر إشارة إلى الأدب فى مقدمة عزمى ، أذلك لأنه لا يتكلف الأدب ولا يدعى العلم به ؟ ولكنه لن يكتب مجلته وحده ، ولن يعوزه الأعوان على التجديد فى الأدب ، وإذا فليفتح عزمى للأدب باباً فى مجلته ، فليست حاجة الناس إلى الأدب أقل من حاجتهم إلى السياسة وما يشبهها . وهل يغضب عزمى إذا أخذته بشىء كنت أحب ألا أخذه به ، ذلك أنه يذكر الصلات بين مصر وغيرها من البلاد العربية ، فيذكر الحوار واللغة

وفعل التاريخ . وما فعل التاريخ هذا ؟ وما الذى يريده عزمى ؟ أيريد الفتوح
واتصال العلاقات السياسية ؟ ولأكن صريحاً ، ولنسأله أين الصلات الدينية ؛
ولم لا يذكرها ؟ ولم يدمجها إدماجاً فيما يسميه فعل التاريخ ؟

ولألاحظ ملاحظة أخرى على عزمى . فهو يريد أن يكون التعليم الأولى
فى مصر مدنياً خالصاً لا صلة بينه وبين الدين . وهذا رأى جديد له أنصاره
ومؤيدوه ، ولست أناقش عزمى فى حسنه أو قبحه ، ولكنى ألفت عزمى إلى أن
تحقيق هذه الفكرة يستلزم تحقيق فكرة أخرى ، وهى أن تكون الدولة مدنية
ليس لها دين رسمى ، فأما أن تكون الدولة مسلمة أو مسيحية ويكون التعليم
مدنياً خالصاً ، فذلك شىء لا يستقيم فى « منطق الأشياء » ! .

أضف إلى هذا أن عزمى معتدل فى السياسة ؛ فهو يريد أن تتحقق آمالنا
السياسية على اختلافها فى تطور هادئ ، ولكنه متطرف فى غير السياسة ،
فهو يريد ثورة اجتماعية خلقية . ولعل هذا هو الذى حمله على أن يطالب بالتعليم
المدنى دون أن يطالب بالفصل بين الدولة والدين . ولست أخفى على عزمى أنى
أكره الثورة الاجتماعية كما يفهمها هو وكما يصفها كُرْهى للثورة السياسية ،
ولا أستطيع أن أتصور بلداً يثور أهله على أخلاقهم وعاداتهم ونظمهم الاجتماعية
دون أن يثوروا على نظمهم السياسية أيضاً فليست النظم السياسية شيئاً مستقلاً
عن النظم الأخرى ، وإنما هى حلقة من حلقات هذه النظم . ولولا اضطراب
فى نظمنا الاجتماعية والخلقية لما اضطربت نظمنا السياسية ؛ ولا أكاد أفهم
فى وضوح هذه الحياة الدستورية البرلمانية التى يريدها عزمى لمصر ، على أن
تكون مرنة تتشكل بمقدار مالنا من رقى أو انحطاط . فما رأى عزمى فى الدستور
الذى ينظم حياتنا الآن ، أملاًم هو لهذه الحياة أم مخالف لها ؟ أكثر هو
علينا أم قليل ؟ أفى حاجة هو إلى أن ينقص أم فى حاجة إلى أن يزداد ؟

أفهم أن عزمى كاتب سياسى ، وأفهم أن الكتاب السياسيين يحبون المرونة ،
ويؤثرون العبارات التى تضطرب بين الوضوح أو الغموض . ولكن عزمى يكتب
للمستنيرين ، أى لقوم يحبون أن يفهم بعضهم بعضاً ، وإذاً فليكتب لهم لغة
العقليين لا لغة السياسيين . ولقد أريد أن تكون آراء عزمى مبسطة فى شكل
أوضح وأجلى مما بسطت فى المقدمة .

ومهما يكن من شىء فلن يجد عزمى من هؤلاء المستنيرين الذين يكتب

هم إلا عوناً وتأييداً . وليس معنى هذا أنهم سيشاركونه في كل رأى ، وإنما هم يؤيدونه ويعينونه حتى حين يخالفونه في الرأى . وأنا أعلم أن صاحب « الجديد » سيكون جديداً من هذه الناحية ، فلا يغضبه نقد ، ولا يسوءه خلاف . وعلى هذه القاعدة أتقبل مجلته ، وأعده بأن أكون أحد المجددين فيها متى أذنت لى الظروف .

لدى كتب تختلف طولا وقصراً من الأدباء : حسن بهجت ، وشديد محمد رضوان ، وصادق راشد ، وكلها حول نقد الأستاذ الرافعى . فأنا أشكر لهم هذه الكتب ، وأعتذر إليهم لأنى أريد أن أغلق هذا الباب . أما كتاب العقاد فسأشره فى الأسبوع الآتى ، إرضاء للأديب صادق راشد والعقاد نفسه ، إذا كان هذا يرضيهما .

في الشعر

الملاح التائه - لعل محمود طه

أعود الآن إلى هذا الحديث بعد أن صرفتني عنه الحياة وخطوبها أعواماً إن لم تبلغ العشرة فليست تنقص عنها إلا قليلاً . وأريد أن أمضي في هذا الحديث كما كنت أمضي فيه من قبل ، حرّاً طليقاً ، لا أقيد نفسي بزمان ، ولا بمكان ، ولا بلون من ألوان الأدب ، ولا بفن من فنون البحت ، إلا أن يكون هذا الشيء الذي التزمته فيما مضى ، وأحب أن التزمه فيما يقبل من هذا الحديث ، وهو ألا أتجاوز به الأدب العربي إلى غيره من الآداب .

ولكن الأدب العربي واسع ، بعيد الأطراف مختلف الفنون متباين الأزمنة والأمكنة ، فلا على أن أتقل بهذا الحديث من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن فن إلى فن ، لا أتبع في ذلك إلا ظروف القراءة وأهواءها ، وظروف القراءة غير المنظمة ، ولا المضطربة ، ولست أكره ذلك ولا أشفق منه ، ولعل أن أجد فيه شيئاً من الخير لهذا الحديث ، فإن في الاختلاف والتنوع لذة غير مجهولة ، وقد يكون النظام والاضطراد والمحافظة الدقيقة ، على اختلاف الموضوعات وتشابه فنون الحديث ، ومن الأمور التي إن أعجبت في الكتب فهي ثقيلة مملولة في الصحف ، وحسب الصحف أنها تصدر في نظام واضطراد ، فلا أقل من أن يختلف ما تشتمل عليه ويتنوع ويلهى بعضه عن بعض ، ويريح بعضه من بعض .

وليس من اليسير على أن أستأنف هذا الحديث ، وأن أمضي فيه كما كنت أمضي فيه من قبل بعد أن طال العهد وبعد الأمد ، ودفعت إلى أعمال مختلفة أنستني مذهبه وأسلوبه إلى حد بعيد ، فقد احتاج إلى شيء من التجربة والمران لتستقيم لي طريقه على ما أحب ، أو على قريب مما أحب ، وعلى ما يرضى القارئ أو على ما لا يسخطه ويسلمه إلى السأم أو يضطره إلى النوم . وما أعرف أني شعرت بالحاجة إلى أن أستأنف هذا الحديث كما أشعر بها الآن ، لا لأنني

فرغت لتحرير هذه الصحيفة وإصدارها في حياتنا والحمد لله على الخير والشر ما نستطيع أن نتحدث عنه في الصحف ، وأصدقائي وأصحابي والذين يتصلون بي ويختلفون إلى يعلمون أنني شديد الميل إلى استئناف هذا الحديث منذ زمن بعيد ، ومنهم من كان يدفعني إلى ذلك دفعاً ، ومنهم من كان يردني عن ذلك رداً ، بل لأن حياتنا الأدبية في هذه الأعوام قد تعقدت بعض التعقد ، واختلطت أمورنا بعض الاختلاط ، وظهرت فيها فنون من الإنتاج لم تكن موجودة أو لم تكن ظاهرة الوجود قبل عشرة أعوام . وصرفت أنا عن هذه الحياة إلى أعمال التعلم والإدارة في الجامعة حيناً ، ثم إلى أمور السياسة والجدال في مشكلاتها حيناً آخر . حتى لقد كان يمر بي العام وأكثر من العام لا أقرأ شيئاً من أدبنا الحديث ، أو لا أكاد أقرأ منه شيئاً . إنما هو الانصراف المطلق إلى الأدب القديم حين كنت أدرسه في الجامعة ، والانصراف المطلق إلى السياسة حين أعمل في السياسة ، والإلمام اليسير بالأدب الأجنبية ألتبس فيها من حين إلى حين من الغذاء العقلي والفني ما لا بد منه للرجل المثقف الذي يريد أن يعيش عقله وقلبه من جهة ، وأن يلتقي الناس فيتحدث إليهم ويفهم عنهم من جهة أخرى حتى انقطعت الصلة أو كادت تنقطع بيني وبين حياتنا الأدبية المعاصرة . وكنت شديد الضيق بذلك ، كثير التبرم به والشكوى منه ، ولكن كتابنا وشعراءنا كانوا أشد مني بذلك ضيقاً وتبرماً وأكثر مني سخطاً على ذلك وإنكاراً له ، وكانوا يظلمونني ، فيسرفون في الظلم ، ويقضون على فيشتطون في القضاء . يزعمون أنني أتعمد الإعراض عنهم والغض منهم وأكره إنصافهم والتحدث عن آثامهم ، وشهد الله ما عرضت ، ولا هممت بالإعراض ولا غضضت من أحد ولا هممت بالغض منه ولا كرهت إنصاف آخر ، ولا رغبت عن أن أؤدي إليه حقه . إنما هي حياة ثقيلة كريمة فرضتها على الظروف فرضاً واحتملتها لأنني لم أكن أستطيع شيئاً آخر . وكان كتابنا وشعراؤنا يتأولون هذا الصمت عن آثامهم ، فيسرفون في التأول ويتجاوزون الحق . ومنهم من كان يتجاوز الخلق الكريم في التفسير كأنما هم يظنون أن الحياة لعب ، نصرها كما نشاء وندبرها كما نحب ، وإن الكتاب إذا انتهى إليك لم تكده تأخذه حتى تنظر فيه ولم تكده تبدؤه حتى تتمه ، ولم تكده تفرغ منه حتى تناله بالنقد أو التقرير ، ثم ترسل ذلك إلى صحيفة من الصحف ، فإذا هو منشور وإذا

صاحب الكتاب راض عنك ، أو ساخط عليك ، ولكنه ظافر بحقه منك على كل حال ، لأنك لم تهمله ، ولم تسلمه إلى الإغضاء ، أو الإهمال ، أو إلى التجاهل والنسيان .

ومثل هذا الظن إنما يخطر للذين فرغ بالهم ونخلت حياتهم مما لا تخلو منه حياة بعض الناس . ولكن ماذا ؟ أراني دفعت إلى شيء من القول لم أكن أريد أن أدخل فيه وأكبر الظن أنها العدوى قد أصابتني من صديقي المازني ، فلأعد إلى نفسي ولأخذ فيما أردت أن أتحدث فيه .

ولأعلن مسرعاً إلى كتابنا وشعرائنا أني سأبذل ما أستطيع من الجهد ، لأفرغ لهم بعض الوقت منذ اليوم .

فأقرأ ما كتبوا وما يكتبون ، وأتحدث إليهم وإلى قرائهم وقرائي بما أرى في آثارهم وأنا أعلم حق العلم أن هؤلاء الكتاب والشعراء أو أن كثيراً من هؤلاء الكتاب والشعراء الذين كانوا يكرهون مني الصمت ، وينكرون عليّ السكوت ، ويتهمونني بالإعراض والإغضاء ، ويسرف بعضهم فيتهمني بالحسد ، وبما هو شر من الحسد ، سيتمنون لو أني مضيت في الصمت وأغرقت في السكوت وسيقولون في أنفسهم وسيقول بعضهم لبعض ليتنا ما أثرناه ولا دعونا ، إذن لاسترحنا منه ، كما كنا مستريحين ، ولأرحنا من أنفسنا ، كما كنا نريجه ولضئ كل منا لشأنه . . . ! ولكن ماذا يريدون وقد كرهوا الصمت ، فسأمنحهم الكلام ، فأما إن كرهوا الكلام فلن أمنحهم الصمت ، ولكن سأمضي إن شاء الله فيما قصدت إليه ولهم عليّ العهد وما عرفتني مخلفاً للعهد قط - ألا أحلمهم شططاً وألا أتعمد الإساءة إلى أحد منهم ، أو أتجاوز الإنصاف مهما تكن الظروف ، وأنا أعلم أن بين قوم منهم وبينى إحناً وصروراً ، ولكن أقسم لأعرضن عن هذه الإحن والصرور ، ولأمتنعن عن أن أخلى بينها وبين ما يجب من الإنصاف والقسط ، حين يكتب الكاتب وينظم الشاعر ، ثم يأتي الناقد فيعرض لما نظم هذا أو كتب ذلك . ولكن ماذا ؟ ! يظهر أن سلطان المازني عظيم ، وأن التخلص من عدواه ليس بالشيء اليسير ؛ فقد بدأت هذا الحديث بعنوان ولم أصل بعد إلى هذا العنوان ، وإنما أنا أدور حول الموضوع - أستغفر الله - بل أنا أدور بعيداً عن الموضوع دون أن أدنو منه فضلاً عن أن أصل إليه . ولو أني جاريت نفسي ومضيت أملئ ما يمر بها من الخواطر

لقلدت المازني تقليداً تاماً ، ولأتممت هذا الفصل قبل أن أبلغ الملاح التائه ، ولاضطررت أن أعد القارئ والشاعر بنقد هذا الديوان البديع في فصل آخر يذاع بعد أسبوع . ولكني لا أريد أن أقلد المازني ولا أريد أن أدور حول النقد ، فصلاً كاملاً دون أن أبلغه ؛ ولهذا خادعت نفسي عن نفسها ، وبدأت النقد على غير شعور منها ولا التفات . فهأنذا قد وصفت الملاح التائه بأنه ديوان بديع ، وإذاً فقد سجلت على نفسي رأياً من الآراء وحكماً من الأحكام . ولا بد لي من أن أحتمل تبعه هذا الرأي وأبين أسباب هذا الحكم ، ومن أن أحتمل تلك التبعة وأبين هذه الأسباب في هذا الفصل نفسه ، لا أنتظر ولا أضطر القارئ إلى الانتظار . فإلى اللقاء يا صديقي المازني ؛ فقد أتأثر بأسلوبك ، وقد أدور كما تدور في الأسبوع المقبل ، إن شاء الله ، حول كتاب من النثر أو ديوان من الشعر . أما الآن فإني أهدي إليك التحية الصادقة ، وأودعك لألقى « الملاح التائه » .

* * *

وأنا مشوق جداً إلى لقاء الملاح التائه ، فلم أكن أعرفه قبل أمس ، ولست أدري ألقيته أم لم ألقه ، فما أكثر من ألقى من الناس ، ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، ثم نفترق فكأنني لم أعرفه . لم أكن أعرف الملاح التائه لا من قرب ولا من بعد ؛ فقد كنت أسمع اسمه ، وكان يقال لي إنه مهندس ، يقرض الشعر ، وكنت أحب ذلك وأرضى عنه ؛ لأنني أحب أن يعنى العلماء بالأدب والفن ، وأن يفرغوا لهما من حين إلى حين ، ويستريحوا إليهما من عناء الحياة وجهد العلم . وكنت إذا سمعت الناس يُعجَبُونَ بهذا المهندس الشاعر ، وسمعتهم يعجبون بشاعر آخر طيب ألقاه من حين إلى حين ، أبتسم في نفسي وأحس شيئاً من الرضا ؛ لأنني أرى العلماء مقبلون على الأدب ، فيسبقون فيه الأدباء الخالصين إلى حد بعيد ، ويجمعون لأنفسهم تفوقاً في الأدب ، وتفوقاً فيما يعالجون من علم أو فن ، على حين لا يستطيع الأدباء أن ينهضوا بأدبهم إلا متعثرين . ولكنني على ذلك كله أعترف ، وياله من اعتراف مؤلم بأنني لم أقرأ لهذا المهندس الشاعر قبل أن يصل إليّ ديوانه قليلاً ولا كثيراً . فكنت إذاً أجهله جهلاً تاماً ، أجهل شخصه ، وما زلت أجهله إلى الآن ، وأجهل فنه ، ولكنني بدأت أعرفه منذ أمس ، وأنا سعيد بهذه المعرفة كل السعادة ، مغتبط بها أحسن الاغتباط ؛

لأنها أرضت نواحي من نفسى كانت فى حاجة إلى أن ترضى ، ولأنها أسخطت نواحي من نفسى كانت فى حاجة إلى أن تسخط . وأنا أريد أن أكون صريحاً ، فقد سبق العهد منى بذلك . فلو أنى قلت لمهندسنا الشاعر أو لشاعرنا المهندس إن معرفته أرضتني من كل وجه لكذبت عليه ، ولو أنى قلت له إن معرفته أسخطتني من كل وجه لكذبت عليه أيضاً . ولكنى عرفته فرضيت ، وسخطت ، وأنا سعيد بهذه المعرفة التى أتاحت لى هذا المزاج الذى أحبه من الرضا والسخط .

فأما أن معرفتى لشاعرنا المهندس قد أرضتني فلأن شخصيته الفنية محببة إلى حقاً ، فيها عناصر تعجبني كل الإعجاب وتكاد تفتنني وتستهويني ، فيها خفة الروح ، وعدوبة النفس ، وفيها هذه الحيرة العميقة ، الطويلة العريضة ، التى لا حد لها ، كأنها محيطة لم يوجد على الأرض . هذه الحيرة التى تصور الشاعر ملاحاً تائهاً حقاً ، والتى تقذفه من شك إلى شك ، ومن وهم إلى وهم ، ومن خيال إلى خيال ، والتى لا تستقر به على حقيقة حتى تزعجه عنها إزعاجاً وتدفعه عنها دفعاً ، وتقذف به إلى حقيقة أخرى لا يكاد يدنو منها ويتبينها بعض الشيء حتى يراها أشد هولاً وأعظم نكراً ، وإذا هو يهرب منها ويجد فى الهرب ، وإذا هو يلتمس جبلاً يعصمه من الماء فى هذا البحر الطاغى فلا يجده ، أو قل لأنه لا يكاد يجده ويستقر عليه مستريحاً بعض الشيء مما احتمل من عناء وتكلف من جهد ، حتى يبلغ الماء قمته ، ويوشك أن يغمره كله ، وإذا صاحبنا مفلت هارب يلتمس جبلاً آخر . ولولا أن له جناحين قوين يطير بهما فيبعد فى الطيران ، ويرتفع بهما فيمعن فى الارتفاع ، لغمره البحر واحتواه الماء ، ولانتهى إلى قرار من الظلمة والهلكة لم يصل إليه الشعراء بعد .

لقد صحبت الملاح التائه فى قصيدة سماها « الله والشاعر » فأحسست كل هذا الذى صورته لك آنفاً ، ورأيت رجلاً لا هو بالشاك المطمئن إلى الشك ، ولا هو بالمستيقن المطمئن إلى اليقين ، ولا هو بالمنكر المستريح إلى الإنكار ، وإنما هو رجل مضطرب حقاً ، مضطرب أشد الاضطراب ، يؤمن بالقضاء والقدر ، ثم يثور بالقضاء والقدر ، يرضى أحكام الله ثم يجادل فيها ، يشكو ثم يستسلم ، ويستسلم ثم يشكو . رجل حائر دائر هائم لا يستطيع أن يستقر . وأكبر ظنى أنه لو استقر لكان أشقى الناس ؛ فهو سعيد بحيرته ، مغتبط بهيامه

مبتهج بهذا التيه الذى دفعته إليه نفس طموح جداً لأنها نفس شاعر ، عاجزة جداً لأنها نفس إنسان .

لست أنسى أنى ذهبت فى بعض أيام الصيف مع جماعة من الأصدقاء نستريح فى مدينة « فونتنبلو » وكان بين هؤلاء الأصدقاء رجل أحب شىء إليه أن يخرج للنزهة ، فيمضى فى غير طريق ويسعى على غير هدى ، وكان إذا خرجنا معه إلى الغابة لم نلبث أن نسمع منه هذه الجملة : « هلم نضل فى الغابة ساعات » . وكان سعيداً كل السعادة حين يضل . ولكن غابة فونتنبلو على سعتها واختلاطها محدودة لا يلبث الضال فيها أن يهتدى . أما الغابة التى يألّفها شاعرنا المهندس فليست محدودة لأنها ليست فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما هى فى الكون ، وأهى الكون الذى هو أكبر من الأرض والسماء . فإذا ضل فيها شاعرنا فليس إلى أن يهتدى من سبيل . والواقع أن لم يهتد ، وأنه إن مضى على حاله هذه فلن يهتدى أبداً . وأكبر الظن أنه يحسن الإحسان كله إذا وضع فى هذه الصحراء التى يهيم فيها ، أو فى هذه الغابة التى يضل فيها ، أعلاماً يهتدى بها فى الظلمات . وأكبر الظن أنه يجد هذه الأعلام لو تعمق فى قراءة الفلسفة وفى قراءة طائفة من الفلاسفة بنوع خاص . وليس عيباً على الشاعر أن يقرأ ولا أن يكثر القراءة ، وإنما يعيب الشاعر ألا يقرأ أو ألا يقرأ إلا قليلاً .

ولعل شاعرنا المهندس إذا قرأ وأكثر القراءة حمى شعره من بعض ما قد يعاب به . فشاعرنا يلتقى فى بعض الطريق مع جماعة من الشعراء والفلاسفة . وأكبر الظن أنه يلقاهم مصادفة ، ولعله أن يكون قد قرأ لبعضهم شيئاً . ولكن المحقق أنه لا يسعى إليهم ، ولا يعتدى عليهم . فلو أنه قرأ وأكثر القراءة ونظمها ، وقيد ما يستخلصه منها ، لظهر فى شعره ما يدل على أنه قد سعى أو لم يسع إلى هذا الفيلسوف أو ذاك . ولما استطاع أحد أن يظن به السعى أو الاعتداء .

ومن الكتاب من يقول إن شاعرنا تأثر بأبى العلاء ثم يضيق بهذا التأثر . ولست أدري أنأثر شاعرنا بأبى العلاء حقاً أم تأثر بيرون أم تأثر بهما جميعاً ويقوم آخريين غيرهما أم لم يتأثر بأحد ، وإنما لى من لى من الشعراء والفلاسفة مصادفة وعلى غير قصد ولا عمد . وأحس أنا فى قصيدة أخرى سماها « غرفة الشاعر » روحاً « لموسيه » ، ولكنى لا أدري أهو روح الذى قرأ فتأثر أم هو

روح الذى أحس فتالم ، فشكا ، فلقى موسييه فى هذا كله أو فى بعضه .
ولست أتردد فى الرضا عن هذه القصيدة والحب لها والإعجاب بها . ولست
أكره أن تشاركنى فى هذا الرضا وأن تشاطرنى هذا الحب والإعجاب ، فاقراً
معى هذه القصيدة وقف معى عند بعض أبياتها وقفات قصاراً :

| | |
|---------------------------|------------------------------|
| ل وما زلت غارقاً فى شجونك | أياها الشاعر الكئيب مضى الـ |
| ر وللشهد ذابلات جفونك | مسلماً رأسك الحزين إلى الفكـ |
| فى ارتعاش تمر فوق جبينك | ويد تمسك اليراع وأخرى |
| سك يطغى على ضعيف أنينك | وفم ناضب به حر أنفا |

* * *

| | |
|---------------------------|-------------------------------|
| ل ولا يزدهيك فى الإبراق | لست تصغى لقاصف الرعد فى اللـ |
| ت ودب السكون فى الأعماق | قد تمشى خلال غرفتك الصمـ |
| حب يهفو عليك من إشفاق | غير هذا السراج فى ضوءه الشا |
| بل تبكى الحياة فى الأرقام | وبقايا النيران فى الموقد الدا |

* * *

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| وحطمت من رقيق كيانك | أنت أذبلت بالأسى قلبك الغضـ |
| ل وما زلت سادراً فى مكانك | آه يا شاعرى لقد نصل اللـ |
| سى لتلك الدموع فى أجفانك | ليس يحنو الدجى عليك ولا يـ |
| جى وهلاً فرغت من أحزانك | ما وراء السهاد فى ليلك الدا |

* * *

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| فى الكرى غطة الخلى الطروب | فقم الآن من مكانك واغنمـ |
| لك نهار الأسى وليل الخطوب | والتمس فى الفراش دفناً ينسـ |
| لمتَ فيها من الضنى والشحوب | لست تُجزى من الحياة بما حمـ |
| ف وليست للشاعر الموهوب | إنها للمجون والختل والزـ |

هذه الصور المتتابعة المختلفة حسان كلها ، ولكنها بعيدة إلى حد ما عن المؤلف
من حياة شعرائنا الشرقيين ، إلا أن يكونوا مترفين قد ألفوا حياة الغرب وكلفوا بالسهاد
فى غرفة يضطرب فيها نور ضئيل شاحب ، وتفننى فيها بقايا الجذوة فى الموقد ؛ وكل
هذا يألّفه الغربيون ، وهو يذكّر بموسييه تذكيراً قوياً . وبعض الناس يعيب شاعرنا

« بتغريب » الشعر . أما أنا فأحمد له هذا النوع وأراه تشریفاً للشعر العربي ورياضة للذوق الشرقي واللغة العربية على أن يسيغا ما لم يتعودوا أن يسيغاه من قبل . وإذا كان لي أن آخذ الشاعر بشيء فهو ما قدمته من أن الأمر يختلط في شعره على القارئ فلا يدري ألقى زملاءه الغربيين والشرقيين مصادفة أم عن تعمد وسعي .

وواضح جداً أنني لا أريد ولا أستطيع أن أقول لشاعرنا كل ما يعجبني أو كل ما يفضيني من شعره ؛ فذلك أطول مما تسعه هذه الصحيفة ، ولكني قلت له بعض ما يعجبني ، وقليلاً مما يسوءني . وأريد أن أضيف إلى ما يعجبني في شعره ، أنه حلو الأسلوب جزل اللفظ ، جيد اختيار الكلام ، وأن لألفاظه ومعانيه رونقاً أخاذاً تألفه النفس وتكلف به وتستزيد منه ، وأن في شعره موسيقى ، قلما نظفر بها في شعر كثير من شعرائنا المحدثين ، وأنه قد استطاع أن يلائم ، إلى حد بعيد ، لا بين جمال اللفظ وجمال المعنى فحسب ، بل بين التجديد والاحتفاظ باللغة في جمالها وروائها وبهجتها وجزالتها . كل ذلك ظاهر في أكثر ديوانه لا أكاد أستثنى منه إلا هذه القصائد التي قلت في المناسبات العامة ولم يوحها الشعور الطبيعي لنفس الشاعر . فشاعرنا ترجمان الطبيعة ، وترجمان الإنسان إذا اتصل بالطبيعة وضل في فيافيها أو فتن بجمالها ، ولكنه ليس شاعر الجماعات ولا ترجمانها ، شاعرنا مغن ، شخصيته أقوى من بيئته ، وليس قصاصاً بيئته أقوى من شخصيته . وأظنه يسمح لي الآن أن أغاضبه بعض الشيء وأن أغاضبه في غير رفق ولا لين ؛ فهو حريص على الموسيقى ، وهذا واجب عليه وأداؤه مشكور له ، ولكنه يحرص على الموسيقى في الوزن أكثر مما يحرص عليها في القافية ، وأظنه يسيء في القافية كثيراً . وليس يعينني أن يجد له عذراً عند أصحاب القوافي ، أو لا يجد ، ولكن الذي يعينني أن القوافي يجب أن تلائم السمع ، وما أظن أن هاتين القافيتين تأتلفان لمكان الواو الساكنة من إحداهما ، والباء الساكنة من الأخرى وانظر إلى هذين البيتين :

روحك في روحى تبث الحياه نزلت دنياسى على نورها
فإن جفاها ذات يوم سناه لاذت بليل الموت في قبرها

وأخرى ألوم عليها الشاعر لوماً غير رفيق ، وهي تقصيره في ذات النحو أحياناً وفي ذات اللغة أحياناً أخرى . ولن يعدم الشاعر من يعتذر له بمذهب من مذاهب

النحو أو بشاهد من الشواهد الشاذة ، ولكنى أكره للشعراء المجيدين أن يحتاجوا إلى مثل هذا الاعتذار . وانظر إلى قوله :

إن كنت في شكواى بالمدنّب فنك يا رب أخذت الأمان
فالباء في خبر « كان » التي لم يسبقها نبي غريبة نابية ثقيلة على الأذن . ولأسأل
الشاعر بين قوسين : متى وكيف وأين أخذ الأمان من ربه ؟

وانظر إلى قوله : * يعرق حد السيف من لحمه *

فالذى أعرفه أن العظم هو الذى يعرق إذا ما أخذ ما عليه من اللحم ؛ فأما اللحم
فإنما يشق أو يقطع أو يعزق ، أو ما شئت من هذه الأفعال التي تلائمك . ومثل
هذا التقصير في موسيقى القافية وفي النحو واللغة كثير ، لا أحب أن أقف عنده
فأطيل الوقوف ؛ لأنى لا أريد أن أكون شريراً ، وإنما أكتفى بلفت الشاعر إليه
ليصلحه في الطبعة الثانية ، وليتنى مثله فيما يستأنف من الشعر .

وأحب بعد هذا كله أن أخاصم الشاعر في بعض مذهبه في الشعر ، فهو
يغلو في الخيال أحياناً حتى يجاوز المألوف ، ويتورط تورطاً فاحشاً فيما عاب
النقاد به أبا تمام .

فهو يجسم ما لا سبيل إلى تجسيمه ؛ وليس بذلك بأس إذا لم يسرف فيه الشعراء
وإنما ألوأ به إلاماً . أما شاعرنا فيغلو فيه غلوفاً فاحشاً . وما رأيت فيمن جسم الليل
حتى جعل له أوصالا وعروقاً وأجرى في هذه العروق دماً . وليت شعري كيف
يكون دم الليل : أجامد هو أم سائل ، أناصع هو أم قائم ، أخفيف هو أم ثقيل !
وليت شعري كيف تكون حال الليل إن سفك سافك دمه : أيموت أم يتجدد له
الدم فتجدد له الحياة . وليت شعري كيف تكون أوصال الليل . ومن المحقق أن
هذه الأوصال والعروق تستتبع لحماً وعظماً وجلداً وما يتصل بهذا كله . أليس
يوافقنى الشاعر على أن هذا كثير ، وعلى أن هذه القطعة التي جسم فيها الليل قد
شوّهت هذه القصيدة الجميلة التي سماها « ميلاد شاعر » ؟ بلى ! وأحسبه سيلغنها
في الطبعة الثانية . وأنا أحب أن يمضى فيما أتقن من الوصف والتصوير ، ولكن كما
تعود أن يصف ويصور ، وفي رشاقة وخفة لا في تناقل وإلحاح .

وأريد بعد هذه الملاحظات السريعة أن أثنى على الشاعر أجمل الثناء ، وأن

أقول له رأي في صراحة لا سبيل فيها للغموض والالتواء . فهو شاعر مجيد حقاً . ولكنه ما زال مبتدئاً ، وهو شاعر مجيد حقاً ولكنه في حاجة إلى العناية باللغة وأصولها وتعرف أسرارها ودقائقها ، فلا ينبغي للشعراء الذين يستحقون هذا الاسم أن يكون علمهم باللغة يسيراً محدوداً . وأنا واثق بأن شاعرنا إن عني بلغته ونحوه وقافيته وتوخي ما ألف من خفة التصوير ورشاقته ودقته ، فسيكون له شأن في تاريخ الشعر العربي الحديث .

في الشعر

وراء الغمام - للدكتور إبراهيم ناجي

كان موضوع الحديث يوم الأربعاء الماضي مهندساً ، وموضوع الحديث اليوم طبيب . فما زلنا إذاً بين العلماء الذين لم يصرفهم العلم عن الأدب - أستغفر الله - بل الذين أغراهم العلم بالأدب فأقبلوا عليه وزاحموا فيه أصحابه الذين أنفقوا فيه حياتهم ، ووقفوا عليه جهودهم . زاحمهم مزاحمة الموفق المنتصر الذي لم يظفر من النجاح بحظ قليل .

ويظهر أنا لن نفرغ من العلماء الذين أحبوا الأدب وكلفوا بالشعر إذا فرغنا من الحديث عن ديوان شاعرنا الطبيب ؛ فغيره وغير صاحبه المهندس من غدى عقله بالعلم ، وقلبه بالشعر وقدّم إلى الناس من نتائج علمه ما ينفعهم ، ومن نتائج شعره ما يرضيهم من الغناء . وكم أتمنى أن أرى بين الأدباء من لا يزهدهم الأدب في العلم أو من يغريهم الأدب بالعلم ؛ فإني أستطيع أن أتصور عالماً يستغنى بالعلم ولا يحفل بأن يشارك في الأدب أو يكون بين المنتجين من الكتاب والشعراء ، ولكني لا أستطيع أن أتصور أديباً يستغنى عن العلم ويستقل بالشعر أو النثر استقلالاً تاماً - كما يقول أصحاب السياسة - دون أن يحتاج إلى معونة العلم ، ومعونته الدقيقة التي تدفعه إليها الضرورة الملجئة كلما هم أن يكتب أو ينظم الشعر . بل أنا أزعج أن هؤلاء الأدباء الذين يغريهم الأدب ويزدهيهم ويغنيهم بنفسه عن العلم ، يدفعون إلى الإنتاج الرديء دفعا ؛ لأنهم يجهلون العلم فيجهلون الحياة التي يجب أن تكون موضوعاً لأدبهم منظوماً كان أو منشوراً . ولكن لندع الاستطراد ولنعد إلى شاعرنا الطبيب لنهدى إليه أجمل التحية وأحسن الشناء ، ولنعرف له هذا البلاء الحسن الذي أبلاه في خدمة آلهة الشعر في وقت قل فيه الخدام المخلصون لهؤلاء الآلهة ، كما كان يقول اليونان ، أو لهؤلاء الشياطين ، كما كان يقول العرب . على أننا إن أثنينا على شاعرنا الطبيب لحسن بلائه وصدق نيته في العناية بآلهة الشعر أو شياطينه ، ووقفنا عند ذلك ، نظلمه أشنع الظلم ، ونجور عليه أقبح الجور . فليس الدكتور إبراهيم

ناجى رجلا حسن البلاء صادق النية في حب الشعر فحسب ، وإنما هو فوق هذا كله موفق إلى حد بعيد فيما حاول من إرضاء الشعر وأصحابه ، موفق فيما قصد إليه من المعاني ، موفق فيما اصطنع من الألفاظ وموفق فيما اتخذ من الأساليب . معانيه جيدة تصل أحيانا إلى الروعة ، وإن كانت تنهى إلى الابتذال . وألفاظه جيدة قد يعظم حظها من المتانة والرصانة ، وقد تكره أذن السامع على الالتفات والإعجاب والشعور بهذه اللذة الموسيقية التي يشعر بها الناس أحيانا بأذانهم ، وإن لم تصل إلى عقولهم . وأساليبه جيدة أيضاً عظيمة الحظ من الصفاء ، لا يفسدها العوج ولا يفسدها الالتواء في كثير من الأحيان ، وإن كنا سنقف مع الشاعر وقفات عند ألفاظ لا تخلو من خطأ ، وأساليب لا تبرأ من عوج ، ومعانٍ لعلها تبعد عن الصواب . ولكن الذي يطالب الشاعر بالإجادة المطلقة في الألفاظ والمعاني والأساليب يكلفه شيئاً عسيراً لا يتاح إلا لجماعة معدودين من الشعراء ، الذين ميزهم النبوغ وسما بهم إلى حيث لا يكاد يرقى إليهم النقد إلا في مشقة وجهد وعسر شديد .

ونحن نكذب شاعرنا الطيب إن زعمنا له أنه نابغة ، بل نحن نكذبه إن زعمنا له أنه عظيم الحظ من الامتياز ، وإنما هو شاعر مجيد تألفه النفس ، ويصبو إليه القلب ، ويأنس إليه قارئه أحيانا ، ويضطرب له سامعه دائماً . فإذا نظرنا إليه نظرة الناقد المحلل الذي يريد أن يقسم الشعر أنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً ، كما يقول الفرنسيون ، لم يكذبنا لنا أو يصبر على نقدنا ، وإنما يدركه الإعياء قبل أن يدركنا ، ويفر عنه الجمال الفني قبل أن يفرّ عنا الصبر على الدرس والنقد والتحليل .

هو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن يُقرءوا في رفق ، لأنهم قد فطروا على رقة لا تحتمل العنف وشدة الضغط . هو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن نستمتع بما في شعرهم من الجمال الفني ، كما نستمتع بجمال الوردة الرقيقة النظرة ، دون أن نشط عليها بالتقليب والتعذيب . هو شاعر هين ، لين ، رقيق ، حلو الصوت عذب النفس ، خفيف الروح ، قوى الجناح ، ولكن إلى حد . لا يستطيع أن يتجاوز الرياض المألوفة ، ولا أن يرتفع في الجو ارتفاعاً بعيد المدى ، وإنما قصاراه أن ينتقل في هذه الرياض التي تنبت في المدينة أو من حولها ، والتي لا تكاد تبعد عنها كثيراً . وهو إذا ألمّ بحقيقة من الحداثق أو جنة من الجنات لا يجب أن يقع على أشجارها الضخمة الشاحمة في السماء ، وإنما يجب أن يقع على أشجارها المعتدلة

الهيئة ، ويتخير من هذه الأشجار أغصانها الرطبة اللدنة التي تثير في النفس حناناً إليها ، لا إكباراً لها ولا إشفاقاً منها . هو شاعر حب رقيق ، ولكنه ليس مسرفاً في العمق ، ولا مسرفاً في السعة ، ولا مسرفاً في الحب الذي يحرق القلوب تحريقاً ويمزق النفوس تمزيقاً . شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التي تذهب بك كل مذهب ، وتهيم بك فيما تعرف وما لا تعرف من الأجواء .

شعره كهذه الموسيقى التي يفسدها الفضاء الطلق وتضيع في الميادين الواسعة ، وتجود كل الجودة وتحسن كل الحسن حين تغلق الأبواب ، وترخي الأستار ، ويخلو النجى إلى النجى ، ويفرغ الصنى للصنى ، ويتمتع الحبيب بقرب الحبيب . وهذا فيما أظن هو أعظم ما بينه وبين شاعرنا المهندس من الفروق ؛ فالأستاذ على محمود طه مهياً لأن يكون جباراً إن عُنى بفضه وفرغ له وجدّ في طلب الإجابة والإتقان . أما الدكتور إبراهيم ناجي فهياً لأن يكون هذا الشاعر الوديع الذي لا يتعبنا ويعيننا ، ولا يكلفنا فوق ما نطبق من المشقة والجهد ، وإنما يريحنا إن تعبنا ويرفحنا إن شقينا ، ويشير في نفوسنا هذه الأغاني الهادئة الودعة التي تهيننا لأحلام جميلة عذاب . صوته يرنّ في آذاننا ونفوسنا رنيناً حلواً على حين يدوى صوت صاحبه في آذاننا ونفوسنا دويّاً يخرجنا عن أطوارنا .

ثم في شعر الدكتور ناجي بعد ذلك هبات أحب أن يلتفت إليها ، ويعني بإصلاحها عناية شديدة متصلة . فلست أعرف شعراً أشد حجة إلى أن يبرأ من العيب من هذا الشعر الوداع الذي يمتاز بالرقة والرفق ، والذي يتحدث إلى النفوس المحزونة ، والقلوب المكلومة ، والضماير التي تريد أن تستريح .

وأول هذه العيوب شيء من التكلف والحرص الظاهر على إقامة الوزن ، أو على إقرار القافية ، أو على مجازاة جماعة من الشعراء والمفكرين . وسأعرض بعد قليل للتكلف الذي يتصل بالوزن أو الذي يتصل بالقافية ، ولكني أريد قبل ذلك أن أقف وقفة قصيرة جداً عند هذا التكلف الذي يتصل بمجازاة الشعراء والمفكرين ، والذي يجعلنا نحس في بعض القصائد أن الشاعر لم ينظمها إلا ليقال إنه نظمها في هذا الموضوع أو ذلك ، أو يجعلنا نحس أن الشاعر قد نظمها وهو غريب عن موضوعها أو غريب عن هذا النحو من النظم ، لم يهبأ له وما ينبغي أن يشق به أو يدفع نفسه إليه . وانظر إلى هذه القصيدة التي سماها الشاعر « قلب راقصة »

فقد تُعجب كثيراً من الناس وتروقههم ، ولعلها تُعجب الشاعر نفسه وتروقه ، ولكنى أؤكد للشاعر والذين يُعجبون بهذه القصيدة من شعره أنها على ما قد يكون فيها من جمال اللفظ وحسن الانسجام أحياناً ليست شيئاً ، فليس فيها جديد ما ، وإنما هي كلام مألوف قد شبع الناس منه حتى كاد يدركهم الملل . كان جديداً في أواسط القرن التاسع عشر حين أخذ بعض الكتاب والشعراء يحسن شيئاً من الإشفاق على الراقصات ، وعلى بنات اللهو ، وحين جعل « ألكسندر دوماس » العطف على هؤلاء النساء والرثاء لحاهن بدعا من البدع وفناً من فلسفة الأدباء ، ثم كثر هذا الكلام وشاع وملاً الأفواه والأسماع حتى زهد الناس فيه وانصرفوا عنه . وفي القصيدة وصف للحانة لا جديد فيه ولا طريف . ولعل الشاعر يحس ذلك ، وهو على كل حال يضطرنا إلى أن نحسه في بعض شعره . فانظر إليه كيف يتدئ القصيدة :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| أمسيت أشكو الضيق والأينا | مستغرقاً في الفكر والسأم |
| فضيت لا أدري إلى أين | ومشيت حيث تجرني قدمي |
| فرايت فيما أبصرت عيني | ملهي أعد لي بهج الناسا |
| يجلون فيه قرائح الحسن | ويباع فيه اللهو أجناسا |
| بغرائب الألوان مزدهر | وتراه بالأضواء مغمورا |
| فقصدته عجلا ولي بصر | شبه الفراشة يعشق النورا |

أترى في هذا الكلام معنى جديداً؟ بل أترى في هذا الكلام معنى مألوفاً صور للناس في هذه الصورة الطريفة الرائعة التي ينتظرها الناس من الشعراء حين يتحدثون إليهم بالمعاني المألوفة؟ كلا! إنما أحس الشاعر ضيقاً وسأماً ، فخرج يمشي ليسرى عن نفسه الهمة . فأبصر مكاناً مضيئاً من أمكنة اللهو فدعاها الضوء ، فدخل إلى هذا الملهى .

هذه هي المعاني التي اشتملت عليها هذه الأبيات الستة ، لا جديد فيها كما ترى ولا غرابة ، ولا جديد في الألفاظ والصور التي أدى بها هذه المعاني ، بل دفع فيها الشاعر إلى شيء من التكلف أو من الخطأ أو إلى شيء لا أدري ما هو ، ولكنه لا يحسن من الشعراء . فانظر إليه وقد أمسى يشكو الضيق والأين وهو مستغرق في الفكر والسأم . فأما الضيق والسأم فقد نفهمهما من الشاعر ، وقد نفهم أن يشكو التعب ولا سيما إذا كان طبيباً قد أنفق ساعات طوالاً يلقي المرضى ويفحصهم ، ويصف لهم الدواء ، ويسمع منهم ما لا يجب الشعراء أن يسمعه . ولكن الذي

لا يستقيم للشاعر المجيد هو الاستغراق في الفكر والسأم معاً . فالمفكر لا يسأم ،
والسأم لا يفكر ؛ لأن التفكير يشغل صاحبه حتى عن الضيق ، والتعب ، والسأم .
ولأن السأم لا يمكن صاحبه من التفكير ، ولا يخلى بينه وبينه . وعلى كل حال
فقد أمسى الشاعر ضيقاً متنبهاً مغرقاً في السأم والتفكير ، فخرج لا يدري إلى أين ،
ومضى حيث تجره قدمه . فانظر إلى هذه الصورة التي لا تلائم شعراً ولا تلائم لغة .
فالقدم لا تجر صاحبها ، وإنما تحمله ، وتحمله متناقلة مكدودة إن لم يتح لها
النشاط ، وإنما يجر صاحب القدم قدمه إذا خرج فاتراً مكدوداً لا يقوى على
المشي . ولكن الشاعر أراد قافية تلائم السأم ، فجعل قدمه تجره ، على حين كان
ينبغي أن يجرها هو . فإذا لاحظت أن « السأم » نفسها قلقة في موضعها لا يستقيم
مع التفكير ، ولا سيما بعد أن ذكر الضيق والأين ، عرفت إلى أين ينهي تكلف
النظم بالشعراء المجيدين أحياناً !

ثم انظر إلى قوله :

فأريت فيما أبصرت عيني ملهى أعدد لي بهج الناسا
فالشطر الثاني كله لا معنى له ، ولا امتياز فيه . و « فيما أبصرت عيني »
غريبة لأنها تشعر أن هذا الملهى كان شيئاً ضئيلاً ضائعاً بين ما رأى من الأشياء .
وأكبر الظن أن هذه الأنوار المتألقة التي تعلن عن الملهى خليقة ألا تجعله ضئيلاً
يستخفى بين الأشياء التي ترى ، بل عظيمًا يصرف عما حوله من الأشياء . ولكنه
أراد أن يقيم الوزن ، فأكره على هذه الجملة إكراهاً . وأراد أن يقيم الوزن والقافية
فأكره على قوله : « أعدد لي بهج الناسا » . فالملهى لا يُغدّ لشيء آخر ، ولكن « الناس »
كلمة تلائم « الأجناس » ، وتعدّد معها شيئاً من النظام ، فاحتال الشاعر لهذه
الكلمة حتى جعلها قافية !!

وانظر إلى كلمة « الحسن » في البيت الذي يأتي بعد هذا وإلى ما بينها وبين
« عيني » من هذه الملاءمة الغريبة التي يتورط فيها شعراؤنا المعاصرون كثيراً . ثم
انظر إلى قوله :

* بغرائب الألوان مزدهر *

فسترى أنه رفع « مزدهر » هذه ، وكان الخير في نصبها لأن الملهى منصوب ،
فكان يحسن أن تقع منه موقع النعت ، ولكنه قطع الكلام واستأنفه لا لشيء إلا
ليلائم بين « مزدهر » هذه وبين قوله في البيت الذي يليه : « ولي بصر » .

أترى إلى كل هذه الألوان من التكلف كيف دفع الشاعر إليها في غير حاجة لولا أنه يريد أن يقول الشعر فيما لا يستقيم له أن يقول الشعر فيه .

وامض في قراءة القصيدة ، فستنتقل من كلام مألوف إلى كلام مألوف ،
وستمر بضعف لتتجاوزته إلى ضعف آخر ، حتى تصل إلى هذين البيتين
الغريبين حقاً :

يا للقلوب الملتقى اثنين لا يعلمان لأىما سبب
جمعتهما الدنيا غريبين فتآلفا في حلوة عجب

فالملاءمة بين « اثنين » و « غريبين » ثقيلة في نغمتهما . ولكن ما رأيك في
الشاعر الذى يلتقى صاحبه ويلح فى لقاءها ، حتى إذا ظفر به أراد أن تضرب له
موعداً وألح فى ذلك حتى فعلت ، ثم التقيا بعد انتظار وخوف يشبه اليأس ، ثم هو
بعد ذلك لا يدري لم يلقاها كما أنها لا تدري لم تلقاه ؟ .

هذا كثير ، لا مصدر له إلا أن الشاعر تكلف ما لا يحسن ، ودفع نفسه
إلى موطن لم يتعود الاضطراب فيه .

وانظر بعد ذلك إلى هذين البيتين :

عجباً لقلب كان مطعمه طرباً فجاء الأمر بالعكس
وأشد ما فى الكون أجمعه بين القلوب أواصر البؤس

فقوله « جاء الأمر بالعكس » كلمة خرجت من الأزهر الشريف ، ولست
أدري كيف اهتدت إلى شاعرنا الطبيب . وهى على كل حال من أشد الكلام
نبواً فى الشعر ومنافاة للجمال الفنى . ولكن انظر إلى قوله « وأشد ما فى الكون أجمعه »
فكيف تقرأ « أجمعه » أتضم العين أم تكسرهما ، فأنت إن ضمنت أرضيت التافية
وأغضبت النحو . وأنت إن كسرت أغضبت سيبويه وأرضيت الخليل !

ومثل هذا الخطأ ومثل هذا التكاف كثير جداً فى الديوان ، وكان الشاعر
يستطيع أن يتقيه وأن يبرأ منه لو أنه لم يخرج نفسه عن طورها ، ولم يعرض لما
لا ينبغى له أن يعالجه من الموضوعات ، ولو أنه عنى باللغة والنحو : وهذه النواحي
التي يهملها المحدثون حين يكتبون أو ينظمون ، يحسبون أنهم يجددون ، وأن التجديد
يبيح لهم أن يعذبوا اللغة وأن يمسخوها ، ويجهلون أو يتجاهلون أن أجمل المعانى وأروعها

يفسد أقبح الفساد إذا لم يُؤدَّ في لفظ مستقيم جميل . وما أشدَّ ما كنت أحب للشاعر أن يعرض عن هذه الفكرة الغريبة التي لا تستقيم للعقل ، وهي أن الحنان قد يعظم حتى يتجسم ويصبح شخصاً . في هذا المعنى الغريب نظم الشاعر قصيدة لا أريد أن أعرض لها لأنى أرى هذا المعنى نفسه يفسدها إفساداً . فالحنان يعظم حتى يملأ القلب ويغمر النفس ، ويؤثر في حياة الإنسان ، فأما أنه يتجسم فيصبح شخصاً ، فهذا كلام قد يفهمه الشعراء ، ولكن فهمه عسير على النقاد .

وهناك أبيات يهمل الشاعر فيها المعاني إهمالاً قبيحاً يضطره إلى التناقض في اللفظ ، ويلقى في أنفسنا أن الشاعر لا يحفل بمعاني الكلمات . فانظر إلى قوله : « تخطر والأنظار تحدو الركاب » . فكيف تخطر على حين أنها راكبة ! ولنلاحظ أن كل شيء بعد هذا صريح في أنها كانت ماشية ، إنما أراد الشاعر أن يقول إنها تخطر والأنظار تتبعها ، فجاء بكلمة « الركاب » هذه ليقيم بها الوزن والقافية ، حتى إذا بلغ مآربه منها نسيها نسياناً تاماً ومشى مع صاحبتة الماشية . وهو في قصيدة أخرى يقول « ورسا رحلى على أرض الوطن » . والرحل لا يرسو ، وإنما يحط ، وقد حطه الشاعر نفسه في مكان آخر ، إنما ترسو السفن . وأظن أن الملاح التائه ، يعرف ذلك ، وإن كانت سفينته لم ترس بعد .

وانظر إلى قوله :

مرت الساعة والليل دنا والهوى الصامت يغدو ويروح

فنحن في الليل ، أو نحن في المساء غير بعيد من الليل ، ولكن الهوى الصامت يغدو ويروح ، والغدو لا يكون إلا في الغداة ، لا في الليل ولا قريباً من أول الليل ، وإنما أراد الشاعر : يذهب ويحىء ، فظن أن الغدو والرواح يؤديان معنى الذهاب والحيء . وكان يستطيع أن يقول ، يمضى ويحىء . ولكنه محتاج إلى « يروح » لمكان القافية في البيت الذى يأتي بعد ذلك ، وهو قوله :

وتلاشت واختفت أجسادنا واعتقنا في الدجى روحاً بروح

ولنلاحظ أن كلمة « تلاشت » ، هذه ليست من كلمات الشعر ، وأنها على كل حال أقوى من « اختفت » ، فكان ينبغي أن تأتي بعدها ، لا قبلها ، وأن للشاعر وجيبه جسدين اثنين ، لا أجساداً ، ولكن البيت يجب أن يقام على كل حال . . !

أما بعد ، فقد كنت أحب أن أعرف للشاعر إجادة رائعة في وصف القبر ، كهذه الإجادة الرائعة التي وفق لها صاحبه المهندس . ولكن الدكتور إبراهيم ناجي ، كما قلت ، شاعر هادئ ، قوى الجناح إلى حد بعيد ، ولكنه لا يروع .

أما بعد مرة أخرى ، فإنني آسف أشد الأسف لهذا الإلحاح ، ولكنني مضطر إليه ، فشاعرنا في حاجة إلى أن يُعنى بلغته . ولو أنني ذهبت أحصى ما لاحظته من الضعف أو الخطأ ، لتجاوزت الحد الذي يطيقه هذا الحديث . وأنا بعد هذا كله أتمنى للشاعر توفيقاً ونجاحاً في ديوانه الذي سيهديه إلينا بعد هذا الديوان أكثر مما ظفر به في هذا الديوان الأول . وأحب في آخر هذا الحديث أن أسأل عن شيئين : أولهما عنوان الديوان لم أفهمه إلى الآن ! وأخشى أن يكون العنوان متكلفاً ، كما أن كثيراً من المعاني والألفاظ ومن الأوزان والقوافي متكلف أيضاً .

أما الشيء الثاني الذي أسأل عنه فإنني أسوقه إلى صديقنا الصاوي الذي قدّم الديوان إلى القراء ؛ فإن في مقدمته جملة قد اختلط أمر النحو فيها اختلاطاً غريباً . ولعل لصديقنا الأديب مذهباً جديداً في تغلب المؤنث على المذكر إذا اجتمعا ، فالذوق الحديث يقتضي هذا فيما يقال ، ولكن صديقنا لم يراع هذا أيضاً ، وإنما ترك الأمر فوضي بين المذكر والمؤنث في هذه الجملة التي أرويها لك :

« وكأني بإلهة الحب "الزهرة" وإله الشعر "أبولو" سارا جنباً إلى جنب يقطعان الأفلاك والأجيال باحثين عن رجل يعيش بالحب والشعر ويعيش لهما ومن أجلهما ، فهو دائماً المحب الشاعر حتى تجلي لهما من وراء الغمام ، وعندئذ تنازعنا عليه .

فإلهة الحب تدعيه لنفسها خالصاً وإله الشعر ينسبه إلى ملكوته خالصاً ، وكيف لي أن أنسب ناجي إلى هذه دون تلك . »

أرأيت إلى أن صديقنا الصاوي قد جرى مع طبعه أول الأمر ومع طبيعة اللغة فغلب المذكر على المؤنث ، ثم لم يلبث أن غلبه الذوق الأوربي الحديث فغلب المؤنث على المذكر ، ثم لم يكفه هذا فجعل أبولو مؤنثاً وأشار إليه بتلك . . ! أليس من حق اللغة على الشاعر ، ومقدم ديوانه أن يعتذرا إليها من بعض ما تورط فيه من التقصير ! وهل يأذن لي صديقي الصاوي في أن أذكره بأن « أبولو » لم يكن يحب الزهرة ، وإنما كان يحب غيرها من أخواته الإلهات القديمات !

أخلاق الأدباء

أما اليوم فأريد أن أدع الأدب شعره ونثره ، لأتحدث قليلا عن الأدباء ، وعن أخلاقهم خاصة . وواضح أنى لن أعرض ، وما ينبغي لى فى هذا الفصل أن أعرض لهذه الأخلاق الخاصة التى تقوم عليها حياة الأدباء إذا خلوا إلى أنفسهم أو اتصلوا بأصحاب مودتهم وحبهم ؛ فهذا شىء قد أعرض له حين يحتاج نقد بعض الآثار الأدبية إلى ذلك . إنما أريد أن أعرض لأخلاق الأدباء من حيث هم أدباء ، أو لأخلاقهم الأدبية إن صح هذا التعبير ، أو لهذه الأخلاق التى تقوم عليها الصلة بينهم وبين قرائهم من ناحية ، وبينهم وبين نقادهم من ناحية أخرى ، وبين أنصارهم ومنافسيهم من ناحية ثالثة . فقد يظهر أن هذا اللون من ألوان الأخلاق الأدبية عندنا ، لا يخلو من طرافة تحتاج إلى أن تسجل ، وإلى أن تفهم ، وإلى أن يحفظها التاريخ الأدبى للذين سيدرسون حياتنا الأدبية بعد أعوام .

وأخص ما نلاحظه فى أخلاق الأدباء هذه طائفة من الحصال لا تسر ولا ترضى . وما نظن الذين سيكتبون عن حياتنا الأدبية سيعرضون لها إلا مع شىء من الابتسام الذى يصور الإشفاق والرحمة ، وشىء غير قليل من الازدراء . فأدباؤنا المحدثون ضعاف ، ولا أريد ضعفهم فى الأدب ، ولا ضعفهم فى اللغة ، ولا ضعفهم فى الشعور ، ولا قصورهم عن التصوير ، إنما أريد ضعفهم عن احتمال النقد ، وعجزهم عن الثبات للنقاد . لا تكاد تمس أحدهم مساً رقيقاً حتى تأخذه رعدة كهربائية تضطرب لها أعصابه كلها ، ويفسد لها مزاجه فساداً قبيحاً ، ثم تظهر آثار هذا الفساد وذلك الاضطراب فيما يصدر عنه من الأحاديث حين يتحدث إلى أصدقائه فى ناد من الأندية ، وفيما يصدر عنه من الفصول التى يكتبها ويذيعها فى الناس ، وفيما يصدر عنه من هذا الوحي الخبيث الذى يلقيه فى روع جماعة من المنتصرين له والمحيطين به ، يدفعهم إلى أن يذيعوا ما استطاعوا الإذاعة ، ويكتبوا ما أطاقوا الكتابة ، ويقولوا ما وسعهم القول . كل هذا لأن ناقداً من النقاد قد مسهم مساً رقيقاً ، فأخذهم بقصور فى الشعور أو قصور فى التعبير والتصوير ، كأنهم قد أخذوا على أنفسهم وعلى الحياة وعلى النقاد عهداً بأنهم أكبر من الخطأ وأرقى من الزلل وأعلى من النقد ،

وأرفع من أن يرقى إليهم ناقد مهما يكن . ومن يضع نفسه هذا الموضع ويرى في نفسه هذا الرأي خليق ألا يتصل بالحياة العامة من قريب أو من بعيد ؛ فهذا العهد لا يمكن أن يؤخذ على الحياة ، ولا على الناس ولا على النقاد . ومهما يكن الكاتب والشاعر مجيداً متقناً أو نابغة فذاً ، فهو إنسان ، وهو معرض للنقص ، وهو بعيد عن الكمال . وهبه قد بلغ الكمال أو دانه ، فالناس لن يؤمنوا له بذلك ، لا لأنهم أشرار يحسدونه أو ينفسون عليه ، بل لأن الطبائع مختلفة ، واختلاف الطبائع يستتبع من أجل هذا كله اختلاف الأحكام على الناس وما يصدر عنهم من الآثار والأعمال . فن السخف أن يزعم الأديب لنفسه أنه خليق أن يظفر برضا الناس جميعاً ، أو بحمدهم وثنائهم جميعاً ، أو يبرأ من سخط الساخطين ونقد الناقدين واوم اللائمين . وأظن أن من أوليات الحياة العامة ، إن صح هذا التعبير ، أن يوطن الرجل نفسه فيها على أن يكون حظه من سخط الناس أعظم جداً من حظه من رضا الناس ، وعلى أن يكون قسطه من النقد أعظم جداً من قسطه من التقريظ . ولكن انظر إلى أدبائنا حين يعرض لهم ناقد بما لا يحبون ، وأكثرهم لا يجب إلا الثناء ، انظر إليهم كيف يستقبلون هذا النقد ضيقين به ثائرين بصاحبه ، ثم كيف تفسد له حياتهم فساداً ، وتضطرب له أمورهم اضطراباً ، فإذا هم يشغلون عن الإنتاج ، وعن تقويم المعوج من آثارهم بالدفاع عن أنفسهم ، كأنهم هوجموا مهاجمة تعرضهم للخطر الذي ليس بعده خطر وللموت الذي ليس بعده نشور . ومع ذلك فالأمر أيسر جداً مما يظنون ، وإنما آثار الكاتب والشاعر ملك للجمهور إذا ألقيت إليه ، يرى فيها ما يحب من رأى ، يرضى عنها إن أثارت في نفسه الرضا ، ويسخط عليها إن أثارت في نفسه السخط ، يحبها فيقبل عليها ، ويبغضها فينصرف عنها . ما ينبغي لأحد أن يجادله في ذلك أو ينكره عليه . والكاتب حري أن يكبر الجمهور أو لا يكبره ، وفي أن يرضى عن إقبال الجمهور عليه أو يزدري هذا الإقبال ، وفي أن يضيق بانصراف الجمهور عنه أو لا يحفل بهذا الانصراف . ولكن الشيء الذي لا ينبغي أن يطمع فيه الكاتب أو أن تسمو إليه نفسه ، لأن الطمع فيه إثم ، والسمو إليه اعتداء على الحرية المقدسة ، هو إكراه الناس على أن يقبلوا عليك ويرضوا عنك ، وعقاب الناس إن هم سخطوا عليك أو انصرفوا عما تقدم إليهم من الآثار . والغريب أن الكتاب والشعراء لا يهدون كتبهم ودواوينهم إلى الناس إهداء ، وإنما هم يبيعون هذه الكتب بيعاً ، ثم هم بعد ذلك يأبون إلا أن يدفع الناس لهم

التمن نقدًا وحمدًا ، ولا يتحرجون من أن يأخذوا التمن مرتين : ثمنًا يدفعه المشتري عن رضا وهو المال ، وثمنًا آخر يجب أن يدفعه عن كره وهو الحمد والثناء . وأغرب من هذا أن الكتاب والشعراء يهدون كتبهم ودواوينهم إلى النقاد أو لا يهدونها إليهم ، ثم يضيّقون بالنقاد أشد الضيق إن سكتوا عنهم ، ويسخطون على النقاد أقبح السخط إن قالوا في كتبهم ودواوينهم ما لا يحبون . وهنا يتعقد خلق الأدباء بعض الشيء ، فلا يصبح ضعفاء فحسب ، وإنما يصبح ضعفاء واعتداء معاً ، هو ضعف لأنهم لا يستطيعون أن يصبروا على الحق أو على ما يراه غيرهم حقاً . وهو اعتداء وطغيان لأنهم يزعمون لأنفسهم على النقاد سلطاناً لم يمنحوه ولا يمكن أن يمنحوه فالناقد كالكتاب والشاعر حر فيما يقول ، لا ينبغي لأحد أن ينتقص من حرّيته ، أو يفرض عليه ما لا يريد .

وخلقتُ آخر من أخلاق الأدباء في هذه الأيام لا ندري كيف نسميه ، ولكن أخص ما يمكن أن يوصف به أن أصحابه يحتاجون إلى شيء من الحياء ، فهم يهدون إليك الكتاب حتى إذا استيقنوا أن الهدية قد وصلت إليك واستقرت في يدك لم يريحوا ولم يستريحوا حتى تعلن إليهم - أستغفر الله - بل إلى الناس رأيك في هذا الكتاب ، فإن لم تفعل نالوك بما استطاعوا من القدح والذم ، وأخذوك بما في وسعهم من اللوم والتشهير . وإن أعلنت رأيك فلم يعجبهم ، أو لم يوافق أهواءهم ، فويل لك منهم وويل لهم من أنفسهم . وويل لك منهم لأنهم ساخطون عليك يحرقونك بنار سخطهم تحريقاً . وويل لهم من أنفسهم لأنهم مشغولون بك وبالنيل منك والنعي عليك عن أنفسهم ، وعن أديبهم . وهم كذلك لا يهدون إليك الكتاب وإنما يبيعونه منك بيعاً . وهم لا يبيعونك الكتاب بثمنه الذي يباع به للناس ، وإنما يبيعونك الكتاب بثمن مستحيل ، يبيعونه بحريتك وبإخلاصك ، وبأخلاقك . يهدون إليك الكتاب ، فيحسبون أنهم قد اشتروا رأيك ، وخلقتك ، وصراحتك وفرضوا عليك أن تصبح لهم مادحاً ، وعليهم مثنياً . ألسنت ترى أن هذا الخلق خطر على الحياة الأدبية حقاً ؟ وأين يكون الحياء إذا لم يكن عند الأدباء ! وأين يكون الظرف إذا لم يكن عند الكتاب والشعراء ! وأين يكون اعتدال المزاج واستقامة الخلق الاجتماعي وهذه الدقة في المعاملة التي ترفع صاحبها عن أن يكون مشعوذاً أو عن أن يكون ستولاً ملحاً ، أو عن أن يكون طالب صدقة ، أو عن أن يكون صاحب

عدوان وجور ، أين يكون هذا كله إذا لم يكن عند الأدباء !
أكتب هذا كله وقد وصلت إلى الأنباء بأن جماعات أدبائنا المحدثين نائرة
فائرة ، وهائجة مائجة ، وقاعدة قائمة ، في هذه الأسابيع منذ أخذ بعضهم ينقد
بعضاً ، ومنذ أخذت آراء بعض في الشعر والنثر تبدو لبعض . ولعلك تقر هذا
الفصل الطريف الذي أرسله إلى صديقنا حسن محمود فترى فيه كيف يفسد
ما بين الأصدقاء ، وكيف يستحيل الحب إلى بغض ، والود إلى عدا ، والإخلاص
إلى كيد ، لا لشيء إلا أن فلاناً أظهر كتاباً أو ديواناً ، فلم يحسن فيه رأى
فلان ، أو ظهر فيه رأى فلان ، ولكنه لم يكن مرضياً للكاتب أو الشاعر لأنه
لم يكن ثناء كله ولا رضاء كله . أخلاق أدباء هذه أم أخلاق صبيان يحتاجون
إلى التربية والتنشئة ! إني أكره لأدبائنا أن يطغى الغرور على نفوسهم فيفقدوها
ما يقوم النفس الكريمة من اعتدال المزاج وصفاء الطبع ، واستقامة الخلق ، والتواضع
الذي لا سبيل إلى الكمال من دونه .

وأكثر من هذا كله أن يعظم التنافس بينهم ، وأن ينكر بعضهم بعضاً ،
ويزدري بعضهم بعضاً ، ويبلغ بهم هذا أن تنقد اثنين منهم في فصل واحد ،
فإذا أحدهما ساخط عليك ضيق بك ، يقطع ما بينك وبينه من صلة ، لا لأنك
ظلمته ، ولا لأنك أسأت إليه في كتابه ، ولا لأنك استكشفت عن عيوبه ما لم
يكن يعلم ، بل لأنك قرنته إلى صاحبه ، وما ينبغي أن يكون له قرين ، وذكرته
مع غيره وما ينبغي أن يكون له شريك ، وإنما حقه عليك إذا كتبت عنه أن
تفرده بالكتابة وتختصه بالنقد وأن ترقى إليه في سمائه التي يسكنها أو نجمه الذي
يستقر فيه ، حتى إذا قدمت إليه القربان وحرقت بين يديه البخور ، هويت
من السماء أو هبطت من النجم ونظرت بعد ذلك إلى غيره من الكتاب . هذه
أخلاق لا ينبغي أن تكون للشبان فضلاً عن أن تكون للشبان الأدباء الذين يرون
أنهم نابهون وأنهم قادة الرأي وزعماء الأدب غداً أو بعد غد . أمر الأدب أهون
من هذا كله أيها السادة إن كنتم أدباء حقاً . فأنتم إنما تنتجون لأنكم مكرهون على
الإذاعة ، وآثاركم حينما تنتجونها وتذيعونها تخرج عن ملككم إلى ملك غيركم من
القراء والنقاد ، ليس لكم عليها سبيل ، ولقرائكم ونقادكم عليها كل سبيل . إن
كنتم متواضعين فقوموا ما يظهر لكم من عوج ، وأصلحوا ما يظهر لكم من فساد .
فإن كنتم مغرورين فاستمتعوا بغروركم وانظروا إلى أنفسكم في المرآة ثم امتلثوا

بها عجباً وتبها ، ولكن لا تعدوا هذا ولا تتجاوزوه إلى أخذ الناس بما تحبون أنتم ولا يحبون هم ؛ فذلك ليس لكم ، ولن يقركم أحد على أن تتطلبوه وتطمعوا فيه . ويسألني صديقنا حسن محمود عن علاج هذه العلة ، ودواء هذا الداء . وغريب أن يلقي الصديق مثل هذا السؤال ، وغريب أن يحتاج مثل هذا السؤال إلى جواب . فليس لهذه العلة علاج إلا مقاومتها ، وهي لا تقاوم إلا بالمضي في النقد الحر الصريح الذي لا أثر فيه للميل ولا الهوى بمقدار ما يستطيع الإنسان أن يبرأ من الميل والهوى ، والذي لا أثر فيه للخوف ولا الإشفاق ؛ فليس رجلا من يكتم رأيه لخوف أو إشفاق . فكيف إذا كان مصدر هذا الخوف والإشفاق أديباً لا يستطيع أن يبسط فيك لسانه أو أن يبسط عليك يده ، إن كان من « الفتوات » . هذا سخف لا ينبغي لصاحب الجلد من الأدب والنقد أن يقف عنده أو يفكر فيه إلا بمقدار ما يقوم معوجه ويصلح فاسده ويحاول أن يبرئ منه أدباءنا . فقد أحب أن يكون برؤهم من هذه العلة ممكناً يسيراً .

الضحك الباكي

للأستاذ فكرى أباطة

منذ أكثر من عام تفضل الأستاذ فكرى أباطة فزارنى فى الكوكب وأهدى إلى كتابه « الضحك الباكي » ، فتلقيت زيارته شاكراً ، وتلقفت هديته شاكراً أيضاً ، ووعدت متطوعاً بقراءة الكتاب ، وإعلان الرأى فيه ؛ لأن الأستاذ لم يطلب إلى قراءة ولا إعلاناً ، وإنما كان أديباً يجامل أديباً ، وصديقاً يعرف الحق لصديق .

ثم أخذت أقرأ فى الكتاب منذ اليوم الأول الذى أهدى إلى فيه ، ولكنى لم أمض فى هذه القراءة حتى صرفتنى عنها هذه الصوارف الكثيرة الملحة البغيضة ، التى تصرف الناس فى كل يوم عما يحبون وتدفعهم إلى غير ما يريدون . وما أكثر هذه الكتب التى تُهدى إلى أو التى أشتريها ، ثم آخذ فى قراءتها ، فلا أكاد أتقدم فى هذه القراءة حتى أردّ عنها رداً وأصد عنها صداً ، وأصرف عنها إلى شىء من هذا السخف اليومي الكثير الذى يملأ حياة أمثالى من الناس .

ومضى عام ولم أقرأ كتاب الأستاذ ، ولكنى سمعت أحاديث الناس عنه ، فكان منهم المعجب الراضى ، وكان منهم المعرض المغضى . ويجب أن أعترف بأن الذين أعرضوا وأغضوا كانوا بين أصحابى أكثر من الذين رضوا وأعجبوا . ولم يكونوا يعللون إعراضهم ولا إغضائهم ، وإنما كانوا يمسون الكتاب بجملة أو جملتين ، يعلنون فيها أنهم كانوا ينتظرون من الأستاذ كتاباً خيراً من هذا الكتاب . وكنت أجد من إعراضهم وإغضائهم عزاء لى عن هذا الكتاب الذى لم أقرأه ، بل كنت أحمد الله على أنى لم أقرأه لأنى أمنت بذلك أن أكتب عنه ، فأقول للأستاذ ما لا أحب أن أقوله له . على أننا التقينا والتقينا غير مرة ، فأشهد ما لقيت الأستاذ ولا سمعت صوته إلا استحيت منه ، وأحسست أن له على ديناً ثقيلاً ، وأنى قد أبطأت فى أداء هذا الدين ، وأوشك أن أتوى به على صاحبه . وما أبغض المدين حين يلتوى بالدين !

ثم تتاح لي الفرصة لأتحدث عن الأدب المصري الحديث فأذكر الشعراء وأعرض لبعض الكتاب . وأشهد ما ذكرت شاعراً ، ولا عرضت لكاتب إلا كان الأستاذ فكري أباطة بينه وبينى يسألني . بصوته العذب ولهجته الظريفة : « والضاحك الباكي ماذا تصنع به ؟ وماذا ترى فيه ! » .

فاليوم أريد أن أتحدث إلى الأستاذ وإلى غيره من القراء بما صنعت بالضاحك الباكي ، وبما أرى فيه .

قرأته قبل كل شيء ، وقرأته كله هذه المرة ، واستعدت بعض صفحاته ، ووقفت عند بعضها الآخر ووقفات غير قصار ، وأطلت التفكير في بعض فصوله ، حين خلوت إلى نفسي وأويت إلى مضجعي في غير ليلة من ليالي هذا الصيف الثقيل . ثم حمدت للأستاذ فضله عليّ ، ويده عندي ، لا لأنه أهدى إليّ كتاباً ، فالكتب تهدي من الأديب إلى الأديب ، وإن كنت أراني مقصراً تقصيراً شنيعاً في هذا النحو من أدب المجاملة ، ولا لأنه سعى إليّ بكتابه ، فالأديب يسعى إلى الأديب ، والصديق يسعى إلى الصديق ، وإن كنت مقصراً في هذا النحو أيضاً من أنحاء أدب المجاملة . بل لأنه أتاح لي شيئاً ظلماً تمنيته ولم أظفر به ، وهو أن أسمع للأستاذ فكري أباطة ، وأتحدث إليه وقتاً طويلاً . فأنا من قرائه الأوفياء الذين لا يكاد يخطئهم فصل من فصوله في الأهرام أو في المصور أو في غير الأهرام والمصور . وأنا من الذين يحبونه حباً عميقاً ويكلفون بما يكتب كلفاً شديداً، يسر النفس لحظة من لحظات الحياة ، وإن كان لا ينتهي بها إلى هذا الإعجاب الذي يملك عليها كل شيء ويشغلها عن كل شيء . وأنا كلما قرأت فصلاً من فصول الأستاذ فكري أباطة ، وددت لو طال بينه وبينى الحديث ، واتصلت بينه وبينى الأسباب ، فعرفته أكثر مما أعرفه وألفته أكثر مما آلفه إلى الآن . فقد عرفته الآن وألفته ، وبلغت من عشرته ما كنت أريد بعد أن قرأت كتابه الممتع الحميل . وليس هذا بالشيء القليل ، بل هو شيء كثير ، وكثير جداً ، إن كان هذا التعبير ما يزال يضحك القراء .

ويجب أن أعترف أيضاً بأن رأيي في الكتاب كان يختلف اختلافاً شديداً كلما تقدمت في قراءته . فأما أوله فلم يفتنني ، ولم يثر في نفسي إعجاباً ولا شيئاً يقرب من الإعجاب ، بل كنت أحدث نفسي بأن هؤلاء الأصدقاء الذين أعرضوا عن الكتاب في العام الماضي كانوا منصفين . ولكنني تقدمت في الكتاب ،

فإذا أنا مأخوذ حقاً مفتون حقاً ، يذهب لي الإعجاب كل مذهب ، ويمضي لي الإكبار إلى غير حد ، وإذا أنا أنكر الظلم والظالمين ، وإذا أنا أزعج نفسي أن أولئك الأصدقاء المعرضين لم يقرءوا الكتاب ، ولو قد قرءوه لأعجبوا به ، وإذا فما كان ينبغي لهم أن يقضوا عليه وهم لم يقرءوه . وكنت أزعج نفسي أحياناً أن حياة المصريين قد تطورت حقاً ، وأن شعورهم الوطني قد أخذه شيء من الفتور ، وأن شعورهم بالحياة اليومية وما فيها من المنافع العاجلة الملحة ، قد ملك عليهم ذوقهم وحكمهم . ولولا هذا لفُتِنوا بكتاب الأستاذ أشد فتنة ، ولكان له في نفوسهم أبلغ الأثر وأعمقه . وكنت أتحدث إلى بعضهم فألومه وأسرف في لومه وأزعج له أنى لا أعرف كتاباً عربياً صور ما بين المصريين والإنجليز من سوء الصلة وبعد الشقة وفساد الأمر كهذا الكتاب ، فكان يستمع لي ويقرني على ما أقول ، ولكنه يبتسم ويقول : ولكن أتم قراءة الكتاب ثم حدثني بعد ذلك عن رأيك فيه . وما زلت أنتقل في الكتاب من قصة إلى قصة ومن حديث إلى حديث حتى أتمته منذ ساعة أو منذ أقل من ساعة ، وإذا أنا ما زلت راضياً عن الكتاب ولكن إلى حد ، وما زلت معجباً بالكتاب ولكن في اعتدال واقتصاد ، ذلك أن الكتاب مختلف حقاً ، متفاوت أشد التفاوت . فيه ما يروع حتى يملأ النفوس روعة وإعجاباً ، وفيه ما يبعث في النفس فتوراً يكاد ينتهي بها إلى النوم . ثم فيه ما يثير في النفس شكوكاً وأوهاماً ، ويبعثها على أن تسأل هذا السؤال : ماذا أراد الأستاذ بهذا الكلام ؟ وأول ما يعجبك من الكتاب حقاً هو هذه الصفحة الرائعة البارعة الذي وصف الأستاذ فيها حوادث الثورة في أسوط . فلست أعرف ، كما قلت ، كاتباً مصرياً صور ما بين المصريين والإنجليز من الشر كما صوره الأستاذ فكري أباطة . ولست أظن أن قارئاً مصرياً مهما يكن ، يستطيع أن يقرأ هذه الصفحات دون أن يثور قلبه ونفسه ودون أن يغلي دمه غلياناً ودون أن يحتاج إلى جهد عنيف ليكظم غيظه أن ينفجر ، وليمسك نفسه أن يندفع إلى ما لا يحسن الاندفاع إليه . ثم تعجبك في الكتاب ملاحظات دقيقة منتشرة تمس حياتنا الاجتماعية الخاصة في الأندية والدور . ثم يعجبك في الكتاب هذا الأسلوب الظريف الذي انفرد به الأستاذ فكري أباطة والذي وفق فيه للملائمة البريئة بين حلاوة الفكاهة ومرارة الجلد ، وبين اللغة الفصحى ولغة الشعب ، واستطاع به أن يظفر بما لم يظفر به غيره من الكتاب ، فظفر برضا الخاصة والعامة جميعاً ، وظفر بحب القراء على اختلاف ما لهم من الأهواء والنزعات

والمبول . فإذا أحصيت هذه الخصال التي تعجب في الكتاب فقد يكون من الحق أن نحصى خصيلاً أخرى لا ينبغي أن نمر بها معرضين . وما أشد ما كنا نحب أن نلقاها ولا نحصيها ولا نأخذ بها كاتبتنا الأديب . وأول ما نلاحظ من ذلك هو هذا الاختلاف الذي أشرنا إليه . فلولا أن الكتاب يدور كله حول شخص واحد هو الأستاذ شكري لما استطعنا أن نجد فيه مظهراً من مظاهر الوحدة أو دليلاً من أدلة الانسجام . فالكتاب يوشك أن يمس كل شيء ويعرض لكل شيء . فهو يمس القلب والشعور ، وهو يمس الحياة العملية اليومية ، وهو يمس الثورة وهو يمس الحياة السياسية بعد الثورة ، وهو يمس الحياة الاجتماعية العامة والخاصة . وفي الكتاب قصص ، وفي الكتاب تاريخ ، وفي الكتاب فلسفة ، وفي الكتاب نقد ، وفي الكتاب ما شئت وما لم تشأ مما يعرض له كتاب الصحف عرضاً سريعاً مسرفاً في السرعة لا تثبت فيه ولا تدقيق . وكل هذا قد ألتى في الكتاب إلقاء ، وجمع فيه جمعاً لا ينظمه إلا الزمن ، وشخص الكاتب . فأما هذا النظام الفني الذي يصل بين أجزاء الكتاب والذي يجمع السبب إلى الأثر والعللة إلى المعلول ، كما يقول أصحاب المنطق ، فلا تكاد تظفر به في الكتاب . والواقع أني لا أدري ماذا أراد الأستاذ فكري أباطة حين وضع كتابه هذا : أراد أن يصور لنا شطراً من حياته في هذا النوع الذي يسميه الناس بالمدكرات ؟ وإذا فما هذا القصص الغرامي الكثير الذي اشتدت فيه المبالغة وعظم حظه من الإسراف وامتلأ بهذه المآسى التي لا تكاد تقف عند حد ! أم أراد أن يكتب قصصاً خيالياً من هذا النوع الذي يسميه الناس رواية ؟ وإذا فما هذا التاريخ الكثير الذي ينثره الأستاذ بكلتا يديه ويفعم الكتاب به إفعاماً وأكثره أو كله معروف للناس جميعاً ! أم أراد أن يكون قاصصاً فانقلب مؤرخاً ثم انقلب ناقداً خلقياً لاشيء إلا ليضخم حجم الكتاب ؟

كل هذه أسئلة تثور في نفس القارئ إذا فرغ من قراءة الكتاب ؛ فهو يشعر بالقاص الذي يلائم بين القصص والتاريخ ملاءمة مقبولة حين يقرأ حديث الأستاذ عن صاحبتيه ثروت ومريم ، بل هو يشعر بالقاص الذي يلائم ملاءمة مقبولة بين القصص والفلسفة حين يرى الأستاذ شكري في هذا المأزق الحرج مضطرباً بين الوفاء لمن ماتت ، والافتتان بهذه الفتاة ذات الشباب الغض والوجه الحلو ، والقلب النبيل . ولكن القارئ يضيع حين يرى شكري مضطرباً بين هؤلاء الأوانس اللاتي خطبن ، وحين يراه مضطرباً بين هؤلاء السيدات اللاتي كن يختلفن إليه

في « الجارسونير » . ولعل الأستاذ يعذرنى إذا قلت له إنى أستكثر هذا العدد الضخم من الجنس اللطيف في كتاب لا يكاد يزيد على المائتين من الصفحات إلا قليلا . فأنت تستطيع أن تحصي ثروت ، ومريم ، وعدداً لا بأس به من الأوانس خطبهن شكرى ، ثم تحصي بعد ذلك زينب وسعاد ولولو ، وإحسان ، وسميحة ، ومن يدري ! لعلى نسيت بعض هؤلاء الأوانس وبعض هؤلاء السيدات . وهناك شيء آخر تلاحظه حين تتقدم في قراءة الكتاب وهو هذه المبالغات التى أسرف فيها الكاتب إسرافاً على نفسه وعلى القراء أيضاً .

فكاتبتنا الأديب دقيق الحس ، رقيق الشعور ، حاد المزاج ، يسرع إليه الإنعما في كل مكان وفي كل فرصة ، كما يسرع إليه الصياح ، وكما تسرع إليه وإلى صاحباته الحركات العصبية العنيفة التى تبلغ الصرع أو تبلغ الجنون . وكاتبتنا الأديب لا يرفق بنفسه ولا بقرائه حين يصور لهم منظرًا مروعاً . فانظر إلى صاحبتة مريم ، وقد اعتدى على عرضها الضابط الإنجليزي ، فهى تريد أن تقتل نفسها ، وأبوها يريد أن يقتل الضابط ثم يريد أن يقتلها هى ، وصاحب الأسرة ينقذها من نفسها ، وينقذها من أبيها ، ثم يطلق الرصاص على نفسه ، ولكنه ماكر ماهر محتال ، تمر الرصاصة إلى جانب رأسه ولا تصيبه .

كل هذا في وقت قصير جداً ، وفي صفحات قليلة جداً ، وفي كلام ملتبس سريع يؤذى القارئ ولا يترك في نفسه أثراً للروعة أو الجمال .

وهل يأذن الأستاذ بملاحظة أخرى على كل هذا القسم السياسى من كتابه ؟ فهو أولاً معروف . وهو ثانياً لا جديد فيه من الناحية الفنية . وهو ثالثاً مسيء إلى الكتاب يوشك أن يصرف عنه كثيراً من قرائه الذين لا يرون رأى الأستاذ في الحزب الوطنى وسياسته واضطرابه بين الأحزاب على اختلاف ظروف الحياة المصرية وألوانها . وما كان أكثر ما يحسن الأستاذ إلى نفسه وإلى كتابه وإلى قرائه لو أنه ارتفع بهذا الكتاب عن الشهوات السياسية وأهواء الحياة اليومية ، وقصد به إلى الفن ، وإلى الفن وحده .

والأستاذ فكرى أباطة ضاحك باك ، ولكنه إذا بكى أسرف في البكاء حتى يسبغ على الحياة لوناً مظلماً شديد الإظلام يبغضها إلى الناس ويقبّحها في نفوسهم تقيحاً : فإذا أضحكك فهو شيطان مارد ، لا يحفل بشيء ، ولا يأبه لشيء ، ولا يرجو لشيء ولا لأحد وقاراً . وهو على هذا النحو مضطرب المزاج أشد الاضطراب

لا يصور الرجل المعتدل ولا يعطى للناس مثلاً صالحاً يمكن احتذاؤه وتأثره .
ومع أنى معجب بالأستاذ محب له ، فأنا أتمنى ألا يكون الشباب كلهم أو أكثرهم
مثله ؛ فذلك لا ينفع مصر ؛ لأن الشذوذ قد يستحسن في بعض الأفراد ويقبل
منهم ، فإذا عم أصبح خطراً مستطيراً .

أنكرت عليه الإطالة في حديث « الجارسونير » ومن كان يختلف إليها من
النساء ؛ فقد أكون محافظاً مسرفاً في المحافظة ، ولكننى على كل حال لا أرى
لهذه الإطالة نفعاً ولا أجد فيها شيئاً جديداً ، وإنما هو حديث معاد ، كثيراً ما
يتحدث به الناس في الأندية ، وما أكثر ما يكتبونه في الصحف والمجلات !

ثم ينتهى الأستاذ فكرى أباطة من كتابه إلى نتيجتين : فهو ينصح الشباب أن
يتزوجوا قبل أن يبلغوا الخامسة والعشرين . وهو ينصح للشباب ألا يشتغلوا بالسياسة
قبل أن يبلغوا الخامسة والثلاثين . وكلتا النصيحتين في حاجة إلى البحث ، بل
كلتا النصيحتين لا ينبغي أن تقدم إلى الشباب . فكيف يستطيع الشاب أن
يتزوج قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين ، وأنت تعرف من ظروف الحياة المصرية
الحديثة ما تعرف ، والخامسة والعشرون هي السن التى يفرغ فيها الشاب من درسه ،
أو يكاد يفرغ منه ؟ أفترى إلى الشاب طالباً ، وزوجاً وأباً ، في وقت واحد ؟ أم
ترى إلى الشاب زوجاً وأباً ، وهو قد خرج من المدرسة ، وظفر بالإجازة ، وأخذ
ينتظر العمل الذى يمكنه من كسب العيش !

وشرٌّ من هذا أن تنصح للشباب ألا يشتغل بالسياسة قبل الخامسة والثلاثين .
كيف استحال الأستاذ فكرى أباطة رجعيّاً إلى هذا الحد ؟ إن الخامسة والثلاثين
سن يصل فيها كثير من الناس إلى أرقى ما يستطيعون أن يبلغوه من حياتهم ، وهى
السن التى يكاد ينتهى عندها نشاط الشباب ، وتبدأ معها رزاة الشيوخ . أفيريد
الأستاذ فكرى أباطة أن يحرم مصر نشاط الشباب المصريين ، وأن يجعلها كلها
رزاة وأناة وتقديراً للعواقب وإشفاقاً من الحوادث وحساباً للغد ؟ هذا كثير ،
كنت أظن أنه مقصور على الدين وضعوا نظام الجمعية التشريعية قبل الحرب ،
وعلى صدقى باشا وأمثاله في هذه الأيام . وما زلت أشك في أنه رأى يراه الأستاذ
فكرى أباطة وهو المتطرف الذى لا يجب السياسة رزاة ولا أناة ولا هدوءاً .

واللغة ، أيجوز لى أن ألفت الأستاذ إلى أنه يسرف عليها أحياناً ؟ أنا أعلم
حق العلم أنه يتعمد ذلك تعمداً في كثير من الأحيان ؛ لأن أسلوبه يريد ذلك ،

ولأن فكاهته تقتضيه . ولكن في كتابه أغلظاً ما أحسب أنه قصد إليها ، وما أظن أن الفكاهة قد اقتضتها ، وإنما هو هذا الخطأ الشائع الذي يحسن بالأدباء أن يتجنبوه .

ومن هذه الأغلظ أيضاً لفظ « العواطف » نسبة إلى العواطف صفحة ١٨ والجمع لا ينسب إليه على هذا النحو وإن كان الشبان لا يحفلون بذلك في هذه الأيام . ومن هذه الأغلظ قوله « ونخلع ملابسه حيث كانت الساعة العاشرة » صفحة ١٤ « فحيث » ظرف من ظروف المكان و « الساعة » زمان . ولست أدري كيف يمكن أن يحتوى المكان الزمان ، أو أن يحتوى الزمان المكان . وهذا خطأ شائع قد كثر التنبيه إليه ، ولكن الكتاب لا ينتبهون .

أما بعد فإني أجدد للأستاذ شكري وعذري وإعجابي ونقدي ، وأرجو أن يكون كتابه المقبل خيراً من كتابه هذا ، لا يثير في النفوس إلا ما ينبغي لصاحبه من الإعجاب الخالص .

عود إلى أخلاق الأدباء

لنبتسم ، ففي أخلاق أدبائنا ما يدعو إلى الابتسام ، ولنغتبط ، ففي أخلاقهم ما يدعو إلى الاغتباط ، ولنرض على كل حال ؛ فالنظر في أخلاقهم على علاتها يملأ القلوب رضاً واطمئناناً . فهم ليسوا جميعاً مسرفين في الاعتداد بأنفسهم ، وهم ليسوا جميعاً مضيبي الصدر ، ولا سيئى الخلق ، ولا طوال الألسنة يبسطونها في الناس بالشر حين ينبغي أن يبسطوها بالشكر والحمد والثناء . نعم ! لنبتسم ، ولنغتبط ، ولنرض ؛ ففي أخلاق أدبائنا عوج ، ولكن في أخلاقهم استقامة ، وفي حياة أدبائنا شر ، ولكن في حياتهم خيراً كثيراً . وأكبر الظن أن الذين يثيرون الحزن في النفوس ويدفعون إلى الرحمة والرثاء ، وقد يدفعون أحياناً إلى السخط والضيق ، ليسوا إلا قلة ، لا ينبغي أن يحفل بها ، ولا أن يفكر فيها عندما يراد تأريخ الأدب وتصوير حياة الأدباء في هذا العصر الذى فسد فيه كل شيء إلا أخلاق جماعة من الأدباء والمثقفين أراد حسن الحظ أن تستعصى على الفساد .

قوم مسهم النقد الرفيق ، فثاروا ، وحاولوا أن يثيروا غيرهم من الناس . وفسدت أعصابهم واضطرب مزاجهم ، فحاولوا أن يفسدوا الأعصاب كلها ، ويشيعوا الاضطراب في الأمزجة كلها ، ولكنهم لم يبلغوا مما كانوا يريدون شيئاً ، ولم يظفروا مما كانوا يحاولون إلا بكلام قليل ضئيل لا يقدم ولا يؤخر .

وأكبر الظن أن تبعة ما يضطرب فيه هؤلاء الناس من ضعف الأعصاب واضطراب الأمزجة وسوء الخلق ، إنما تقع على الأدباء الذين يسمونهم شيوخاً ، وإن كان الأمد بينهم وبين الشيوخوخة ما يزال بعيداً . وهذه التبعة تقع على هؤلاء الأدباء لأنهم أعرضوا عن النقد وأهملوه أعواماً غير قصار، فنشأ جيل من الكتاب والشعراء ينشئون وينظمون ويذيعون ما ينشئون وما ينظمون، فتشره الصحف، ويقرؤه الناس أو لا يقرؤه ولا يعرض النقد له بخير ولا بشر. ومضت على ذلك الأيام، وطال على ذلك العهد، حتى خيل إلى هؤلاء الكتاب والشعراء أنهم كتاب وشعراء حقاً، وأن النقد إن

كان لم يصبهم ، ولم يمسه مساً رفيقاً أو عنيفاً ، فذلك لأنهم فوق النقد ، أو لأن النقد لم يجد إليهم سبيلاً ، أو لأنهم بلغوا من الإجابة والإتقان ما ينبغي أن يجعلهم بمأمن من أن تصل إليهم أقلام الناقدين . وكذلك سيطر عليهم الغرور فلا قلوبهم وعقولهم ، وصرفهم عن العناية بالفن والحرص على الإجابة والرغبة في الإتقان ، وخيل إليهم أنهم قد بلغوا الكمال أو تجاوزوا إلى ما هو فوق الكمال . هناك آمنوا بأنفسهم ، واستيقن كل واحد منهم أنه نابغة ، وأنه آية بين أترابه ، وأنه مظلوم في هذا العصر الذي يعيش فيه ، ويعجبُ الناس به ولكنهم لا يوفونه حقه من الإعجاب ، ويؤمن الناس له ولكنهم لا يوفونه نصيبه من الإيمان . ثم أخذوا يبحثون عما يحول بينهم وبين ما يرون أنهم أهل له من الإكبار والإعجاب ، فلم يهتموا بأنفسهم بضعف ، ولم يظنوا بأنفسهم قصوراً أو تقصيراً ، لأنهم فوق الضعف وفوق القصور والتقصير عند أنفسهم على أقل تقدير . ولم يشكوا في أن الناس يقرءونهم . وكيف يستطيع الناس ألا يقرءونهم وهم ينزلون عليهم الآيات إذا أصبحوا وإذا أمسوا . ولم يشكوا في أن الناس يرضون عنهم ، وهل وصل الناس من الجحود والغفلة إلى حيث لا يرضون عن هذا البيان المعجز ، والسحر الذي ليس إلى تقليده من سبيل إلا نما العقبات التي تحول بينهم وبين حقهم من الشهرة هم هؤلاء الأدباء الذين سبقوهم في الزمان ، وظهروا قبلهم في ميدان الحياة الأدبية ، فاستأثروا بالشهرة وبعد الصيت ، واحتكروا ما يملكه الناس من الإعجاب والحب ، ثم ضنوا بما ظفروا به فلم يقبلوا فيه شركة ، ولم ينزلوا منه للشباب الناهض عن جزء يسير . وكان حق هؤلاء الأدباء الذين يسمون بالشيوخ على هؤلاء الأدباء الذين يسمون بالشباب أن يشكروا لهم صمتهم عنهم وإعراضهم عما يكتبون ، وانصرافهم إلى الإنتاج عن النقد . فهذا الصمت والإعراض والانصراف هي الحصائل التي هيأت لهم أن يظهروا ، وأتاحت لهم أن يعرفوا ، ومكنت لهم بين من يقرءوهم ويرضى عنهم من الناس ، ولكن هؤلاء الأدباء الذين يسمون بالشيوخ لم يلقوا من هؤلاء الشباب إلا جحوداً وعقوقاً ، وإلا بغضاً ونفوراً . فقد ظن الشباب أن سكوت الأدباء عنهم حسد لهم ، وبخل عليهم بما هم أهل له من الشهرة وحسن الحديث . وما جزاء البخل إلا أن يلاموا على البخل ، وما جزاء الحساد إلا أن يعابوا على الحسد ، وما جزاء المنافسين إلا أن يصلوا منافسيهم حرباً شعواء تقصمهم قصماً ، وتهدمهم هدماً ، وتجعلهم أحاديث . وكذلك ظنت الزراير أنها صارت شواهد ،

كما يقول الشاعر القديم . وكذلك أرادت الضفدع أن تكون ثوراً ، فأخذت تنتفخ وتنتفخ ، حتى انفجرت ، كما تقول الأساطير . وكذلك اندفع هؤلاء المحققون في كلام كثير وهذيان لا حد له ، فكلفوا أنفسهم عناء سخيلاً ، وكلفوا الناس عناء سخيلاً ، وكادوا يفسدون الحياة على أنفسهم وعلى الناس . . .

أما أنا فألوم الأدباء الذين يسمون بالشيوخ ، وألوم نفسي قبل أن ألوم أحداً غيري ، على إهمال النقد والإعراض عن هؤلاء الشباب . فلو أننا مضينا فيما كنا فيه نقوم المعوج ونذل المفسدين على وجوه الإصلاح ، لاستقامت هؤلاء الشباب ، أو هؤلاء الذين يسمون أنفسهم شباباً ، حياة أدبية صالحة لا يشوبها الغرور ، ولا يفسدها الادعاء العريض ، ولكان لهم إنتاج أدبي أقوم من هذا الذي يملثون به الأسواق ، ويفسدون به الأذواق ، ويسئون به إلى القراء . فالتبعة التي نحملها ثقيلة حقاً ، وما أظن أننا نستطيع أن نخلص منها إلا بالرجوع عن هذا الخطأ الذي تورطنا فيه ، والإثم الذي دفعنا إليه ، واستئناف النقد كما بدأناه ، حين كانت الحياة الأدبية غضة نضرة ، وحين كان النشاط الأدبي خصباً منتجاً ، وحين كانت الإجابة الأدبية هي التي يقصد إليها الأدباء والشعراء دون الشهرة الفارغة والصيت الذي لا ينفع ولا يفيد . على أني أعود فأغتبط بأن هؤلاء الشباب الذين ساء ظنهم بأنفسهم وساء ظنهم بالناس ليسوا إلا قلة لا يحفل بها ولا يؤبه لها ، وأن كثرة الذين يكتبون من الشباب أو ممن يسمون أنفسهم شباباً لا يزالون يحبون التواضع ، ويكرهون الغرور ، ويتفنون بالنقد ، ويشكرون للنقاد عنايتهم بهم ، ولا يفرضون عليهم لونا من النقد دون لون ، ولا يغضبون منهم أن لم يقدموا لهم من الثناء ما يتحرقون ظمأً إليه .

ولا بد من أن أذكر بعض الأسماء ، ومن أن أذكرها في الخير لا في الشر ؛ فقد يكون من الرفق بالمفسدين ألا نسجل عليهم ميلهم إلى الفساد وإمعانهم فيه ، وقد يكون من الرفق بهم أيضاً أن نعرض عليهم من المثل ما ينتفعون بالنظر إليه والتفكير فيه . ومن هؤلاء الذين نذكرهم بالثناء « ملاحنا التائه » فقد تناولنا ديوانه بالنقد ، ولم نصطنع في هذا النقد رفقاً ولا إثارة ، ولم نتردد في أن نقول لصاحبه ما رأينا أنه الحق . وكان بعض الذين يعرفون ما لم نكن نعرف من أخلاق أدبائنا الذين يسمون أنفسهم شباباً يقدر أن « الملاح التائه » سيغضب أشد الغضب ، وسيسخط أقبح السخط ، وسينكر علينا أن نقول فيه كلمة الحق . ولكن الرجل لم يكذب يقرأ النقد حتى انتهت إلينا عنه أحاديث الرضا ، ثم أقبل بنفسه يتحدث إلينا بهذه

الأحاديث ويقبل من نقدنا ما أقنعه ، ويناقشنا فيما لم يقنعه ، وانصرف عنا كخير ما ينصرف الأديب عن الناقد، ليس في صدره غل ولا حقد ، وليس في نفسه لوم ولا موجدة ، وإنما هي المودة التي يجب أن تكون بين الرجال حين يعرض بعضهم لآثار بعض بالنقد الخالص الذي لا ميل فيه مع الهوى ، ولا انحياز فيه إلى الشهوات .

أما الأستاذ فكري أباطة فلست أدري أشاب هو أم شيخ ، أو قل لست أدري أيرى نفسه شاباً أم شيخاً . أما أنا فأعترف له ولقرائه جميعاً وللذين يعجبون به أنى أراه شاباً ، وأراه شاباً قوى الشباب موفور النشاط ، وأراه شاباً مبتدئ الشباب لم يقطع في طريقه إلا خطوات قصاراً ، فأمد الحياة الحلوة الرخية المملوءة بالآمال واللذات ما يزال أمامه بعيداً كما يشتهي بل أبعد مما يشتهي . وإذا فهو من خير المثل التي يجب أن تقدم للشباب من الأدباء ، وأن تقدم لهم من بين أنفسهم لا من بين الشيوخ . فالقراء قد رأوا ما كتبه في الأسبوع الماضي عن كتاب « الضاحك الباكي » للأستاذ فكري أباطة ، وهم قد رأوا أنى لم أكن فيه رفيقاً ولا ليناً ، وهم قد رأوا أنى قد أخذت الأستاذ بطائفة من العيوب لم أتردد في إظهارها ، ولم أصطنع المجاملة في تصويرها ، وتمنيت آخر الأمر أن تبرأ منها كتبه المقبلة . فلست أدري كيف أشكر للأستاذ فكري أباطة كتابه العذب الرقيق الذي أرسله إلى ، يشكر لي ما كتبت في « حديث الأربعمائة الماضي » ويشكر لي بنوع خاص ما أظهرت من العيوب التي رأيت إظهارها في كتابه ، ويقر منها ما يرى إقراره ، وينكر منها ما يرى إنكاره . أستغفر الله ! فكلمة الإنكار أقوى مما أراد الأستاذ أن يسطر في كتابه حين نهى إلى أنه لم يسرف ولم يبالغ ، وإلى أن الحقائق أقوى وأشد مما صور في كتابه ، وإلى أنه إن كان قد أسرف أو بالغ فإسرافه ومبالغته لا يتجاوزان الصورة والشكل ، فأما جوهر الوقائع وحقيقتها ، فليس عليها بأس من مبالغة أو إسراف .

هذا المثل الذي يقدمه الأستاذ فكري أباطة لشباب الأدباء خليق أن يعرض عليهم وخليق أن يظفر بما هو أهل له من تفكيرهم وتقديرهم . فكثير منهم في حاجة إلى أن يتعلموا منه التواضع وحسن الذوق ، وإلى أن يعلموا أن النقاد ليسوا مدينين لهم بشيء ، وأنهم هم مدينون للنقاد بكل شيء ، وأن الذين لا يؤمنون بهذه الحقيقة خليقون ألا يعرضوا للحياة الأدبية ولا يخوضوا غمارها . فليست الحياة الأدبية لعباً ولا لهواً ، وإنما هي جد كل الجدد، والجد مر في أكثر الأحيان ، وإذا حلا فإنما حلاوته شيء عارض ، لا ينبغي أن يطمع فيه الأديب ، ولا أن يتخذة لسيرته الأدبية أصلاً

ومقياساً . ولولا أنى أكبر تواضع الأستاذ فكرى أباطة وأشفق على الأستاذ منه لنشرت كتابه هؤلاء الشباب الذين تفتنهم أنفسهم ويصرفهم الغرور عن أن يروا فنهم كما هو، إذا عرفوا كيف يقرأ النقد ، وكيف يعرف للنقاد بلاؤهم عند الأدباء .

وأديب آخر لا بد من ذكره وإن كنت لم أعرض له بعد، ولكنى أذكره على كل حال ، وهو الدكتور أبوشادى . فقد بلغه أنى أريد أن أعرض لشعره فى بعض حديث الأربعاء ، ففضل وأرسل إلى بعض دواوينه وكتب إلى يسبق النقد بالشكر مسجلاً على نفسه أنه شاكر لهذا النقد مهما يتكشف عنه من الآراء ، ومهما يكن هذا النقد مرضياً له أو غير مرض ، هذا حسن ، هذا خليق أن ينتفع به الشبان أيضاً ، هذا عهد يجب أن يكون بين المنتجين والنقاد : على المنتجين أن ينتجوا مخلصين ، وعلى النقاد أن ينقدوا مخلصين ، لا ينظم الصلة بينهم فى هذا إلا الصدق والإخلاص ، وابتغاء الحق من حيث هو حق لا من حيث إنه يسر أو لا يسر هؤلاء .

وقد نشرت « مجلة الأسبوع » ، فصلاً لكاتب أديب زعم أنه يريد أن يستكشف أسرار هذه الحركة الأدبية العنيفة التى أثرت فى هذه الأيام ، وأن هذه الأسرار لا ترضى ولا تشرف الأدباء ، وأنها ليست خالصة للنقد أو للأدب ، وإنما هى أشياء قوامها ما يكون بين الأدباء الشيوخ أو الذين يسمون بالشيوخ ، من تنافس وحسد ومن ضغينة وحقد ، إلى آخر هذه الأوهام التى ذهب فيها الكاتب الأديب كل مذهب . ولست أدري أوفق الكاتب للحق حين تحدث عن الأستاذين العقاد والملازنى ، أم أخطأه ، وأكبر الظن أنه أخطأه . ولكن الذى لا شك فيه ولا أحب للكاتب الأديب أن يشك فيه هو أنه لم يوفق للصواب حين ظن بى أنى أتأثر فيما أكتب بمنافسة أو ضغينة أو حقد ؛ فאלله يشهد أنى أبعد الناس عن هذه المؤثرات ، وأنا تم عن هذه الخصال ، وأنى لا أستطيع أن أعرض لكاتب من الكتب أو ديوان من الدواوين قبل أن أستوثق بمقدار ما يستطيع الإنسان أن يستوثق من أنى قد طرحت وراء ظهري كل ما يمكن أن يكون بينى وبين صاحب الكتاب أو الديوان من صلوات الخير والشر ، وقصدت إلى الكتاب أو إلى الديوان لا أبتغى غيرهما ، ولا أفكر فى غيرهما . ولست أزعم أنى أوفق من هذا لما أريد ، ولكن الذى أحققه هو أنى أحاول هذا ما وجدت إلى محاولته سبيلاً . والكاتب الأديب يخطئ كل الخطأ ، ويتبرع بالإساءة إلى حين يظن أنى خبيث على رغم ما أظهر من الطيبة . فلوست أدري أطيب أنا أم خبيث ، ولكن الذى أعرفه ولا أحب للكاتب أن ينكره على هو أنى

لا أحب الخبث ولا أتخذه سبيلاً فيما أكتب من هذه الفصول التي أنقد فيها آثار الأدباء . فليحسن الكاتب الأديب ظنه حتى تقوم له ولأصحابه البيئة على أنى قد أردت بهم سوءاً ، واتخذت الخبث سبيلاً إلى تقدمهم . أما قبل أن تقوم هذه البيئة فهم متجنون . وقد يحسن التجنى من بعض الناس ، ولكنه لا يحسن من الأدباء .

* * *

وفصل آخر من أخلاق الأدباء أريد أن أعرض له في آخر هذا الحديث الذي آسف أشد الأسف لأنى صرفته عما بين يدي من الكتب والدواوين إلى هذه الأشياء التي ما كان ينبغي أن تحتاج إلى أن نجعلها موضوعاً للحديث . وهذا الفصل الآخر من أخلاق الأدباء هو هذا الذي ظهر منذ أسبوع بين الرسالة وبينى من خلاف ما أظن أن كثيراً من الناس قد فطنوا له أو وقفوا عنده . وأنا مع ذلك أعرضه عليهم عرضاً ليعلموا أن أخلاق الأدباء في حاجة إلى شيء غير قليل من التقويم . والخلاف الآن لا يقع بين الشيوخ والشباب ، وإنما هو يقع بين الشيوخ ، أو بين من يسمونهم شيوخاً . فالقراء يعرفون ما كان من قصة الأستاذ توفيق الحكيم ، وهم يذكرون أن هذه القصة نشرت في « الوادى » ذات يوم ، ثم لم يمض يوماً حتى رد عليها الأستاذ توفيق الحكيم بما أصلح الأمر ، وأقر الأشياء في نصابها ورد الصلات بينه وبينى إلى خير ما كانت عليه . ولست أنكر أن هذه الخصومة بين صديقين تقوم صداقتهما على الأدب خليقة بعناية الأدباء ، خليقة بأن تصورها الرسالة لقرائها كما تحب لا تتجاوز في ذلك قصداً ولا حقاً . ولكن الذى لا أشك فيه أيضاً هو أن للصديقين اللذين وقعت بينهما هذه الخصومة على « الرسالة » بعض الحق ؛ فهما من كتاب الرسالة في وقت من الأوقات ، وأحدهما من المؤسسين للرسالة الذين أقاموها على أعناقهم ، وأعانوها على مقاومة الخطوب وعلى أن تشق طريقها بين الصحف الأدبية كما يقولون . وأيسر ما لهدين الصديقين على الرسالة من حق هو أن تعرض الرسالة لهذه الخصومة بينهما من طريق لا تفسد صالحاً ولا تكدر صافياً ، ولا ترد الأمر بينهما إلى الخلاف بعد أن كان قد انتهى إلى الوفاق . وأيسر ما لهما على الرسالة من حق أن تنشر هذه الخصومة بعد أن تتحدث إليهما أو إلى أحدهما في هذا النشر . ولكن الرسالة لم تتحدث إليهما ولا إلى أحدهما ، وإنما نقلت الفصل الذى كتبه ولم تشر إلى أنها نقلته ، بل أعلنت في الصحف قبل صدورها أنها تنشر فصلاً ممتعاً للدكتور طه حسين ، لم تبين عنوانه للقراء مع أنها تعودت أن تبين عنوان ما يكتب فيها هو

أو غيره من الكتاب . ولست أخفى على الرسالة وقرأتها أنى لما رأيت هذا الإعلان عجبت أشد العجب ، ودهشت أعظم الدهش وليت ساعات أرقب الرسالة لأعرف هذا الفصل الممتع الذى كتبه ؛ فقد كنت أعلم أنى لم أكتب للرسالة شيئاً فى ذلك الأسبوع . فلما وصلت إلى الرسالة التمت هذا الفصل الممتع الذى كتبه عن غير علم ، فإذا هو قصة الخصومة بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينى ، تنشره غير مشيرة إلى مصدره ، كأنى قد كتبه لها ، أو كأنى أرسلته إليها .

دع تقصير الرسالة فيما ينبغى من المجاملة بين الصحف مهما يكن بينها من سبيل ، وقف عند تقصير الرسالة فيما ينبغى من المجاملة بين الأصدقاء وفيما ينبغى من الجحد فى الإصلاح بين المختصمين لا فى الإفساد بين الذين صلحت بينهم الأمور . والواقع الذى لا شك فيه هو أن قوماً يقرءون الرسالة ولا يقرءون الوادى قد قرءوا هذه القصة فاستيقنوا أن الأمر بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينى قد فسد ، وكلمنى فى ذلك منهم من كلمنى ، وكتب إلى فى ذلك منهم من كتب إلى ، وكان أيسر آداب المودة والسعى بين الناس بالخير يقضى على الرسالة أن تنشر القصة كاملة إذا لم يكن من نشرها بد ، ليعلم الناس أننا اختصمنا ولكن الصلح قد استقر بيننا ، وأنا اختلفنا واكتناعدنا إلى الوفاق . بل أكثر من هذا أن الأستاذ توفيق الحكيم نفسه ظن أن رده لم يقنعنى وأنى نشرت هذا الرد لأسجله عليه ثم عمدت إلى مقالى فأعدت نشره فى الرسالة . وهذا شىء تعلم الرسالة حق العلم أنه لا يلائم أخلاقى ولا يلائم سيرتى ، ولا ينبغى لها أن تدفعنى إليه أو تدفع الناس أن يظنوه بى . رأيت مسلك الرسالة هذا فكتبت فى الوادى كلمة عتاب يظهر أنها أغضبت صديقى « الزيات » فهو يرد على فى العدد الأخير من الرسالة بكلمة قصيرة جداً ولكنها ثقيلة جداً أظن أنه لا يستطيع حملها وإن كان قوياً شديداً البأس ، وأظن أنه لو فكر فيها وتدبر معانيها لأشفق فى كتابتها ؛ ولكنه أديب فتنه السجع ، وخبليه الإيجاز ، فخطا ولم يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، واندفع ولم يتدبر عاقبة الاندفاع . فالزيات يهمنى بأنى أستغل حياء الحبي ووفاء الوفى وتسامح الأصدقاء ، أستغفر الله العظيم ، وأستغفر حياء الزيات ووفاءه وتسامحه من هذا الاستغلال الذى لم أحس أنى أقدمت عليه فى يوم من الأيام ، وأنى أقدمت عليه بالقياس إلى الزيات خاصة . وإذا لم يكن بد من الاستغلال والمستغلين فإنى أرجو ألا يكون الزيات حياً وفيماً متسامحاً فحسب ، بل أن يكون مخلصاً صادقاً أميناً أيضاً . وإذا فأنا أسأله أين يكون الاستغلال ، وأين يكون المستغلون ؟ وأنا أسأله وألح عليه فى

السؤال أن يبين لي في صراحة لا تحتمل الشك ولا اللبس ولا الغموض : متى استغللت حياؤه ووفاءه وتسامحه؟ أحيان كنت أكلف نفسي ما أطيق وما لا أطيق، وأحمل نفسي من الجهد ما أحتمل وما لا أحتمل لأرضيه ولأرضي الناس عن الرسالة ، أم حين كنت أجدُّ النهار كله في عملي الخاص ، حتى إذا كان الليل وطمعت في شيء من الراحة لم أظفر بها ولم أفكر فيها، وإنما فرغت للرسالة أكتب لها الفصول أو أترجم لها الكتب لأنها في حاجة إلى ما يُكتب أو يترجم ، ولأن الزيات يريدني على أن أكتب أو أترجم ، ولأن الأصدقاء لا يريدون أن تظهر الرسالة وليس لي فيها أثر مترجم أو مكتوب؟ أم حين كنت أفرغ من عملي الخاص، وأعود بعد الظهر لأتغدى وأستريح، ولكن الزيات ينتظر مني فصلا للرسالة يجب أن يصل إليه آخر الساعة الخامسة أو آخر الساعة السادسة ، فلا أفرغ من الغداء إلا لأمضي في الكتابة حتى ترضى الرسالة ويرضى الزيات؟ أكنت في هذا كله أستغل حياء الزيات الحبي أو وفاء الزيات الوفي ، وتسامح الزيات الصديق ، أم كان الذي يستغل حياء الحبي ووفاء الوفي وتسامح الصديق شخصاً آخر لا يحمل اسمي ولا يتصف بما أتصف به من الحصال؟ عفا الله عن الأدباء! فما أشد ما تحتاج إليه أخلاقهم من التقويم ، وما أشد ما تحتاج إليه أقلامهم من الكبح، فهي تجمع أحياناً فتسرف في الجموح!

أما بعد فإن هذه الحصومة الأخيرة التي يثيرها الزيات وهو صديق الصبا وأخو الشباب خليقة أن تدعو إلى التفكير في هذا العهد الذي فسدت فيه الصلة بين الناس حتى ما يراعون لمودة حرمة ، ولا يعرفون لصديق حقاً ، ولا يرجون لإخلاص وقاراً ، ولا يرفعون أنفسهم عن أن تقول غير الحق ، وتتورط في غير الصواب ، وتتهم الناس بما ليس فيهم من عيب، لا لشيء إلا لأن السجع يستقيم ، والإيجاز يحسن وقعه في السمع ومجراه على اللسان . إن مودة الأصدقاء يجب أن تكون أعلى من سجة ، وأنفس من إيجاز . وإن احترام الرجل لنفسه ، وحرصه على ألا يقول غير الحق ورغبته في ألا يُردّ الشر إليه حين يصدر عنه، كل ذلك خليق أن يدعو الزيات إلى أن يفكر فيما كتب، وإلى أن يعتذر مما قال . وهو على كل حال خليق أن يقطع ما بين الرسالة وبينى من صلة ، حتى يعرف أصدقاءنا الذين نهضوا معنا بتأسيس الرسالة أن لصديقهم عليهم حقاً يجب أن يؤديه إليه .

على بساط الريح

للشاعر اللبناني فوزى المعلوف

قضى شاباً لم يتجاوز الثلاثين ، ولو قد عمر لكان له في حياة الشعر العربي الحديث شأن أى شأن ، ولكان له بين الشعراء المحدثين مكان أى مكان . وكثير من الشعراء يمرون بالأرض سراعاً ولكنهم يتركون فيها آثاراً باقية طويلة البقاء ، ومنهم من يطبع جيله بطابعه الخاص ، ومنهم من ينشئ مذهباً في الشعر يبقى ما بقي الشعر ، ولا يتأثر باختلاف الظروف وتباعد العهد وتتابع الأيام . وكان « أبو تمام » من هؤلاء الشعراء ، مر بالأرض مرّاً سريعاً ، كما يمر السحاب ، ولكنه غرس في الأرض حدائق لن يجد الذواء والذبول إليها سبيلاً . وكان « أندريه شينيه » من هؤلاء الشعراء ، مر بالأرض مرّاً سريعاً كما يمر السحاب ، واحتفظته الثورة الفرنسية احتطافاً ولما يبلغ رسالته كاملة . ولكن الشعر الفرنسي لم ينس غناؤه بعد ، ويظهر أنه لن ينساه ، ما دام في الشعر الفرنسي غناء .

وفوزى المعلوف بعيد كل البعد عن أن يشبه بأبى تمام أو يقاس إلى أندريه شينيه ، ولكنه قريب كل القرب من أن يذكر معهما ، ويفكر فيه إذا فكر فيهما ، ويتحدث عنه المتحدثون إذا تحدثوا عنهما . مر بالأرض مرّاً سريعاً ، كما تمر النسمة الهادئة ، الحلوة الوديعه ، التي تحمل على هدوئها وحلاوتها وعلى دعائها وعدوبتها خصباً كثيراً ، فيه حياة للنفوس ، وفيه شفاء للقلوب ، وفيه مادة لتفكير العقول ، فتأتى ما تحمل ، ثم تمضى في طريقها هادئة وادعة ، إلى هذا العالم الذي لا يرجع من يذهب إليه . أو قل إنه مر بالأرض مسرعاً كما تمر نعمة الغناء ، أو كما يمر لحن الموسيقى ، فمضى إلى حيث لا يعلم أحد ، ولكنه ترك في النفوس صدى يتردد فيها حلواً لاذعاً محرقاً معاً . لا أعرف أنى تأثرت بشاعر كما تأثرت بهذا الشاعر الشاب ، حين قرأت قصيدته على « بساط الريح » أمس ، فاهتزت لها نفسى اهتزازاً ، وأشفق لها قلبي إشفاقاً . ثم قرأتها اليوم فوجدت لقراءتها مثل ما وجدت أمس ، أو أكثر مما وجدت أمس . وما أرى إلا أنى سأقرأها وأقرأها ، وسأجد في قراءتها هذه اللذة المرة

التي يحبها الأديب حين يقرأ الشعر الجيد الرائع الجميل . بل أذكر أني وجدت هذا الأثر مرة حين قرأت منذ أعوام مقطوعات من الشعر الفرنسي نشرتها « الالستراسيون » لشاب أمريكي أحب فرنسا وتطوع للدفاع عنها أثناء الحرب ، وتغنى في شعره الفرنسي الحلو بجمال تلك الأرض التي كان يدافع عنها ، والتي تنبت خير ما ينبت في فرنسا من الكرم ، وتؤتي خير ما تؤتيه كروم فرنسا من الحمر . وكان ذلك الشاعر الأمريكي الشاب يحس أنه سيموت ، وكان يقدر أن جسمه سيمتزج بثرى ذلك الإقليم الفرنسي ، إقليم « شمبانيا » ؛ وسيغدو ما سينبته ذلك الثرى من الكرم ، وسيشيع فيما ستؤتيه تلك الكروم من الحمر . وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه بالفرنسيين ، وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه بما سيلقاه الفرنسيون من النشوة والفرح ، ومن البهجة والسرور ، حين يشربون ما سيؤتيه ثرى « شمبانيا » من النبيذ .

وكنت أقرأ هذا الغناء الحزين اللاذع ، فأجد لنغمته لذة حزينة لاذعة ، كهذه اللذة التي وجدتها أمس ووجدتها اليوم حين قرأت قصيدة ذلك الشاعر اللبناني الشاب . ولست أعرف من أمر هذا الشاعر شيئاً إلا أني سمعت اسمه من أبيه الحزين حين كان في مصر أثناء الشتاء ، ثم حدثني عنه المحدثون في هذه الأيام ، حين أخذت في درس الشعر العربي الحديث . ثم حمل إلى بعض الأصدقاء قصيدته هذه ، ثم قرأت هذه المقدمة الطويلة الغريبة ، التي قدمها بين يديها بعض المستشرقين ، ثم أعرضت عن هذا كله ، وأخذت أقرأ القصيدة نفسها ، فأى روح عذب ، وأى فن رائع ، وأى موسيقى خليقة بالبقاء !

وقد قرأت في المقدمة ، وقال لي الناس ، إن لهذا الشاعر مجموعات أخرى من الشعر . وأنا أرجو أن أوفق لقراءتها أو للنظر فيها ؛ فإن من الخير بل من الواجب على الذين يُعَنَوْنَ بالشعر العربي الحديث أن يدرسوا شاعرية هذا الفتي درساً مفصلاً دقيقاً ، ليروا كيف نشأت وكيف تطورت ، وكيف انتهت بصاحبها إلى هذا الخطر العظيم من الإجادة والإتقان . ولا بد من أن أكبح هذه العواطف التي تثير في نفسى عواطف الحب والحزن ، والرحمة والإشفاق . لا أستطيع أن أتحدث عن هذه القصيدة حديث الناقد الذي لا يتأثر بالعواطف والميول إلا بمقدار ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ القصيدة كلها حزن وكلها إثارة لهذه العواطف . بل كيف السبيل إلى ذلك والشيء القليل الذي انتهى إلى من أمر هذا الشاب ، كله حزن ، وكله إثارة للعواطف . فقد نشأ هذا الفتي في لبنان حيث هذه الطبيعة الرائعة التي نجحها

ونكبرها ونكلف بها ، ونُعجَبُ بما تفيض على أهلها من دعة وشدة ، وكرم يقوم النفس ، ويصني الطبع ، ويبعث في المزاج حدة كلها شعر ، وكلها تأثر بالجمال . ولم يكد هذا الفتي يبلغ الشباب حتى هاجر ، كما يهاجر أبناء وطنه ، إلى طرف بعيد من أطراف الأرض : هناك في أمريكا الجنوبية حيث الحياة سهلة ولكنها لا تخلو من نشاط ، وحيث الحياة عاملة ولكنها لا تدفع إلى المادية التي تفسد القلب والذوق ، وحيث يعيش المهاجرون عيشة قوامها الأمل والذكرى ، ومزاجها الحنين الذي يؤلف بين الأمل والذكرى . هناك حيث تفتح أمام اللبناني والسوري أبواب الأمل الذي لا حد له أيضاً ، ولكن حيث لا يستطيع اللبناني والسوري أن ينسى في لحظة من لحظات حياته أنه ابن لبنان ، أو ابن سوريا ، وأن له في لبنان أمًّا وأبًّا وإخوة صغاراً ، وقوماً ينتظرون منه الخير ، ويرجون له الخير ، ويبعثون الرسائل تحملها إليه السفن ، ويبعثون نفوسهم وآمالهم تحملها إليه الريح . يذكرونه إذا أشرقت الشمس ويذكرونه إذا أشرقت الشمس ، يذكرونه إذا أقبل الليل ، ويذكرونه إذا أقبل الليل ، ينادونهم في الأحلام ، ويناجيهم هو أيضاً في الأحلام . فتكون له حياة عربية خالصة ، ترده إلى بداوته الأولى ، وإن كان في بيئة كلها حضارة كأحدث ما تكون الحضارة . وهل حياة العربي إذا حلتها ورجعت بها إلى أصولها الأولى إلا حنين يختصره هذا البيت :

عُوجًا على الطلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حزام
أو يختصره هذان البيتان :

هوَى ناقتي خلتني وقد أوى الهوى وإني وإياها لمختلفان
تحن فتبدي ما بها من صباية وأخني الذي لولا الأسي لقضاني

حياة العربي كلها حنين تفيض به نفسه إن سكنت ، ويفيض به كلامه إن تكلم ، ويفيض به شعره إن كان من الشعراء . ودع ما يقوله مؤرخو الآداب في تحليل الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار وتذكر الأحباب في أول الشعر ، على اختلاف العصور والمنازل ، فليس لهذا كله علة إلا هذا الحنين الذي امتزج بنفس العربي فقومها تقويمًا .

عاش هذا الشاب بين الأمل والذكرى والحنين ، ومات هذا الشاب بين الأمل والذكرى والحنين ، وتغنى هذا الشاب في قصيدته هذه بأساً مهلكاً ، وحرزاً محرقاً ، لا مصدر لها إلا الأمل والذكرى والحنين .

وارحمنا للغريب في البلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

والقصيدة التي أريد أن أتحدث عنها قصة يسيرة ولكنها رائعة في سرها، قصيرة ولكنها بارعة على قصرها، تاخيصها سهل ولكنها لا تحتل التاخيص، لأن جمالها لا يأتي من جملتها وإنما يأتي من تفصيلها، وهو لا يأتي من خلاصتها، وإنما يأتي من هذا الشرح الذي بسطت به هذه الخلاصة تبسيطاً وعرضت فيه عرضاً جميلاً. فالشاعر قد طار في الجودقائق، ثم هبط الأرض. هذا كل شيء، هذه هي الفكرة التي أوحى القصيدة إليه، ففكرة من أيسر ما يخطر للناس، ولكن انظر في الوحي الذي صدر عنها فستراه رائعاً حقاً. والغريب أن الشاعر لم يطل في وصف الطيارة التي صعد بها الجو، ولم يغرب في هذا الوصف، ولم يأت فيه بشيء يمكن أن يوصف بأنه جديد. ولعله كان عربياً بدويّاً، حين خيل إليه أن في صدر الطيارة جنتاً تحث الخيل. ولكن جمال القصيدة لا يأتي من الوصف، وإنما يأتي من هذا الخيال الفلسفي الساذج الذي يرقى بالإنسان في فلسفة مألوفة قديمة ليس فيها ابتكار إلى روحيته العليا في غير تكلف ولا احتمال بل جهد في التصعيد الطويل.

وقد قسمت القصيدة أقساماً ورتبت أناشيد، وألف بين هذه الأقسام والأناشيد تأليفاً طبيعياً منطقيّاً يكون وحدة منسقة بديعة التنسيق، وبُشَّت في هذه الوحدة حياة قوية جداً، وحركات تلائم ما في هذه الحياة من القوة، ثم بثت بين هذه الحياة والحركات نجوى هادئة وديعة مؤثرة تصور روح الشاعر الهادي الوادع على ما يحطم نفسه من اليأس. بدأ قصيدته بتصوير الشاعر الذي سيقص علينا قصته، فجعله ملكاً في الهواء، ثم وصف روحه الحر، وجسمه العبد، في الأناشيد الثلاث الأولى. فانظر كيف ابتداءً. ونلاحظ قبل كل شيء أنه اختار البحر الخفيف من أوزان الشعر لقصيدته، لم يغير فيه طول القصيدة، ولكنه غير القوافي بتغيير الأناشيد، والتزم في البيت الأول من كل أنشودة نوعاً من الموسيقى يهب له ظرفاً وجمالاً موسيقياً خاصاً، فيضيف أو قل يقحم بين شطري هذا البيت متقطعتين من مقاطع البحر الخفيف هما «فاعلاتن مستعلنن» ثم يضيف نفس هذين المقطعين بعد هذا الشطر الثاني فيمان المعنى ويضعان موسيقى الأنشودة أجمل وضع وأروع. فانظر كيف بدأ أنشودته الأولى:

في عباب الفضاء فوق غيومه
فوق نسره
ونجمته
حيث بث الهوى بثغر نسيمه
كل عطره
ورفته

موطن الشاعر المحلق - منذ البدء لكن بروحه لا يجسمه
أنزلته فيه عروس قوافيه بعيداً عن الوجود وظلمه
ملك قبة السماء له قصر وقلب الأثير مسرح حكمه
ضارب في الفضاء موكبه النور وأتباعه عرائس حلمه
فانظر إلى هذين المقطعين القصيرين اللذين أحاط بهما الشطر الثاني من البيت
الأول ، وكيف يمان معناه ويجملان لفظه وينسقان موسيقاه ، تنسيقاً حلواً ظريفاً .
ثم انظر إلى هذه الموسيقى التي تنبث في الأنشودة كلها مؤلفة من الألفاظ والمعاني
ومن هذه الصور الغريبة التي يعرضها عليك في جرأة ، كأنها الأصوات النابية التي
يفرضها الموسيقى عليك فرضاً لأمر يريد به هو ولا تفطن له أنت وإنما تتذوقه وتعجبه
وتطمئن إليه . فهذا الشاعر الملك الذي اتخذ قبة السماء قصراً وأديم السحاب عرشاً
ودجى الليل طيلساناً ، والثريا صولجاناً ، ملك رائع ، لا لأنه ممكن ، ولا لأنه
مستحيل ، بل لأنه غريب نتخيله ولا نتصوره ، نلمحه ولا نكاد نتبينه . وهذا الملك
غريب في الأرض قد أكره على أن ينشأ فيها ويعيش عليها ، ولكنه يفلت منها بين
حين وحين ، فيصعد إلى قصره في قبة السماء ، ويجلس على عرشه من أديم السحاب ،
ويتصرف في ماكره بأمر الخيال ، وباسم الخيال ، حتى إذا رُدَّ إلى موطنه السفلى نظر
فإذا هو عبد لكل شيء : عبد لقلبه ، وعقله ، وشعوره ، وحسه . عبد للناس وعبد
لما يضعون من نظام وقوانين . عبد للطبيعة ، عبد لكل ما يحيط به . لا يخلص من هذا
الرق إلا حين يعطف عليه روحه ، فيحمله على جناح خياله ، وينقله إلى ملكه الرفيع .
كل ذلك يؤدي في ألفاظ سهلة ومعان قريبة وصور منها المؤلف ومنها الغريب ،
ولكنها كلها جميلة ، لأنها مألوفة حيناً ولأنها غريبة حيناً آخر . هذا الشاعر الحر
العبد ، المقيد ، المطلق ، الملك ، الراعي ، حلم ولكن في اليقظة لا في النوم ، رأى
نفسه يصعد في السماء ، على طيارة ، انظر كيف وصفها الشاعر :

هي طير من الجهاد كأن السجين في صدرها تحث خيولا
 جمحت تضرب الرياح بنعليها فشقت إلى السماء سبيلا
 ثم مدت إلى النجوم جناحين وجرت على السحاب ذيولا
 غرقت في الأصيل حيناً وعامت بعد حين تعلو قليلا قليلا
 ترتدى من دخانها بردة الليل وتلقى عن منكبيها الأصيل
 وعليها من الشرار نجوم عقدت حول رأسها إكليلا
 حلتى ، حلتى ، وألقى على الأفلاك رعباً وروعة وفضولا

فلم تكذ هذه الطيارة ترقى به في الجو حتى أحسته الطير ، فارتاعت له
 ثم ائتمرت به ، ثم هجمت عليه لأنها ظنته مستعمراً يريد أن يملك الجو ، كما
 تعود أن يغير على الأرض . وهل يستطيع الشاعر العربي الشرقي أن ينسى الاستعمار
 إن أقام في وطنه ! أليس طريد الاستعمار إن هاجر عن وطنه ! ولكن الشاعر
 يؤمن الطير ويأمن إليها ، ويطلب عندها الراحة من التعب والعناء ؛ فهو شقي في
 الأرض ، متعب بما فيها ومن فيها .

ثم انظر إلى أنشودته التي سماها « رمز الألم » كيف صور فيها شقاء الإنسان
 وتعبه وسوء حظه وحاجته إلى أن يفلت من هذه الحياة من حين إلى حين ،
 ليرفه على نفسه ، حتى تتاح له الراحة الكبرى ولكن الحلم ما زال متصلا ،
 والطيارة ما زالت تصعد بصاحبها ، وهو قد بلغ الطير فأخافها ثم صالحها ،
 ولكنه عاقل يعيش في القرن المم العشرين ، ويركب الطيارة ، وهو في الوقت
 نفسه شاعر يهيم في فضاء لا حد له ، فهو يدنو من النجوم ولكنه لا يبلغها ،
 يدنو منها بقوة الخيال ، ولا يبلغها لأن العلم ما زال قاصراً عن أن يبلغه إياها .
 وقد أحبته النجوم ، فبعضها يشفق منه ، وبعضها يهزأ به . والطيارة تصعد به
 دائماً ، والحلم متصل لا ينقطع ، وإذا هو يحس من حوله حياة لم يعرفها وأشباحاً
 لا يتبينها ، وأصواتاً يتذوقها ولا يكاد يسمعها ، وإذا هي الأرواح تنكره ويأتمر
 به بعضها . أليس هو حفنة من تراب قد طفت على الجو ، وسمت إلى حيث
 لا ينبغي أن تسمو ؛ فيجب أن تُردَّ إلى أصلها ، وأن تمتزج بمعدنها من الأرض .
 ولكن روح الشاعر يواتيه فيحميه ويعطف عليه كل هذا الكون الذي ينكره
 ويثور به ، وإذا الشاعر يقضى على بساط الريح مع خير ما في الكون من
 المعاني والروح والمثل العليا ، لحظات لا سبيل إلى أن تقدر ولا إلى أن توصف ،

وإنما هي لحظات النعيم الذي يذوقه الشعراء ويبدع في تصويره الشعر ، ثم يعجز برغم هذا الإبداع عن أن يؤدي صورته كما كان يريد أن تكون صادقة صافية ملائمة لما رأى وما أحس .

ثم ينقطع الحلم وتهبط الطيارة الأرض ، وينظر الشاعر فإذا هو قد رُدَّ إلى موطن الرق وهوى إلى حيث الشقاء والألم والذل ، وما شئت مما يجعل حياة الناس تعساً كلها ، وإذا هو لا يجد معزياً ولا معيناً إلا قلمه . أليس هو الذي يتلقى عنه وحى الشعر ؟ أليس هو الذي يسطر عنه هذا الوحي ؟ أليس هو الذي يحمل شكاته المتصلة الخالدة إلى الأجيال المتصلة الخالدة ؟ نعم ؛ ليس للشعراء صديق يعدل روايتهم حين كانوا لا يكتبون . ولولا الأقلام ما عرفنا - أستغفر الله - ما عرف شعراءنا المحدثين أحد من هؤلاء الذين سيعرفونهم بعد أن تمضي القرون والقرون . فيموتون لهم ، ويعطفون عابهم ، ولعلهم أن يجدوا عندهم ما يسر ويرضى ، كما نجد نحن السرور والرضا عند القدماء .

لو طاوعت نفسى لنقلت لك القصيدة كلها فليس فيها بيت واحد يستحق الإهمال . وأعيد الآن ما قلته من أن القصيدة لا تمتاز بالابتكار ، فليس فيها أو لا يكاد يكون فيها شيء مبتكر ، وإنما تمتاز بهذا الروح الحلو القوي الوداع الذي تكون من جمال الشعر والموسيقى وانبتت في القصيدة كلها فجعلها كلها خليقة أن تقرأ وتقرأ ، ولا يزهد فيها القارئ ولا يعمل من قراءتها مهما بعدها ، بل يرغب القارئ أشد الرغبة في أن يستريح إلى هذه القصيدة حين يثقل الهم على نفسه ، ويضطرب الحزن في صدره ، ويضيق بالحياة والأحياء ؛ لأنه يجد في هذه القصيدة شريكاً له في الهم ، ومشاطراً له في الحزن ومعيناً له على الضيق . ثم لأنه لا يكره أن يحلم مع الشاعر وهو يقظان ، وأن يتخفف من جسمه ويدع الأرض وأثقالها ، ويلم بهذا الشاعر الملك في قبة السماء التي اتخذها له قصرًا ، وعلى أديم السحاب الذي اتخذ له عرشاً ، ومن هذا القصر الشاهق ومن هذا العرش العالى ينظر مع الشاعر إلى الأرض ومن عليها وما عليها نظرة بريئة من الكبرياء ولكنها مملوءة بالرحمة والحب والإشفاق . ولست أزعج أن القصيدة تخلو من بعض الألفاظ التي كان الشاعر يحسن لو غيرها وأعرض عنها ، ولكن أين تكون هذه الألفاظ القليلة النادرة من هذا الجمال الذي لا حد له ولا نهاية ! لقد خسر الشعر العربي بموت هذا الشاعر الذي لم يكذب بتجاوز الثلاثين ؛

ولكن الشعر العربي الحديث قد ربح بهذه الحياة القصيرة ما أحسبه يقدره إلى الآن . ولعل مما يعزى أن يكون بعض الشعراء المصريين قد عرف لهذا الشاعر قدره ووصف قبره هذا الوصف المؤثر الرائع الذي تقرأه في ديوان « الملاح التائه » والذي يقول فيه الأستاذ علي محمود طه قصيدته « قبر شاعر » المنشورة في غير هذا المكان .

ومن الحق أن نسجل هنا ما سجله الشاعر نفسه من أن هذه القصيدة إنما هي من وحي فوزى المعلوف ؛ فقد قالها الشاعر بعد أن سمع شيئاً من هذه القصيدة التي تحدثت إليك عنها الآن .

في النظم

أنفاس محترقة - محمود أبي الوفا

يراه صديقنا فؤاد صرّوف وجماعة غيره من المثقفين شعراً ، وأنا آسف
أشد الأسف لأنى لا اراه إلا نظماً . وآسف أشد الأسف أيضاً لأنى مضطر
إلى أن أقول ذلك وأعلنه إلى قراء هذا الحديث . ولو أرسلت نفسى على سجيتها
لآثرت ألا أعرض لهذا الديوان . ولكن ماذا أصنع وللنقد علينا حقوقه وتكاليفه
الثقال ، وللقراء علينا أن نصدقهم حين نتحدث إليهم فيما ينشر عليهم من
أنواع الكلام ؛ والله يعلم أنى أؤثر الرفق على العنف ، واللين على الشدة ، ولكن
الله يعلم أيضاً أنى لا أتردد فى الشدة والعنف حين يدعو إليهما الحق ويقتضيهما
الإنصاف . وإنى لأشعر بشيء من الحزن العميق حين ألاحظ أنا كنا منذ
أعوام نقسو على حافظ وشوقى رحمهما الله ، نجادلها فيما كانا يقولان أشد الجدل ،
وننازعهما فيه أشد النزاع ، لا نكاد نسلم لهما بالإجادة ولا نعترف لهما بالإتقان .
ولم نكن فى ذلك مسرفين ولا مخطئين ، وإنما كنا نؤدى للمثل الفنى الأعلى
حقه ، ولا نكتفى من شعرائنا بما كانوا يكتبون به ولا نرضى لهم أن يفسد عليهم
أمرهم العُجب ويحملهم الغرور على التقصير أو القصور . كنا كذلك منذ
أعوام ، أما الآن فقد أصبح الرضا يسيراً ، وأصبح كل كلام منظوم شعراً ،
وكل كلام مرسل نثراً ، وكل شيء مطبوع فى مجلد أو سفر من الأسفار
أدبياً ، وأصبح الجدل فى ذلك أو الإنكار له إثمًا من الآثام ، وذنبًا من الذنوب
العظام ، يوصف بالحسد حيناً وبالمنافسة حيناً آخر ، وبالقسوة والغلو حين
يحسن بك الظن ويصدق فيك رأى وترتفع عند الأدباء عن مظان الرب
والشكوك .

وكنا خليقين أن يكون تشددنا مع الشعراء والكتاب فى هذه الأيام أكثر
منه فى الأعوام الماضية ، فالمفروض أننا نتقدم ولا نتأخر ، وأنا نرق ولا نهبط ،
وأن المثل الأعلى فى كل شيء ، يرق ويعظم ويبعد بمقدار ما يعظم حظ الناس

من الحضارة والرقى . ولا بد من أن نلتمس العلة لهذا الضعف الذى أصاب الذوق الفنى حتى أفسده أو كاد يفسده إفساداً تاماً . وقد ذكرت فى غير هذا الفصل شيئاً من الأسباب التى دفعتنا إلى هذا الضعف ، وقلت إنا قد أهملنا النقد إهمالاً ، وأعرضنا عنه إعراضاً ، فنشأ جيل من الأدباء ، يكتبون وينظمون ولا يشعرون بمراقبة النقد ، فيخيل إليهم أنهم يجيدون ، ثم ينتهى الأمر بهم إلى شىء من الغرور البغيض . ولكن هناك علة أخرى لهذا الضعف لم يبق من الممكن أن نهملها ، أو نعرض عنها ، لأنها شديدة الخطر حقاً على الفن والذوق والخلق جميعاً ، وهى حرص السياسة على استغلال الأدب والأدباء . ومن الأشياء التى لا تقبل الشك ، وإن كنت أكره أشد الكره أن أعرض لها أو أطيل فيها ، أن هذا العهد السياسى الذى نعيش فيه قد أحس أن الأدب المعروف والأدباء المعروفين لا يميلون إليه ، ولا يرضون لأدبهم أن يكون له صورة ومرآة . وأراد مع ذلك أن يكون له أدب وأدباء ، وأن يكون له شعر وشعراء ، فجدد فى ذلك وأنفق جهداً غير قليل ، وإذا ميول تظهر ، وأهواء تلتقى ، وأنباء تذاع فى الصحف وجماعات تؤلف ، وأندية تنظم ، ومحاضرات تلقى ، وأصوات كثيرة ترتفع وما كانت تسمع من قبل ، وإذا أدب جديد ، أو أدب يوصف بأنه جديد ، قد أخذ يدنو من الناس ويتقرب إليهم ، ويتملقهم بألوان من أسباب الملق ، فيبلغ من بعضهم ما يريد ويعجز عن أن يبلغ من أكثرهم شيئاً . ولولا هذه الظاهرة لظل كثير من الناس الذين يسمون أنفسهم أدباء أو شعراء مشغولين بما كان يشغلهم قبل هذه المحنة السياسية من فنون الجذ والحزل ، وألوان الاضطراب فى كسب الحياة . وأنا أعترف بأنى لا أعرف أبا الوفا ، ولست أذكر رأيته قبل اليوم أم لم أره . ولست أذكر أنى قرأت له شعراً قبل اليوم . ولعلى سمعت من نظمه البيت أو البيتين ، فلم أقف عند ما سمعت ولم أفكر فيه . ثم ثارت منذ حين ثائرة عن شاعر مجدد يسمى أبا الوفا ، له أصدقاء يحبونه ويعطفون عليه ، وله قوم آخرون يكبرونه ويعجبون به ، وأخذت الصحف تنشر من أنباء أولئك وهؤلاء شيئاً كثيراً . كنت أسمع به وأقف عند بعضه حائراً حيناً ومنكراً حيناً آخر . ثم يعظم الأمر ويتمتع حتى يصل إلى رئاسة مجلس الوزراء ، وإذا صدق باشا يرقى إلى الأدب أو الأدب يهبط إلى صدق باشا ، ثم نسمع أن أبا الوفا قد سافر إلى باريس ليلقى الأطباء ، فلا ننكر من ذلك شيئاً ،

ولكننا ننكر هذه الضجة المتكلفة التي ثارت حول هذه الرحلة للاستشفاء في باريس .

ثم أدع هذا كله فيما كنت أدع من أمور الأدب الحديث والأدباء المحدثين حتى إذا عدت إلى التفكير في هذا الأدب وفي هؤلاء الأدباء رأيت بين يديّ دواوين كثيرة ، منها هذا الديوان الصغير الذي يسمى بالأنفاس المحترقة . . فأنكر العنوان ، ولا أسيغه ، ولا أفهم ما يراد به إليه ؛ فأنفاس الناس كلها محترقة ، وأنفاس الحيوان كذلك ، فلو قد سمى الناظم ديوانه الأنفاس ليس غير ، لكان في هذا الاسم ما يغني . ولعله أراد أن يقول الأنفاس المحترقة ، فأخطأ الوصف . على أني لم أطل الوقوف عند العنوان ، وإنما أخذت أنظر في الديوان ، فإذا مقدمة لصديقنا فؤاد صروف ، أعجبنى أولها ، وأدهشني آخرها . أولها كلام في الشعر مستقيم وإن كان الخلاف في بعضه كثيراً شديداً متصلاً ، وإن كان مذهب الأستاذ صروف فيه محتاجاً إلى كثير من التحقيق والتدقيق . فليس من الحق فيما أظن أن تحكيم العقل في الشعر يفسده . ولعل جماعة من كبراء الشعراء الفرنسيين وغير الفرنسيين ، لا يقبلون الشعر إلا إذا سيطر عليه العقل وأخضعه لسلطانه المنظم ومنطقه المستقيم . وليس من الحق فيما أظن أن إرسال النفس على سجيتها يصلح أمر الشعر الحديث في الأمم المتحضرة التي لا ترى الشعر ضرورة من ضرورات الحياة العادية ، وإنما تراه لوناً من ألوان الترف العقلي والشعوري . ولكن الغريب من أمر صديقنا صروف أنه ينتهي من مقدمته إلى هذه النتيجة ، وهي أن صاحب الديوان شاعر من غير شك ، وأن شعره خليق بالإذاعة والبقاء . وأنا آسف أشد الأسف لا لأنني لا أرى رأي الأستاذ ولا أقره عليه ، بل لأنني أعتب على الأستاذ أن يقضي في أمر الشعر والأدب كما يقضي في أمر الطبيعة والرياضة والكيمياء . ولست أتردد مهما أكن قاسياً عند كثير من القراء في أن أعلن أن صاحب الديوان لا يستطيع أن يرقى بديوانه هذا إلى منزلة الشعراء ولا أن يجلس معهم على مائدة « أبُلون » ؛ فالأمد بينه وبين ذلك بعيد إلى أقصى غايات البعد . والأدباء أحرار في أن يرفعوا صاحب هذا الديوان إلى حيث يريدون من منازل الشعر ، يتأثرون في ذلك بما يريدون ، فهذا لن يغير من الحقيقة الواقعة شيئاً ، وهو أن هذا الديوان يخلو من الشعر خلواً تاماً . بل أنا أذهب إلى أبعد

من ذلك ، ولا أكره هذه القسوة ، وسيكرهها كثير من القراء ، فأزعم أن هذا الديوان على خلوه من الشعر ، لا يخلو من سوء النظم وفساده واضطرابه الذي لا يطاق . ولولا أن الظروف السياسية التي أشرت إليها قد حملت جماعة من الناس على أن يشيدوا بأمر صاحب الديوان ويسرفوا في ذلك إسرافاً شديداً ، لما استطاع كلام كهذا الكلام أن يوصف بالشعر ، أو أن يرقى إلى مرتبة الكلام الذي يوصف بجودة النظم واستقامة الوزن وحسن الانسجام . فأنت تستطيع أن تقرأ الديوان من أوله إلى آخره دون أن تظفر فيه ببيت واحد ، فضلاً عن مقطوعة ، فضلاً عن قصيدة ، يثير في نفسك هذا الرضا الذي يثيره الشعر العالي ، أو يبعث في نفسك هذه اللذة التي يبعثها الفن الجميل . إنما هي معان بعضها مبتذل أشد الابتذال ، وبعضها مألوف لا جمال فيه ، وبعضها مأخوذ من الشعراء المتقدمين والمعاصرين أخذاً بريئاً من الاحتياط ، وبعضها فيه استهتار وتكلف للمجون الذي لا يلائم الذوق الأدبي الممتاز في هذا العصر الذي نعيش فيه . يريد الشاعر أن يكون حائراً ، لأن من الشعراء من تملك الحيرة أمره ، فيتكلف في الحيرة كلاماً لا يغنى ولا يدل على شيء . فانظر إليه كيف يقول في هذه القصيدة :

والليل كم فيه سر يدمى فؤاد الصريح
 كأنما الليل قس يغرى بسود المسوح
 واهماً وواهاً لقلبي واهماً له من جريح
 لم يبدُر سهماً رماه أتاه من أي ريح
 ولست أدري أنا كيف يكون تخريج هذا البيت عند النحويين ، كما
 أني لست أدري أين الشعر في السهم الذي يأتي من أي ريح ؟
 يا طير من أي دوح أنا وفي أي دوح

ولاحظ الدوح بفتح الدال والدوح بضمها في بيت واحد لا شيء إلا
 لتستقيم القافية

الأرض لم يبق فيها من موطن للصريح
 من لم يغنّ لموسى غنى لعيسى المسيح
 وهذا المعنى كما يعرف الناس جميعاً علاني ، قد كثرت نسبته إلى صاحبه

أبي العلاء حتى تحدثت به العامة على قلة عنايتها بالأدب والأدباء .
يا روح من أين جئت من حيثما جئت روحى

وقِفَ من هذا البيت فسرى فيه فساد النظم صارخاً حقاً ، فلا بد من أن تمد كسرة التاء في « جئت » حتى تجعلها ياء ليستقيم وزن الشطر الأول . ثم انظر إلى ابتذال اللفظ وسخفه وانحرافه عن الصواب في قوله « من حيثما جئت روحى » هذا هو الكلام الفارغ حقاً .

سر الحياة أليم بُوحيى به واستريحي
ولكن روحه لم تبج بهذا السر الأليم ليستريح . فإن كان هذا السر هو ما تحدث به الناظم في قصيدته كلها فهو سر معروف ، قد أوتمن عليه أكثر من اثنين .

وأراد الناظم أن يتحدث عن الإيمان فلم يقل شيئاً . فانظر إلى هذه القصيدة أو المنظومة التي يعجب بها الأستاذ فؤاد صروف . والظريف أن الناظم أراد أن يكون كالأستاذ العقاد — وما الذي يمنعه من ذلك؟! — فقدّم بين يدي منظومته تلخيصاً للفكرة التي نظمها بحسبه واضحاً وهو غامض أشد الغموض ؛ فهو لا يرى أن الإيمان نقيض الكفر ، وإنما يرى أن الإيمان مرادف الحياة . فكل حي مؤمن سواء أكان كافراً أم مؤمناً . وعلى ذلك فآدم لم يقترف خطيئة ولا إثمًا حين عصى الله ، وأكل من الشجرة ، وإنما رغب في الحياة الحرة المستقلة . فإذا كنت قد فهمت من هذا شيئاً فأنت رجل عظيم الحظ من الذكاء حقاً . أما أنا فلا أفهم من هذا الكلام إلا أنه ضرب من اللغو ، يريد صاحبه أن يزعم لنفسه فناً من فنون الفلسفة ، فيه خروج على ما ألف الناس من أحكام الدين . وأعوذ بالله من أن أدخل فيما بين الرجل وبين ربه ؛ فأنا لا أبيع ذلك لأحد . وإنما ألاحظ أن حب الامتياز قد يدفع الناس إلى سخف كبير . وانظر إلى المنظومة نفسها ، فهي آية من آيات الفلسفة التي لا تمتاز بشيء كما تمتاز بالفراغ والقدرة على إحراج الصدور :

قوة لم تنح لقلب جبان تلك في المرء ، قوة الإيمان
تنجلي في جميع قوى الكو ن شيوع الأرواح في الأبدان
لكأني أرى الحياة وإياها ها سميين ، أو هما توءمان

أول المؤمنين بالله حقاً هو ، في الأرض ، كان أول بان
يا ضياء الحياة بوركنت فيها بل تباركت يا يد العمران
إلى أن يقول :
ليت شعري ماذا أراد بنا الخالق إلا سيادة الأكوان

* * *

رب فم ابتعثت رسلا ولو شئت لأغنت إرادة الإنسان
أفصح الحسن مستهلاً فما حاسية هذا الجمال للترجمان
لا أرى آدمياً عصى الله لكن شاء أن يستقل بالسلطان
يكره الحر أن يعيش على السجـن ولو كان سجنه في الجنان
أرأيت ! أراد آدم أن يكون مستقلاً بالسلطان لا يخضع لأمر الله ،
ولا يذعن لإرادته ، وهو حين أراد ذلك لم يعص الله ، ولم يخرج عن أمره ،
وإنما أراد أن يكون له شريكاً ونداً ليس غير . وأكبر الظن أن الناظم قد اختلط
عليه آدم وإبليس ، أو أنه لم يختلط عليه شيء ، وإنما عقد الأمور على نفسه
تعقيداً ، وزج بنفسه في مشكلات لم يخلق لها ولم تخلق له .
وتستطيع أن تقرأ « ضحية العيد » وأن تقرأ حديث الناظم إلى فيكتور هوجو .
فليس المهم أن يفهم فيكتور هوجو ، أو أن يفهمه هذا الشاعر الفرنسي ،
وإنما المهم أن لففيكتور هوجو كتاباً يقال له البؤساء ، وأن بعض هذا الكتاب
قد ترجم إلى العربية ، وعرف صاحبنا أنه ترجم ، وصاحبنا بائس فهو يتحدث
إلى صاحب البؤساء ، وهو يتحدث إليه حديثاً لا يستطيع أن يرقى إليه ، لأنه
خال من الشعر كل الخلو . والغريب الذي لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أسيغه
ولا أن أعود نفسي على أن تطمئن إليه ، أن بين المثقفين قوماً يقرءون هذا
الكلام ويذيعونه في الناس على أنه شعر ، ويشجعون الشباب على أن يذهبوا
مذهب صاحبه ، ويتأثروا بخطواته فيما ينظمون .

ولست أريد أن أطيل عليك بالتحليل والتعليل ، ولا بالنقد والملاحظة ،
فكل الديوان يشبه هذا الكلام أو هو أقل منه حظاً من الجودة . ولكن لا بد
من أن أقف بك عند أشياء لا ينبغي أن تمر دون أن تعرض عليك .

فانظر إلى قصيدته — أستغفر الله — ! إلى منظومته التي سماها « مجمع
الأصفياء » ولست أريد أن أفسرها فهي تفسر نفسها ، ولا أن أنقدها فهي

تنقد نفسها ، وإنما أرويهما لك لتضحك ليس غير :

هذا هو المجلس لا تذكروا شبيهه في الصفو لا تذكروا
رأيت فيه كيف أضحت لنا حقيقة مرثية عبقر
كان زكى باشا إلى جنبه زعيم سوريا الحر شهبندر
وكان هرآوى الرقيق الدقيق واللغوى صادق عنبر
ويوسف الآثار عنوانها الأملعى العالم الأكبر
والعالم الدكتور عيسى الذى يتم عنه المعجم المثمر
والعلم المفرد فى عصره خطاط مصر السيد الأشهر

* * *

عبقر الفصحى وأحلامها والأعين اللاتي بها تبصر
انتظم الصفو بهم معشراً من خير ما ازدان به معشر
فى مجلس يجرى به صفوه كما جرى فى اللجنة الكوثر
يتابع الضحك به بعضه كالموج ذى تطوى وذى تنشر
فذكته فى ضحكة تختفى وضحكة فى نكته تظهر
يرسلها صاحبها لفظة كأنها من فمه السكر
يا من رأى من قصفنا وصفه فظننا كنا به نسكر
لا تأمن فى عصبه عمرها لم يستخف حلمها مسكر
والله فى ليلتهم ما احتسوا إنمأ ولا طاف بهم منكر
نوع من اللهو البرىء الذى يروى عن الأملاك أو يؤثر
بمر ذكر منه فى خاطرى فأثنى فى حلم أخطر
وينشئ للجو مثل الشذى لهذه الذكرى التى أذكر
يا دار « كيلانى » التى أشرقت وضوات من أوجها الأقر
لله هذا الضوء من مظهر لولاك ما كان له مظهر
أرأيت إلى هذا النظم البديع ؛ وأيهما أقرب إلى الإجابة : هذا الكلام

أم منظومات النحو والفقه والعروض ؟ !

وانظر إلى منظومة أخرى سماها « القبلة » ، ولست أريد أن أرويهما لك ،
فأنا أرقى بهذا الحديث عن رواية هذا الكلام الذى هو مجون الشوارع أدنى منه
إلى الأدب الرفيع . وماذا يعنى الناس من أن الناظم يحسن التقبيل ، ومن أنه

يمنح القبل الطوال والقصار والقبل الصامته وذات الصوت ، وأين الروحية التي يتلمسها الأستاذ فؤاد صروف في هذا المحجون !

أما الأغلاط النحوية والصرفية والأغلاط التي تتصل بالوزن وإقامة النظم فأكثر من أن تحصى . وأنا أعطيك منها أو من بعضها أمثلة تدل على سائرها ؛ لأننى لا أحب أن يضيع وقتك ووقتي في مثل هذا الإحصاء . فانظر إلى قوله :

هذى جوانح صب في جبكم مستهام
نسجتها مروحة لما براها الغرام

وأظنك توافقنى على أن الشطر الأول من البيت الثانى يخالف سائر البيتين في الوزن . وانظر إلى قوله :

هيئى لى جواً إذا ما طلعتُ لم أجد في سمائه إلاك
ودع هذا الذوق الذى يبيح له أن يطلب إلى صاحبه أن تهى له جواً
الحب ، وقف عند هذه الضمة التي يجب أن تمتد حتى تصير واواً ليستقيم الشطر الأول من هذا البيت .

وانظر إلى قوله :

أنا منك وأنت منى روحاً فإنى إلى روى فداك
فلا بد من أن تمتد كسرة الكاف في « منك » حتى تصبح ياء ليستقيم وزن الشطر الأول . ولا بد من أن تمتد فتحة الياء من « إلى » الأولى ليستقيم وزن الشطر الثانى .

والغريب أن الناظم قد تعلم النحو والعروض في الأزهر .
أما الأغلاط النحوية . فانظر إلى منظومته التي يشكر بها إخوانه ، وإلى هذه الأبيات الثلاثة التي تبتدى بهذه الجملة « كى أرى الناس » يريد كى أرى الناس بفتحة على الياء ، لأن الفعل ينصب بعد « كى » فيما أظن . وللناظم ذوق فنى لا نظير له بين الأذواق ، يكفى أن تجده وتعجب به في هذا البيت :

إذا تحدث سال الظرف من فمه وإن يحدث تراه مطرق الرأس

ومن الناس من يتحدثون فيسيل الظرف من أفواههم ، ومنهم من يتحدثون فيسيل اللعاب من أفواههم ، وقوم آخرون يتحدثون فيسيل الشهد من أفواههم ، وكل هذا شعر في هذه الأيام ! ! .

وانظر إلى هذا البيت الظريف .

لغة البلابل أين تذهب بين هدهدة الهداهد
 فإذا لم تعجبك هذه الهاءات والدالات فالتمس لنفسك ذوقاً حيث شئت .
 أراني قد أطلت وأسرفت في الإطالة . ولكني لا آسف على ذلك ؛
 فقد يجب أن يعنى الأدباء بأدبهم أكثر من هذه العناية التي أظهروها إلى الآن .
 وقد يجب أن يغلق الأدباء أبواب الشعر ويقطعوا أسبابه على الذين لا ينبغي
 لهم أن يلجوا من هذه الأبواب ويتصلوا بهذه الأسباب . فقد يقال إن مصر
 تدعى لنفسها زعامة الأدب العربي في الشرق . وهذا الادعاء يفرض على مصر
 واجبات ، أولها أن تكون حذرة دقيقة متحرجة ، ترتفع بالأدب وبالشعر خاصة
 عن الإسفاف والابتذال ، وإلا فهي ضحكة الشرق العربي كله .
 وبعد ، فللناظم ديوان آخر تفضل بإهدائه إلى وهو الأعشاب ، ولم أقرأ
 هذا الديوان بعد ، وسأقرؤه إن شاء الله . ولكني لن أتحدث عنه إلا إذا وجدت
 فيه ما يستحق الثناء .

في الشعر

الجداول

للشاعر اللبناني إيليا أبي ماضي

لست أدري أيرذى أصدقاؤنا اللبنانيون أم يغضبون إن رأيت أن أثر جبالهم
الحميلة في الشاعر الذي أتحدث عنه اليوم ضعيف جداً . فالذين كتبوا عنه
ينبثوننا بأنه لبناني المولد ، ولكنه لم يبلغ الحادية عشرة حتى هبط مصر ، فأقام
فيها يدرس إلى التاسعة عشرة ، ثم ارتحل إلى أمريكا فأقام فيها إلى الآن . وهؤلاء
الذين كتبوا عنه يلاحظون أنه أصنى الشعراء والكتاب اللبنانيين والسوريين المهاجرين
إلى أمريكا لغة ، ويخيل إليهم أن إقامته في مصر هي مصدر هذا الصفاء .
أما أنا فأسف أشد الأسف لأنى مضطر إلى أن ألاحظ أن صفاء لغته هذا
الذي أعجب « كمغمير » وزميله الأستاذ طه الحميرى لا يخلو من شيء كثير
يفسده ويباعد بينه وبين ما ألفناه من صفاء اللغة ونقاها عند الكتاب والشعراء
الذين ينشئون ويعيشون في مصر ولبنان وغيرهما من بلاد الشرق العربي . ولست
أزعم أن لغة الشاعر رديئة أو منكرة ، ولكنها تقارب الرداءة أحياناً حتى توشك
أن توغل فيها إبعالا . وليكن مصدر ذلك ما يكون ، ولكنه شيء واقع لا نستطيع
إلا أن نلاحظه ونسجله آسفين . ذلك أن الشاعر مجيد حقاً خصب الذهن
نافذ البصيرة ذكي القلب متقن الفهم لما يريد أن يقول ، موفق إلى إجادة
التصوير لما يجب أن يصور ، فكان خليقاً أن تواتيه مع هذه الخلال نغمة
صافية عذبة تعينه على إظهار ما في شعره من قوة وروعة وجمال ليس إلى الشك
فيها من سبيل . ولعل الشاعر نفسه آنس الضعف في لغته . ولعله حاول أن
يصلحه فلم يستطع . ولعله لما استيأس من هذا الإصلاح لم يجد بداً من أن
يتخذ هذا الضعف مذهباً ، ومن أن يدافع عنه دفاعاً ويذود عنه ذيادةً ،

فقال في فاتحة الديوان الذى أريد أن ألم به في هذا الحديث :

| | |
|-------------------|------------------------|
| لست منى إن حسب | ت الشعر ألفاظاً ووزناً |
| خالفت دربك دربي | وانقضى ما كان منا |
| فانطلق عنى لئلا | تقتنى همماً وحرناً |
| واتخذ غيرى رفيقاً | وسوى دنياى مغنى |

فمن المحقق أن الشاعر لا يقول شيئاً في هذا الكلام ، لأن الشعر لا يستقيم ولا يوجد ولا يمكن تصوره بغير الألفاظ والوزن . وآية ذلك أن الشاعر نفسه قدم لنا في ديوانه هذا ألفاظاً موزونة ولم يقدم لنا كلاماً منشوراً في غير وزن ، ولم يقدم لنا معانى في غير ألفاظ . وآية ذلك أيضاً أن الشاعر في هذه الفاتحة نفسها يطلب إلى قارئه أن يقرأ ديوانه ، وأن يكرر القراءة ولا يزهد فيها ولا يشفق من تكرارها ، ويزعم له أن الصوت لا يدل على شيء إذا لم تسمعه الأذن . وإذا فاللفظ ليس من الضعة وضالة الشأن بحيث يريد الشاعر أن يقول في هذه الأبيات التي رويناها لك . وهناك بدعة يلح فيها كثير من الناس ؛ وهى أن الجمال الفنى في الكلام نثراً وشعراً يأتي من المعنى وحده دون أن يكون للفظ أثر فيه . وهذا كلام إن استقام لأصحاب المنطق والفلسفة فهو لا يستقيم لأصحاب الأدب والفن ، لأن صناعتهم بطبيعتها تريد لهم على أن يتخذوا اللفظ نفسه مظهراً لهذا الجمال الذى يفتنون به ويحرصون عليه . ومهما يكن حظ الشاعر من إجادة المعنى وتصحيحه وتحقيقه والبعد به عن الخطأ والارتفاع به عن الإحالة ، فهو لن يظفر من إعجاب الناس بحظ قليل أو كثير إلا إذا استطاع أن يجلو لهم هذا المعنى في لفظ إلا يكن رائعاً خلاصاً فلا أقل من أن يكون صحيحاً مستقيماً بريئاً من الفساد . ولست أذهب مذهب الذين يرون الجمال الشعري في اللفظ وحده ولا يحفلون بالمعنى ، لأنهم يلتمسون هذا الجمال في الموسيقى ، ولأنهم يجدون الجمال في غناء الطير وحفيف الورق وهفيف النسيم وفي خريير الجدول وهدير البحر ، ولا يجدون لهذه الأصوات كلها معنى . لا أذهب هذا المذهب فقد يكون فيه كثير من الحق ، ولكن فيه كثيراً من الغلو أيضاً . ولعل الخير أن نذهب في ذلك مذهب أوساط الناس ، فنقول كما يقولون : إن الكلام يجب أن يدل على شيء وإلا كان لغواً ، ويجب أن يكون صحيحاً مستقيماً وإلا كان ثقيلاً على الأذن نابياً عن المزاج . وعلى هذا النحو نخالف الشاعر فيما ذهب إليه من ازدراء اللفظ والوزن ، ونخالف

الكاتب الأديب الذي قدّم هذا الديوان إلى القراء فيما ذهب إليه من الإعراض عما قد يكون في هذا الديوان من خطأ في اللغة أو اضطراب في الوزن ، ويحتفظ بالمقاييس التي احتفظنا بها دائماً في نقد ما ينتج الكتاب والشعراء : صحة المعنى واستقامته وطرافته ، وجودة اللفظ ونقاؤه وارتفاعه عن الركافة والإسفاف على أقل تقدير .

وقد يكون من العسير أن نتعلق بكثير من الخطأ على الشاعر إيليا أبي ماضي في معانيه التي قصد إليها في هذا الديوان ؛ فهو مصحح للمعاني كما قلنا ، لا يحيل أو لا يكاد يحيل ، ولا يتورط أو لا يكاد يتورط في هذه المعاني الفاسدة التي تلتوى على العقل ، وإن كنا قد نجد من ذلك شيئاً في الديوان بل في الفاتحة نفسها ، فقله :

كلما أفرغت كأسى زدت في كأسى دنا

معنى فاسد لا يستقيم ، ذلك أنه يريد أن يقول إن خمره لا تنقص بالشرب أو بالاستهلاك ، كما يقول أصحاب الاقتصاد ، إنما تزداد وتربو . فانظر إلى هذه الصورة المستحيلة التي صور فيها هذا المعنى المستقيم :

كلما أفرغت كأسى زدت في كأسى دنا

فالكأس جزء ضئيل من الدن ، أو قل إن الكأس تحتوي جزءاً ضئيلاً مما يحتويه الدن ، فكيف يمكن أن يزداد الدن في الكأس ؟ !
وللشاعر مثل هذا الخطأ في تأدية المعاني الصحيحة في نفسها . فانظر إلى هذا البيت :

ثم انتبهت فلم أجد في مخدعي إلا ضلالى وفراش ومخدعي

يريد أن يقول : إنه انتبه فلم يجد إلا مخدعه وفراشه وضلاله ، ولكن وزن البيت لم يستقم له ، فأضاف إليه كلمة أقامته ولكنها أفسدته إفساداً وهي قوله « في مخدعي » فهو إن وجد ضلاله وفراشه في مخدعه لم يستطع أن يجد مخدعه في مخدعه ! ! وتستطيع أن تعود إلى فاتحة الديوان فسترى فيها معنى مستقيماً لو أحسن الشاعر أداءه ، ولكنه عجز عن هذا الأداء ، فأغلق معناه إغلاقاً وجعله لغزاً من الألغاز . وذلك حين يقول :

كل نور غير نورٍ مرّ بالأعين وسنى

يريد أن يقول إن النور ظلمة إذا لم تره العيون . فانظر إليه كيف التوى به اللفظ والتوى عليه ، فعقد معناه تعقيداً ، وأغلقه إغلاقاً ، وجعل من العسير جداً على قارئه أن يصغى إليه مهما يتكلف من الجهد في إجابته إلى هذا الإصغاء . ولكن الشاعر على هذا كله مصحح لمعانيه محقق لها ، لا يكاد يفسدها أو يخطئ فيها . وابتكاره

في المعاني التي اشتمل عليها هذا الديوان قليل جداً لا يكاد يحس ، ولكن شخصيته قوية ، فهو يتناول المعاني والأغراض التي سبقه إليها الشعراء المتشائمون والمسرفون في الشك من القدماء والمحدثين ، فينفخ فيها من روحه القوي ، ويكاد يفرض شخصيته فرضاً . فشاعرنا متشائم مسرف في التشاؤم ، يزدري الناس وأخلاقهم ونظمهم وآراءهم في أنفسهم ، وغرورهم بما تخذعهم به الحياة ؛ فهو يذهب في تصوير هذا كله مذهب أبي العلاء والخيام وشوبنهاور وغيرهم من المتشائمين ، لا يكاد يأتي بمعنى لم يسبقوه إليه ، ولكنك مع ذلك تقرؤه فلا تحس فيه أخذاً ولا سرقة ، ولا تتأذى فيه بالتقليد ، وشاعرنا أثر مسرف في الأثرة أحياناً ، بعيد كل البعد من أبي العلاء حين يقول :

فلا هطلتُ على ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

شاعرنا بعيد كل البعد عن هذا الإيثار ، تستطيع أن تقرأ قصيدته « بردى يا سحب » فسترى أنه لا يحفل بالنجم الذي لا يهديه ، ولا بالنهر الذي لا يرويه ، ولا بشيء من الأشياء إلا أن ينتفع به ويفيد منه لنفسه خيراً . وشاعرنا على أثره هذه متعجل للذاته . تستطيع أن تقرأ قصيدته « تعالى » فسترى أنه لا يحفل من الحياة إلا بما تستطيع أن تمنحه من لذة ، وأنه لا يقنع بالوصف ولا بالأحاديث ، وإنما يريد أن تسقيه الخمر أولاً ، ثم تصفها له بعد ذلك ؛ فأما أن تصف له الخمر ولا تسقيه إياها فهذا كلام لا يعنيه . وشاعرنا مع هذا كله صاحب حكمة وزهد وحرص شديد جداً على المساواة ، يكاد يبلغ به الاشتراكية أو ما هو أبلغ من الاشتراكية في إلغاء الفروق بين الناس . تستطيع أن تقرأ قصيدته « الطين » فسترى أنه بلغ من ذلك ما لم يبلغه كثير من الشعراء المحدثين في الشرق العربي . ثم هو فوق هذا كله وقبل هذا كله صاحب شك لا يؤمن بشيء ولا يطمئن إلى شيء . بقية هو من هؤلاء القدماء الذين كانوا يجيبون عن كل سؤال بهذا الجواب المتواضع البديع : لا أدري . . . وقصيدته « الطلاسم » آية في هذا الشك ، وفي الضيق والإشفاق منه والاضطرار إليه مع ذلك ، ولست أغلو إن قلت إنها خير ما في هذا الديوان .

فأما إذا قصدنا إلى نقد هذا الديوان من جهة ألفاظه وأوزانه فنحن بعيدون كل البعد عن مثل هذا الرضا ، ونحن مضطرون إلى كثير من التحفظ ، وإلى كثير من السخط ، وإلى كثير من الضحك أحياناً . . .

فالشاعر لا يحفل بالموسيقى ، لا في وزنه ، ولا في قوافيه ، ولا في ألفاظه . ولعل

أوزان الشعر تختلط عليه أحياناً فيلأتم بينها ملاءمة لا تستقيم . فقصيدة « الطين » التي كنا نثنى منذ حين على معانيها وحسن تصويرها للمساواة ، من أردأ الشعر العربي قافية وأنباه عن السمع والذوق ، ولعل عنوانها كان يحتاج إلى شيء من الذوق . ولكن انظر إلى مطلع القصيدة :

نسى الطين ساعة أنه طين ن حقيق فصال تيباً وعربد
فهو كما ترى قد اختار الدال الساكنة قافية لهذه القصيدة ، وسكون الدال ثقيل ينقطع عنده النفس ، فإذا طال وتكرر في قصيدة غير قصيرة ضاق به السامع ضيقاً شديداً . ولكن الشاعر يضيف إلى هذا الثقل الطبيعي أثقالاً أخرى . فانظر إليه كيف يضيف سكوناً إلى سكون وانقطاع نفس إلى انقطاع نفس ، في هذا البيت :

لك في عالم النهار أمان ورؤى والظلام فوقك ممتد
فهذه الدال المدغمة لا تطاق؛ وأنت إن قبلتها على إدغامها كلفت نفسك جهداً ثقيلاً ، وأنت إن خففت الإدغام أفسدت اللغة إفساداً بغيضاً . وانظر إلى هذا البيت أيضاً :

أنت مثلي من الثرى وإليه فلماذا يا صاحبي التيه والصد
فالصد هنا « كمتد » هناك ، ولكن قصر الكلمة هنا يزيدنا ثقلاً إلى ثقلها . وانظر إلى هذا البيت :

وأرى للنمال ملكاً كبيراً قد بنته بالكدح فيه وبالكد
ألست ترى أن قافية هذا البيت توشك أن تكون رطانة أعجمية ! أحب أن يتدبر الشبان من الشعراء هذا المعنى ! فالدال من الحروف التي تكسب القافية متانة وورصانة وجمالاً إذا تحركت بإحدى الحركات الثلاث ، فإذا سكنت منحت القافية ثقلاً ثقيلاً لا يقبله السمع ولا يطمئن إليه الذوق . فانظر إلى قصيدة الحطيئة مطلعها :

- ألا طرقتنا بعد ما هجعوا هند
- واقراً القصيدة إلى آخرها فسرى أن قافيتها من أمتن القوافي وأرصنها . ومثل ذلك يقال في مطولة طرفة • نحوه أطلال بيرة نهمد •
- وفي مرثية دريد بن الصمة لأخيه :
- أرث جديد الجبل من أم معبد
- وفي قصيدة البحترى التي يمدح فيها المتوكل :
- ليج هذا الحبيب في المهجر جداً

ومن المظاهر المؤلمة لضعف الذوق الموسيقي عند الشاعر قصيدته « الأشباح الثلاثة » فهي من جيد الشعر إذا نظرت إلى معناها وأغراضها وفلسفتها . أراد الشاعر أن يصور فيها أطوار الحياة من الطفولة والشباب والشيخوخة ، فترأى لنفسه طفلاً وشاباً وشيخاً ، وتحدث إلى نفسه في هذه الأطوار حديثاً كله حكمة وعظة ، ولكنه اختار لها وزناً قلما يقصد إليه الشعراء وهو البحر المتدارك . فاقراً معى هذه الأبيات ، فستلاحظ ما فيها من الضعف الموسيقي الذي يدعو إلى الضحك حين يجب الاعتبار ، وستلاحظ في الوقت نفسه شيئاً من فساد النحو عند الشاعر يغنيننا عن أن نضرب لك الأمثال بما في الديوان من خطأ لا يحتمل من شاعر مجيد :

| | |
|----------------------|----------------------|
| ما بالك منكشأ كددا | قم تلعب في فيء الشجر |
| ونهر الأغصن والعمدا | وننود الطير عن الثمر |
| أو نصنع خيلاً من قصب | أو طيارات من ورق |
| ومدى وسيوفاً من خشب | ونجول ونركض في الطرق |

فكل هذه الأفعال قد وقعت في جواب الأمر ، ومن حقها أن تجزم . ولكن الشاعر لا يحفل بهذا الحق ، وليته أعرض عنه إغراضاً تاماً فرفعها كلها واتمس لنفسه علة عند أصحاب العلل من النحويين ، ولكنه جزم حين استقام الوزن على الجزم ، ورفع حين استقام الوزن على الرفع ، فأخضع النحو للعروض ، أو قل لم يحفل بالنحو ولا بالعروض . . . !

فإذا أردت العبث الذي لا حد له بالموسيقى الشعرية فاقراً قصيدة « المجنون » فسترى أنها جنون كلها . أراد الشاعر أن يتخذ لها الرجز وزناً ، وأن يلعب في قوافيها بعض اللعب ، وأن يفرق بين كل جماعة من أبيات الرجز بيتين من الهزج . وظاهر بعد ما بين هذين البحرين طولاً وقصراً وهلهواً واضطراباً . ولكن الشاعر قد يكون عمد إلى ذلك عمداً ليحكى جنون المجانين ! على أنك لا تستطيع أن تمضي في القصيدة حتى ترى الشاعر قد اختلط عليه الأمر بين الهزج ومجزوء الكامل ، فأحدث هذا في القصيدة اضطراباً لا حد له . ومصدر هذا كله أن الشاعر لا يحسن علم الألفاظ والأوزان ، ولا يريد أن يحفل بالألفاظ والأوزان ، وهو يريد مع ذلك أن يقول الشعر . ولست أدري كيف يستقيم هذا للعقل ؟ ولكني حائر حقاً في أمر هذا النحو من الشعر وهذا الفريق من الشعراء . قوم منحوا طبيعة خصبة ، وملكات

قوية، وخبياً بعيد الآماد، وهم مهيتون ليكونوا شعراء مجودين ، ولكنهم لم يستكملوا أدوات الشعر ، فجهلوا اللغة أو تجاهلوا ، ثم اتخذوا هذا الجهل مذهباً . فأصبحنا من أمرهم في شك مريب ، لا نستبيح لأنفسنا أن نغري الناس بقراءتهم لأننا إن فعلنا أغريناهم بالخطأ ورغبتناهم فيه ودفعناهم إلى ما هم مدفوعون إليه بطبعهم من الكسل والقصور والتقصير .

على أن هذا النحو من الضعف لم يكن شائعاً مألوفاً في مصر ، بل لم يكن شائعاً مألوفاً في بلاد الشرق العربي ، ولكنه أقبل عليها من مهاجر السوريين في أمريكا ، فتأثر به الشباب بعض الشيء في غير مصر ، ثم أخذوا يتأثرون به في مصر نفسها . وما الذي يمنعهم أن يتأثروا به وهو مريح لا يكلف تعباً ولا عناء ؛ وهو في الوقت نفسه ينحيل إلى الشبان أنهم يقلدون الشعراء الغربيين ويجددون في الأوزان والقوافي ويخرجون على التقاليد فيعنون بالمعاني دون الألفاظ !

ما أشد حاجة الأدب العربي إلى جماعة من النقاد أشداء في الحق حراس على سلامة هذه اللغة وحمايتها من الفساد الأجنبي ! وما أثقل الحق الذي يجب أن ينهض به هؤلاء النقاد إن وجدوا ! وما أشد ما يمضى من الحزن حين أرى هذا الفساد الأجنبي يسعى في أدبنا المصري الحديث الذي كان إلى أعوام قليلة بمأمن من هذا الفساد !

ملاحظات

وحياتنا الأدبية في هذه الأيام هي موضوع هذه الملاحظات . فقد يكون من الخير أن يقف النقاد عند هذا الأثر الأدبي أو ذاك ، لنقده وتحليله ، وبيان ما فيه من إجادة وإتقان ، أو من ضعف وتخاذل وإسفاف . ولكن من الخير أيضاً أن يقف النقاد عند الحياة الأدبية العامة من حين إلى حين ، يبينون ما فيها من هذه المظاهر المشتركة التي تدل على الضعف أو على الفساد أو على سوء الاتجاه ، لعل وقوفهم عندها وتبيينهم إياها ، أن ينبه الأدباء إلى ما فيها من شر ، ويحملهم على الجهد في تجنبها والتخلص من أوزارها الثقالة . وربما كانت هذه الأيام موافقة لمثل هذا النحو من الملاحظات . فالناس يخرجون فيها من الصيف الذي يدعو عادة إلى الراحة والهدوء ، ويسعون فيها إلى الحريف والشتاء اللذين يدعوان عادة إلى العمل والنشاط والجهد والإنتاج .

فإذا أظهر النقاد قراءهم على مواطن الضعف في الحياة الأدبية قبل أن يقدموا على الإنتاج أو على التحصيل أو قبل أن يستأنفوا نشاطهم الأدبي الجديد ، فقد يكون في هذا خير لهم ولهذا الحياة الأدبية نفسها . وقد لاحظت في الأحاديث الأخيرة الماضية أن الثقافة في مصر ضعيفة أشد الضعف ، فطرة أشد الفتور ، وأن هذا الضعف نفسه يحول بين الأدباء وبين الإنتاج القيم والجهد الأدبي الحصب . ولكن الثقافة شيء مشترك بين المنتجين والمستهلكين في الأدب ، كما يقول أصحاب الاقتصاد . فالأديب لا يستطيع أن ينتج إنتاجاً حسناً إلا إذا كان مستكملاً أدوات هذا الإنتاج ، والثقافة الواسعة العميقة المنوعة هي أهم هذه الأدوات . والمستهلك لا يستطيع أن يقرأ ، ولا أن يفهم ولا أن يذوق ، إلا إذا كان على حظ من ثقافة تؤهله للقراءة والفهم والذوق .

ومن المحقق أن ثقافة القراء في مصر ضعيفة ضيقة ، بعيدة كل البعد عن أن تكون عميقة أو منوعة ، وأن الأدباء يلقون من ذلك شراً عظيماً ، فهم يعلمون أن قراءهم قليلون ، وأن ثقافة هؤلاء القراء أضعف وأضيق من أن تعينهم على قراءة الآثار الأدبية الراقية حقاً . وهم من أجل ذلك يعرضون عن الإنتاج حيناً ويقبلون عليه

أحياناً ، ولكن بعد أن ييسروه ويسرفوا في تيسيره ليلائم ثقافة القراء ، وقد يهبطون به إلى أدنى درجات اليسر ليلائم عقول القراء الذين لا حظ لهم من ثقافة ، أو الذين لهم حظ من الثقافة قليل . ويختلف ذلك باختلاف طبيعة هؤلاء الأدباء ؛ فمن أكبر منهم الأدب وأبى أن يتذله ابتغاء المال ، يسره تيسيراً معتدلاً ليفهمه المستثيرون ، ومن اتخذ منهم الأدب وسيلة إلى الكسب وإلى الكسب الذي لا يحد إلا بالحدود الممكنة ، ابتذل أدبه ابتذالاً ، وهبط به إلى حيث يسيغه أكبر عدد ممكن من الناس . كل هذا حق ، ولكن هناك حقاً آخر من الإثم إهماله والإعراض عن ذكره ، وهو أن القراء ليسوا وحدهم مقصرين في ذات الثقافة ، وليسوا وحدهم ضعاف الحظ من العلم بما ينبغي أن يتعلمه المتحضرين في هذا العصر ، وإنما الأدباء المنتجون أنفسهم يشاركون القراء في كثير من هذا الضعف وذلك التقصير . فكثير جداً من أدبائنا يكتبون بثقافة محدودة ، بل بثقافة ضيقة أشد الضيق ، تواتيهم طبيعة خلقت لتكون خصبة منتجة فيكتفون بما تعطيهم ، ويحسبون أن فطرة هذه الطبيعة وحدها فيها الغناء وأنها دليل على أنهم نابهون ، وأن غيرهم هو الذي يحتاج إلى أن يتعهد طبيعته تعهداً ، ويكتسب الأدب اكتساباً . فأما هم فقوم موهوبون ، كما يقال ، ليسوا في حاجة إلى قراءة ، ولا إلى تعلم ، ولا إلى درس ، وإنما يكفي أن يصرفوا نفوسهم نحو معنى من المعاني ، أو غرض من الأغراض ، وأن يهبطوا أقلامهم لتسطير ما ستمليه عليهم هذه النفوس ثم إذاعته في الناس . وما دام الناس يقرءون ما يذاع فيهم وما دامت ثقافتهم ضيقة تحول بينهم وبين المراقبة الدقيقة لما يذاع ، فالأدباء يستطيعون أن يكتبوا ، ويستطيعون أن يذيعوا في غير تخرج ولا حساب .

هذا أزهري قد تعلم أوليات النحو والفقه ، وأطرافاً من هذه العاوم التي تلقى في الأزهر ، ثم قرأ الصحف والمجلات ، فخيّل له أنه يستطيع أن يحاكي ما فيها من النثر أو يقلد ما فيها من النظم ، ثم جرب نفسه فانتهى إلى شيء من النثر والنظم ، ثم قرأ ما انتهى إليه على جماعة مثله ليسوا أكثر منه ثقافة ، فأعجبوا به ورضوا عنه ، ثم أرسله إلى صحيفة أدبية أو سياسية فنشرته لتملأ به فراغاً أو لأنها لا ترى به بأساً ، ونظر صاحبنا فإذا له كلام منشور مطبوع يباع في السوق ، فلم يشك في أنه أديب ، وفي أنه قادر على الإنتاج ، وفي أن نفسه خصبة ، فمن الإثم أن يهملها ، ثم يندفع في الإنتاج ، وينصرف عن التحصيل . وما دامت طبيعته تواتيه والناس يسمعون له والصحف تذيع ما ينتج ، فمن الحمق أن يكلف نفسه جهد القراءة والتعليم والدرس .

وهذا قد خرج من المدرسة الثانوية أو لم يكد يخرج منها أو ارتقى إلى فصل من فصول الجامعة وهو شاب يقرأ ما يذاع في الصحف . وأى شاب لا يتأثر بما يقرأ ؛ وأى شاب لا تخطر له الخواطر الحادة الحاضرة ! وأى شاب لا يحاول تسجيل ما يخطر له من الخواطر في كلام منظوم أو منشور ! لكن صاحبنا لم يكد يحاول هذا التسجيل حتى أحس من طبيعته مواتاة لينة هينة ، فإذا هو يرضى ، ثم يشتد رضاه ، ثم لا يكاد يجد تشجيعاً من أترابه أو من صحيفة من الصحف حتى ينهى الرضا إلى الغرور ، وإذا هو كاتب أو شاعر ، يفرق الصحف والمجلات بآثاره المنظومة أو المنثورة ، ثم لا يلبث أن يجمع هذا في كتاب ، وإذا هو مؤلف أيضاً . والناس يقرءون لأن حظهم من الثقافة لا يمكنهم من التفريق بين ما يستحق القراءة وما لا يستحق . وعلى هذا النحو يكثر عدد الأدباء ، وتكثر أسماءهم في الصحف ، وتضاف إلى هذه الأسماء ألقاب ، فهذا أستاذ ، وهذا أديب كبير ، وهذا شاعر ناب ، وهذا كاتب فذ . والكاتب نفسه أو الشاعر هو أسبق الناس إلى تصديق هذا كله ، والانخداع بهذا كله ، فكيف بغيره من القراء الذين لا يعرفونه ولا يرونه ، وإنما يسمعون أنه أستاذ ، وأنه ناب ، وأنه نابع ، وأنه ما شئت من الصفات والألقاب ! فإذا أخذت ما يكتب أو ما ينظم ، وحققت النظر فيه انتهيت إلى سخف لا حد له ، وإلى كلام فارغ ما كان ينبغي أن يقدم إلى المطبعة ولا أن يذاع بين الناس .

وشر من هذا كله أن جماعة من الأدباء أو من الذين يرون أنهم أدباء ، قد تأثروا فيما يظهر بالحياة السياسية ، وظنوا أن أمور الأدب تستقيم على ما تستقيم عليه أمور السياسة في البلاد الديمقراطية أو التي تريد أن تحيا حياة ديمقراطية . رأوا أصحاب السياسة يسعون في نشر آرائهم ومذاهبهم ، ويستكثرون من الأتباع والأنصار . ثم رأوا شيئاً قد نشر في مصر السياسية يسمى زعامة ، ورأوا جماعة من الساسة يوصفون بأنهم زعماء ، فما الذي يمنع الأديب من أن يستكثر هو أيضاً من الأتباع والأنصار وأن يكون زعيماً من زعماء الأدب ، أو من أن يكون زعيم الأدب وحده لا يشاركه في هذه الزعامة أحد ولا ينازعه فيها منازع !! والاستكثار من الأتباع والأنصار في الأدب معقول إذا اعتمد الأديب على آثاره الأدبية ، وعلى حب الناس لها وإعجابهم بها ، وإكبارهم لمنتجها . ولكن أصحابنا الزعماء لا يسلكون هذه الطريق ! لأن ما ينتجون من الآثار ليس من شأنه أن يثير حياءً أو إعجاباً أو إكباراً . وإذا فما لهم لا يلجئون إلى ما يلجأ إليه بعض الساسة من نشر الدعوة ، ومن الاستعانة بالمال

أحياناً! أذعُ في الصحف ما وسعتك الإذاعة أنك أديب وأديب كبير ، وأنتك زعيم وزعيم خطير ، ثم اجمع حولك طائفة من الناس يشق عليهم العيش فيسره لهم ، أو يشق عليهم الترف فأعنيهم عليه ، واقرأ عليهم بعض ما تنتج من النثر أو من النظم ، فلا أقل من أن يؤدوا إليك ثمن ما تيسر لهم من العيش أو ما تعينهم عليه من الترف ، ومن أن يكون هذا الثمن إعجاباً وإكباراً ، ثم تنقلًا بهذا الإعجاب والإكبار في المجالس والأندية ، ثم وصولاً بهذا الإعجاب والإكبار إلى الصحف والمجلات ، وإذا أنت زعيم لك أتباع وأنصار ، ولك شبيعة تستطيع أن تباهى بها الزعماء . ولكن هؤلاء الأتباع والأنصار لا يلبثون أن يتأثروك ويحاولوا محاكاتك وتقليدك ، ويهيئوا أنفسهم لخلافتك أو النياحة عنك . وإذا فهم مدفوعون إلى أن يحاولوا من الأدب مثل ما حاولت ، وإلى أن ينتجوا نظماً ونثراً مثل ما أنتجت . وقد كنت لهم سيداً وزعيماً ، فكأن لهم منذ اليوم ، ومع هذا كله ، مرشداً أو أستاذاً ، وصداع نفسك يا سيدى كما صدعتهم ، فاسمع لهم ما سمعوا لك ، وأثن عليهم كما أثنوا عليك ، وأذع لهم بين الأندية والمجالس كما فعلوا ، ثم ارقق بهذه الدعوة إلى الصحف والمجلات كما فعلوا أيضاً ، فإنك إن لم تفعل خليك أن تنظر إليهم فلا تراهم ، لأن من الزعماء الأدباء من هو أسخى منك يداً ولساناً وقلماً أيضاً . وإذا فاحذر أن يغلبك هذا الزعيم على أنصارك وأتباعك وشيعتك .

وعلى هذا النحو يستبق الزعماء والأدباء ويتنافسون ويصطنعون المودة في نفوس الشبان يغروهم بكل أنواع الإغراء الممكنة . ثم ننظر فإذا في مصر جيش ضخم من الأدباء ، قد تألفوا جماعات ، وكونوا لأنفسهم مدارس على رأسها زعماء ، هم من قادة الفكر ، والمبدعين في الفن والمنشئين للحياة الأدبية الجديدة . ولا بأس بأن يغلو الزعماء الأدباء في إرضاء الشبان من الأتباع والشبيعة ، ومن أن يخيلوا إليهم أنهم يستطيعون أن يثقوا بطبائعهم الخصبية ومواهبهم النادرة ، وأن في المدارس إفساداً لهذه الطبائع وإضاعة لهذه المواهب ، وأن في الدرس المنظم تقييداً لحرية الفن . وويل للذين يقيدون حرية الفن ! فالفن لا ينبغي أن يتقيد بكتاب ، إلا كتب الزعيم ، ولا بأستاذ إلا الزعيم نفسه ، ولا بمدرسة إلا بيت الزعيم أو قهوته أو ناديه .

وكذلك يُصْرَف جماعة من الشبان عن العلم ، ويغرون بالبطالة ، ويدفعون إلى الإنتاج الفج ، وإلى الغرور بهذا الإنتاج . وكذلك يكون لمصر جيل خطر من الأدباء ، وويل للأدب يوم تنهى أموره إلى هذا الجيل !

وفي الأمر ما هو أدعى إلى العجب والإعجاب من هذا كله . فما دامت هناك جماعات أدبية ومدارس فنية ، وما دام هناك زعماء لهم أتباع وأنصار وشيعة ، فما الذى يمنع أصحاب السياسة من أن ينتفعوا بهذا كله ، ولا سيما حين تعجزهم الظروف وتناهى بهم مذاهبهم السياسية وسيرتهم فى الحكم عن أن يصلوا إلى قلوب الشعب وعن أن يتخذوا لهم من أبناء الشعب أتباعاً وأنصاراً ، وشيعة مخلصين ، ولا سيما حين تعجزهم الظروف ، وتناهى بهم مذاهبهم وسيرتهم السياسية عن أن يستميلوا الكتّاب والشعراء الذين يستحقون هذا الاسم . أفتريد من أصحاب السياسة ألا يكون لهم أنصار من أصحاب الأدب ؟ وكيف يستقيم هذا ! وما غناء حزب سياسى ليس له كاتب ولا شاعر ولا أديب ؛ وإذا فقد يستطيع هذا الزعيم السياسى أو ذاك أن يدنو من هذا الزعيم الأدبى أو ذاك . ووسائل الدنو كثيرة ، وأسبابها موفورة ، حين يكون الزعماء السياسيون مسيطرين على الحكم ، مستمتعين بما يبيحه الحكم لأصحابه من ثروة وجاه وسلطان . وكذلك تُعقَدُ محالفات بين الأدب وبين السياسة ، أو قل بين هذا الأدب المصوغ وهذه السياسة المصنوعة أيضاً . وقوام هذه المحالفات نشر الدعوة وتبادل المعونة . ونتيجة هذه المحالفات إفساد الخلق أولاً ، وإفساد الثقة ثانياً ، والإساءة إلى السمعة الأدبية لمصر ثالثاً ، وحمل الأمم العربية التى كانت تكبر مصر على أن تزدرىها وتزهدها فيها ، وتسخر من هذا اللغظ الكثير الذى يمتلىء به جوها الموبوء.

ثم لا تنس أن تلاحظ هذه الظاهرة الغريبة فى هذا الجو الغريب . فما دام هناك تحالف بين سياسة متكلفة وأدب متكلف ، وما دام هناك توازن بين زعماء تلك السياسة وزعماء هذا الأدب ، فليس غريباً أن يقف الأدب من السياسة موقف الاستعطاف والاستجداء ، إذا أبطأت السياسة بالمعونة أو تلكأت فى البذل ، أو بخلت بالتأييد . والواقع أن شغل السياسة كثير ، وأنه قد يصرفها أحياناً عن الأدب والتفكير فيه ، وقد يلهيها أحياناً عن هذه الجهود التى يبذلها الأدب سرّاً أو جهراً لمعونتها وتأييدها .

وإذا فليس على الأدب بأس من أن يذكر السياسة بمكانه ، فيسعى إلى هذا الرئيس من رؤساء الوزارة ، أو يزور هذا الوزير من الوزراء ، ثم يلتقى بين يديه ألواناً من الشعر والنثر ، ويقدم إليه طاقات من المدح والثناء ، ويعرض هذه الجهود القيمة التى تبذل لتجديد الأدب وإحياء الفن ، ونشر الثقافة ورفع مكانة مصر بين الشعوب المتحضرة ، وأن هذا كله يحتاج إلى مال ، وأن هذا المال يستطيع الأدباء أن

ينفقوه ولكن بشرط أن يجذوه ، فإذا لم يجذوه فلا أقل من أن تعينهم به الحكومة كما تعين غيرهم من الناس . والحكومة لا تبخل بهذه المعونة ، فهي تعين بالمال حيناً وتعين بالوعد أحياناً . وإذا كان المال يعين على إرضاء الحاجات ، فإن الوعد يفتح أبواب الأمل ، ويعين على احتمال الحياة وأثقال المموم . وكذلك يعود تكسب الأدباء بالأدب في هذا العصر الحديث بعد أن كنا نظن أن التكسب بالأدب من غير الوجه الطبيعي قد ذهب وانقضت أيامه . فالأديب خليك أن ينشئ كتاباً أو ينظم ديواناً ، وأن يعرض ديوانه أو كتابه على الناس ليشتروه أو يهجره . والأديب خليك أن يلتمس من العمل ما يلتمسه الناس ، يعيش من عمله ويعيش من ثمن كتبه ودواوينه . ولكن الشيء الذي كان الأدباء يألّفونه قديماً وكنا نحن نصيق به ونحرص على أن يخلصوا منه ، هو أن يلتمس الأدباء حياتهم بالسؤال والاستجداء ، يلجئون إلى هذا الوزير أو إلى هذا الكبير ليعينهم على الحياة لأنهم أدباء ، كأنما الأدب أداة من أدوات العجز ، ووسيلة من وسائل القصور . أو هم يبيعون الثناء بالمال فيمدحون ، ويمنحون ، أو هم يبيعون سكوتهم عن الذم بالمال ، فيذمون إلا أن يشتري صمتهم بالدراهم والدنانير ، أو بالبضائع والعروض . كل هذا كان ، وكل هذا كنا نحرص على ألا يكون . ويخيل إلىّ أنا كنا قد بلغنا مما نريد شيئاً لا بأس به ، ولكن المحنة السياسية من ناحية والمحنة الثقافية من ناحية أخرى . وهجوم الأدعياء ، والقاصرين على الأدب من ناحية ثالثة ، كل ذلك جعل الكسب الأدبي شيئاً يسيراً مألوفاً في هذه الأيام . ويقال مع هذا إن الأدب يرقى ، وإن الحياة الأدبية تسرع في سبيل التجديد ، وإن الحياة الفنية تتكشف للناس عما يصلح العقل والقلب ، ويصنفي الطبع والمزاج . كلا ! إن حياتنا الأدبية في هذه الأيام موبوءة حقاً ، وإن الوباء الذي يفسد طبيعتها ويوشك أن يجعلها شراً خالصاً ، إنما يأتيها من ضعف الثقافة وضيقها وقلة حظها من الغزارة والعمق ، ومن إقدام الجاهلين والمغرورين على ما لا ينبغي أن يوغل فيه جاهل أو مغرور .

النقد وأصول الحكم

ما يزال صديقي الأستاذ عوض حريصاً على أن ينظمَّ النقد تنظيمًا ، وبقيدته تقييداً ، ويجعل له صورة واضحة الشكل مرسومة الحدود . فالذين قرءوا فصله القيم الذي كتبه في هذا العدد من « الوادى » يرون أنه أخضع النقد لأصول الحكم ، وصور الحكومات ، فجعل نفسه ديمقراطياً ، وجعل الطناحى أرستقراطياً ، وجعلنى أنا من أصحاب الفوضى فى الأدب . وأنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى فى الأدب ؛ لأنى لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو ، ولا أستطيع أن أنتظر منه خيراً ، ولا أن أرجو له خصباً ، إلا إذا اعتمد على الحرية المطلقة التى لا تعرف حداً ولا قيداً ، ولا تخضع لنظام ولا قانون . ولكنى فى حاجة إلى أن أفهم الديمقراطية الأدبية على وجهها ، كما أنى فى حاجة إلى أن أفهم الأرستقراطية الأدبية على وجهها أيضاً . فقد يخيل إلى أن إطلاق مثل هذه الألفاظ على مثل هذا النحو يفسد معانيها إفساداً ، ويلقى فى عقول الناس صوراً مشوهة مختلطة من الأدب والنقد والديمقراطية والأرستقراطية جميعاً . وأكبر الظن أن هذه الألفاظ العامة المبهمة تلقى فى نفوس الناس فى هذه الصور المختلطة المشوهة هى التى تدعو الناس إلى الكسل وتخريبهم بالتقصير ؛ لأنها تثير أمامهم مصاعب وعقبات ، لا يقدرُونَ على تذليلها ولا يبلغون ما وراءها ، فيكتفون بالنظر إليها ، ويحفظونها كما هى ، ثم يجرون بها أقلامهم ويطلقون بها ألسنتهم ويرسلونها فى الأندية والمجالس إرسالا . فإذا سألتهم عما وراءها لم تجد طائلا ولا غناء . ولو أن الكتاب والنقاد والأدباء عامة حرصوا على تحديد الألفاظ والتدقيق فى اختصارها ، والكشف الجلى الواضح عن معانيها لأراحوا القراء من عناء كثير وهم ثقيل . وما أظن أن الأدباء الذين ينشئون النثر فى أى فن من فنون الأدب وفى النقد خاصة ، ينفعون أو ينتفعون حين يرسلون الألفاظ إرسالا فى غير تحديد ولا تحقيق ، إنما يقبل هذا من الشعراء ومن بعض الكتاب الذين يذهبون مذاهب الشعراء ؛ لأن هذا النحو من إطلاق الألفاظ العامة المبهمة ، يثير نوعاً من

الجمال يلد السمع والقلب والشعور ، فيه لذة لا يحفل بها العقل ، ولا يقف عندها ، فضلاً عن أن يسعى إليها .

فلندع إذاً للشعراء وأمثال الشعراء هذه الألفاظ العامة المهمة ، ولنذهب مذهب الدقة والتحقيق حين نكتب في النقد وما يتصل به من فنون القول . وإذا فكيف تكون الأرستقراطية أو الديمقراطية في الأدب ؟ وأين تكون الأرستقراطية والديمقراطية في الأدب ؟ أتكون عند الأدباء الذين ينتجون ؟ أم تكون عند القراء الذين يستهلكون ؟ أم تكون عند الناشرين الذين يسعون ويتوسطون بين أولئك وهؤلاء ؟

فأما الأدباء الذين ينتجون فلست أعرف كيف ينظمون أنفسهم أو كيف ينظمهم غيرهم على نحو من هذه النظم المعروفة في السياسة . ذلك أن الأديب بطبعه حر ، حرّ حتى بإزاء إرادته الخاصة ؛ فهو لا يستطيع أن ينتج متى شاء ، وهو لا يستطيع أن ينتج كيف شاء ، وهو لا يستطيع أن ينتج ما يشاء ، وإنما هو رجل قوى الذهن ، واسع العقل ، نخب الحيال ، يحس ما حوله من الأشياء ويتأثر بها ، وإذا بعض ما يحس يملك عليه نفسه ويثير فيها آثاراً قوية تضطره إلى أن يكتب أو ينظم أو يصور ما أحس على كل حال . ولست أزعج أن إرادة الأديب ملغاة في إنتاجه إلغاء تاماً ، ولكني أزعج أن تأثير الإرادة في هذا الإنتاج ضئيل جداً لا يكاد يذكر ، وأن المقدار اللاشعوري في إنتاج الأدب أعظم جداً من المقدار الشعوري . وقد يكون من السهل أو من الصعب أن تحلل حياة الأديب تحليلاً ، وأن ترد آثاره إلى مصادرها الأولى من مزاج الأديب وطبيعته ومن البيئة التي أحاطت به والعصر الذي عاش فيه ، ولكن هذا التحليل نفسه إن أتيح للباحثين من مؤرخي الآداب ، فهو دليل واضح على أن الأديب ، إلى أن يكون مجبراً في الأدب أقرب منه إلى أن يكون مختاراً . فالأديب إذاً حر بالقياس إلى الناس ، وهو حر بالقياس إلى نفسه أو إلى إرادته إن شئت التدقيق ، وهو حر إلى أبعد غايات الحرية . وهو من هذه الناحية متمرد لا يستطيع أن يخضع لنظام ولا أن يدعن لسلطان ، إلا سلطان هذا الشيطان الذي يلهمه ويوحى إليه ويدفعه إلى الإنتاج . قد يكون الأديب ديمقراطي المذهب ديمقراطي المزاج ، ديمقراطي البيئة ، ديمقراطي الوراثة ، فتصدر عنه آثار ديمقراطية أيضاً ، لأنها لا تستطيع إلا أن تكون ملاءمة لمصدرها . وقد يكون الأديب أرستقراطياً في هذا كله ، فتصدر عنه آثار أرستقراطية . وإذا اتصلت حياة « الفاشزم » وأثرت في الأجيال

كما اتصلت حياة الأرسقراطية والديمقراطية ، فلا بد من أن يوجد أدباء تصدر عنهم آثار تلائم هذا المذهب الجديد من مذاهب الحياة . وإذا فكيف يستطيع كاتب من الكتاب أو ناقد من النقاد أو صاحب سلطان مهما يكن أن يجعل النقد أو الأدب ديمقراطياً أو أرسقراطياً أو فاشياً أو بلشفيّاً كله ! ليس إلى ذلك سبيل ، وإنما السبيل إلى ذلك هي الفوضى . هي هذه الحرية المطلقة ، الحرية التي لا تعرف الطبيعة غيرها ، ولا ترضى الطبيعة سواها . الحرية التي تستمتع بها الشمس حين تضيء ، والنسيم حين يهب ، والزهرة حين تتأرجح ، والريح حين تعصف ، والرعد حين يقصف ، والبرق حين يضطرب في السماء . هذه الحرية هي سبيل الأدب ليس إلى تقييدها من سبيل . وإذا فكيف يمكن أن ينظم النقد كله على أنه ديمقراطي أو على أنه أرسقراطي ، أو على أنه ما شئت من هذه المذاهب التي يلهج بها أصحاب السياسة ويكثرون فيها الجدل والحوار ! ليكن صديقي عوض إذا ديمقراطياً في أدبه ، وليكن الأستاذ الطناحي أرسقراطياً ؛ فقد يكون مزاجهما يلزمهما ذلك إلزاماً ، ولكن الشيء الذي لا أشك فيه أنهما لن يستطيعا أن يفرضا ديمقراطيهما أو أرسقراطيهما على الأدب والأدباء ، ولن يستطيعا أن يخرجوا الأدب نفسه من أن يكون حراً طليقاً يعتمد على الفوضى أكثر مما يعتمد على النظام ، بل تصلحه الفوضى وتملؤه خصباً ونفعاً ، ويفسده النظام ويضطره إلى العقم والجمود .

والقراء كيف يمكن أن يكونوا ديمقراطيين أو أرسقراطيين في الأدب والنقد ؟ أما أن كل قارئ يجب أن يستمتع بحريته المطلقة الخالصة التي لا حد لها فيما يقرأ أو قل في اختيار ما يقرأ من الكتب والصحف والمجلات ، فهذا شيء لا شك فيه ، ولكن الحق المقرر شيء ، والحق الواقع شيء آخر . فالأصل أن حرية القارئ المطلقة ، والواقع أن حرته مقيدة محدودة بقيود كثيرة وحدود ضيقة ، أيسرها وأظهرها أنه لا يستطيع أن يقرأ إلا ما ينشر له ويصل إليه ، وهو بعد بعد ذلك حر في أن يختار بين ما ينشر له ويصل إليه . ولكن حرته هذه نفسها محدودة أيضاً بمحدود كثيرة شديدة الضيق ، أيسرها وأظهرها أنه إنسان يتأثر بما يتأثر به الناس . والإعلان من أشد الأشياء تأثيراً في نفوس الناس مهما يكونوا ، وإذا فالقارئ مقيد بالإعلان ، يكفي ألا يخرج من داره حتى يرى الإعلان عن كتاب ينشر أو قصة تمثل ، وألا ينظر في صحيفة حتى يرى الإعلان عن كتاب

ينشر أو قصة تمثل ليرى أنه مدفوع دفعاً قوياً إلى أن يقرأ هذا الكتاب أو يشهد هذه القصة . وكلما كان الإعلان ملحاً كان اندفاع القارئ شديداً . فإذا كان الإعلان صادراً من قوم يحسنونه ويفتنون فيه كان اندفاع القارئ أشد ، فإذا كان الإعلان صادراً عن رجل له مكانة بين الناس أو للناس به ثقة وحسن ظن كان اندفاعه لا حد له . وإذا فهذه الحرية المطلقة التي يقررها الحق للقارئ والتي نحلم بها جميعاً ليست في حقيقة الأمر مطلقة ولا بريئة من كل قيد .

وكما أن القارئ مقيد في اختيار ما يقرأ بهذه القيود ، فهو كذلك مقيد في الحكم على ما يقرأ . فاملأ الصحف ولوحات الإعلانات بالثناء على كتاب من الكتب ، وألح فيه ما وسعك الإلحاح ، وأنفق في ذلك ما استطعت إنفاقه من المال ، وثق بأن كثيراً من الناس سيسرعون إلى الكتاب وسيشترونه وسيقرءونه وسيرضى أكثرهم عنه ، وسيشفق الذين لا يرضون عن الكتاب من أن يعلنوا سخطهم مخافة أن يتهموا بالجهل أو بالغباء ، أو بالتحذق والغرور . فإذا استطعت أن تضيف إلى هذا الإعلان العنيف فصولا من كبار الكتاب الذين يجهم القراء ويثقون بهم فأنت مطمئن إلى أن كتابك سيظفر بالفوز والتأييد إلى حين على أقل تقدير . وقد يظهر الرأي الصحيح في هذا الكتاب بعد أن تهدأ عاصفة النقد والإعلان ولكن هذا لا يؤثر فيما نحن بسبيله من أن القارئ لا يستطيع أن يكون ديمقراطياً في القراءة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وإنما هو خاضع أشد الخضوع لطغيان الإعلان . ولعمري إنى لأوثر إذا لم يكن بد من خضوع القارئ أن يخضع لطغيان ناقد أديب مثقف ممتاز الثقافة لا يطلب الطغيان ولا يتكلمه ولا يلح فيه ، على أن يخضع لهذا الطغيان المرذول الذي يفرضه الإعلان وما ينفق عليه من مال في غير صدق ولا نصح ولا إخلاص للقراء .

فديمقراطية القراء إذاً من هذه الناحية حلم من الأحلام ، كما أن أرستقراطيتهم وهم من الأوهام . وإذا فأين تكون الديمقراطية والأرستقراطية في الأدب ؟ ! أو أين يكون النظام الدقيق في الأدب ما دام لا يمكن تحقيقه عند الأدباء ، وما دام لا يمكن تحقيقه عند القراء ؟ ! إنما يكون النظام الدقيق عند الناشرين الذين يتوسطون بين الأدباء والقراء . ولست أدري ، بل ليس يعني أن يكون هذا النظام ديمقراطياً أو أرستقراطياً ، أو شيوعياً ؛ لأن الحق الواقع أنه نظام دقيق ، وأنه يقوم قبل كل شيء على رعاية مصلحة الناشر ورأس المال الذي يعتمد عليه ،

وعلى إهمال الأديب والقارئ التضححية بهما في سبيل التنمية المسرفة الآثمة لرأس المال . ولكننا نبعد عن الموضوع الذي أردنا أن نكتب فيه إن أطلنا الوقوف عند الناشرين واستبدادهم بالمنتجين والمستهلكين جميعاً ، فلندعهم وما هم فيه من سلب ونهب ومن تضححية بالأديب المنتج وعبث بالقارئ المستهلك . ولنرجع إلى النقد والأدب ، ولنسأل كيف يمكن أن يخضعوا خضوعاً عاماً شاملاً لنظام من نظم الحكم أو لصورة من صور الحكومات ؟ كيف يمكن أن يكونا ديمقراطيين أو أرستقراطيين ؟ أو بعبارة أدق كيف يمكن أن يحكم فيهما الفن أو أن يحكم فيهما القراء ؟ ما زلت أنتظر أن ينبثق أصحاب الفن عن حكم الفن هذا كيف يكون ، بل عن الفن نفسه كيف يقرأ وكيف يلاحظ ، وكيف يقضى . وما زلت أنتظر أن ينبثق أصحاب الجمهور كيف يمكن حكم الجمهور في الأدب ؟ من هو هذا الجمهور ؟ وكيف يصدر عنه حكم متفق مع أنه هو مختلف أشد الاختلاف في الطبقة والبيئة والثقافة ؟

صدّقوني أيها الزملاء أن من الإسراف أن تفرضوا النظام على كل شيء . فدعوا الأدب حراً طليقاً ، كما أراد الله له أن يكون . ليكتب من شاء ما يشاء . ولينتقد من شاء ما يشاء كما يشاء ، فلا حياة للأدب إلا بهذا . ولندع للطبيعة نفسها الذهاب بما لا خير فيه واستبقاء ما ينفع الناس ؛ فقد تكون الطبيعة أقدر من الفن وأقدر من النقاد وأقدر من الجمهور على هذه التصفية . وأنا أعلم أنك ستسألني عن الطبيعة ما هي ؟ فأجيبك بأنها هي مجموعة من المؤثرات الظاهرة والخفية التي نعرفها والتي لا نعرفها ، والتي تعمل سواء أردنا أم لم نرد على تحقيق ما قال الله عز وجل : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

في الضمير الأدبي

جذوة مضطربة يختلف عليها الليل والنهار ، وتتعاقب عليها الفصول ، وتثور من حولها العواصف ، وتتباين من حولها الظروف ، وهي متوقدة متوهجة ، لا يعرف الحمود ولا الضعف إليها سبيلا ، هذه الجذوة الخالدة القوية التي لا يخمدها إلا الموت ، إن كان الموت يستطيع أن يخمدها - وأكبر الظن أنه لا يستطيع ذلك ، لأن الموت لا يفنى شيئا ، وأن هذه الجذوة ، تنتقل من حيز إلى حيز ومن مكان إلى مكان - هذه الجذوة الخالدة التي تستعصي على الفناء هي عندي الصورة الصادقة لضمير الأديب الذي يستحق هذا الاسم . هي قوية لا تعرف الضعف مهما تكن الظروف التي تكتنفها ، والخطوب التي تلم بها ، والهموم التي تصب عليها صببا . خذ أديبا خليقا بهذا الاسم وادرس حياته الأدبية وحياته المادية والظروف التي أحاطت بهذه وتلك ، فسترى أن جذوته هذه قد ثبتت للخطوب جميعا ، واستعصت على الأحداث جميعا ، واستغلت الظروف جميعا في سبيل بقائها وتوقدها وصفائها وإنتاجها المتصل . تلين الحياة لهذا الأديب ، وتواتيه الظروف ويتاح له خفض العيش ، وتبسم له الأيام ، فإذا هو ناعم راض مبتهج قوى الأمل ، ولكن شيئا من هذا كله لا يبطره ولا يطغيه ، ولا يصرفه عن الأدب ولا عن الإنتاج فيه ، إنما هو الأديب دائما ، المختلف دائما إلى معبد « أبلاون » المستخرج دائما من هذا المعبد خير ما فيه من آيات الأدب والحكمة والفن . لا ينخدع بزخرف الحياة ، ولا يطمئن إلى لين العيش ، ولا يكتب بما أتيح له من نعيم ، وإنما يتخذ هذا كله وسيلة إلى إذكاء جذوته وتصفيتها وتنقيتها وتمكينها من أن تنتج ، ومن أن تمس أكبر عدد ممكن من الناس ، ومن أن تتحقق أكبر عدد ممكن من مشكلات الحياة . وقد تقسو الحياة عليه وتتنكر له ، وتنصب الظروف له أشنع الحرب ، وتعرض الآمال عنه لإعراضا ، وتنسج الدنيا له من الكيد والمكر والعدوان شباكاً تأخذه من كل مكان فلا يتقدم إلا رأى شراً ولا يتأخر إلا رأى شراً ، ولا يسكن إلا أحس همماً ، ولا يتحرك إلا أحس همماً ، وهو مع ذلك أديب لا يصرفه الشر

المتصل والنكر الذى لا ينقطع ولا الخطوب المتلاحقة ولا الهموم الثقالة عن أدبه ولا عن جذوته هذه ، إنما هو دائم العكوف عليها مستمر التذكية لها ، يستغل قسوة الحياة لذلك كما يستغل لينها ، ويستفيد من البؤس كما استفاد من النعيم ، وينتفع بالشقاء كما انتفع بالسعادة ، ويبلغ بجذوته هذه أن تمس أكبر عدد ممكن من الناس ، وأن تتعمق أكبر عدد ممكن من مسائل الحياة ، وأن تثير أكبر عدد ممكن من هذه العواطف الخفية التى ينطوى عليها قلب الإنسان الأديب الخليق بهذا الاسم . حركة دائمة وحياة متصلة وإنتاج لا ينقطع ، ينتج حين تمسه السراء ، وينتج حين تمسه الضراء ، ينتج حين يكون قوياً في ظاهر الحياة ، وينتج حين يكون ضعيفاً في ظاهر الحياة ، لأنه قوى دائماً . ينتج وهو حى وينتج بعد أن يموت ، لأن جسمه هو الذى يموت ، ولأن ملكاته المتصلة هى التى تموت ، فأما حياة ضميره الأديب ، فأما جذوته المتقدة ، فأما حياة عقله وقلبه ونفسه ، فهى باقية أبداً . لا يموت حتى يسلم اللواء إلى من يحمله ، وحتى يلقى فى الآفاق من آرائه ومعانيه وخواطره ومذاهبه ما يؤتى أثماراً تتبعها أثمار ، ويحيى نفوساً تنتقل منها الحياة إلى نفوس . وهو كذلك حى دائماً ما عاش الناس ، باق دائماً ما بقى فى الأرض قلب يشعر وعقل يفكر ، وإنسان قادر على الفهم والذوق والإنتاج .

خذ من شئت من الأدباء الذين يستحقون هذا الاسم على اختلاف آجالهم وبيئاتهم وأزمانهم ، وادرس حياتهم قبل أن يموتوا ، وادرس حياتهم بعد أن ماتوا ، فهم أحياء بعد الموت . وحدثنى أترى فى هذه الحياة ضعفاً ، أم ترى فى هذه الحياة فتوراً ، أم ترى فيها ذبولاً واستعداداً للفناء ؟ كلا ! إنما هى القوة المتصلة ، والخصب المتصل ، والإنتاج الذى ليس إلى انقطاعه سبيل . كم مضى على هوميروس ، أو على الهومييريين من قرون ، وكم اختلفت على آثارهم الظروف والأمم والأجيال ، وهذه الآثار مع ذلك باقية تقرأ وتحى النفوس ، وتثير العواطف وتدعو إلى الإنتاج القيم ، الذى يختلف فى صوره وأشكاله وفى أغراضه وآياته وفى موضوعاته أيضاً ، ولكنه ينتهى دائماً إلى أصل واحد ، هو هذه الجذوة القوية المضطربة التى لم تخمد بعد ، والتى أنتجت الإلياذة والأوديسا أو ما يتصل بهما من القصص والأساطير . وخذ من شئت غير الهومييريين من أدباء الرومان أو من أدباء العرب أو من أدباء الفرنجة فى العصور الوسطى وفى هذا العصر الحديث ، فستراهم أحياء ، وسترى

أن حياتهم أقوى وأنفع ألف مرة ومرة من حياة أمثالك وأمثالي من الذين يضطربون في الأرض ، ويتحدثون إلى الناس ويجادلون فيما يثور من المشكلات. فليس من شك في أن انتفاع الناس الآن بآثار هوميروس وأمثاله ، وتحديثهم عن هذه الآثار ، واستغلالهم لها ، واستعانهم بها على إنشاء النثر ونظم الشعر ، أكثر ألف مرة ومرة من انتفاعهم بما ينتج الأدباء الأحياء، مهما يكن شأنهم مرتفعاً، ومهما يكن صوتهم بعيداً ، ومهما يكن استعدادهم للخلود قوياً . فالجدوة الأدبية إذاً تمتاز بقدرتها على البقاء ، وبأن طول العهد بها لا يزيد لها إلا قوة، وبأن اختلاف الأحداث عليها لا يزيد لها إلا اضطراباً وانتشاراً .

إذاً فليس أديباً حقاً من يزعم أنه قادر على أن يفارق الأدب ، ويخمد جذوته في نفسه ، أو هو أديب ولكنه لا يعرف نفسه ولا يقدر طاقته ، ولا يفرق بين ما يستطيع وما لا يستطيع . وإذا رأيت رجلاً يتحدث الناس عنه أنه أديب ، ويتحدث هو عن نفسه أنه أديب ، ثم يتخلف فجأة عن حياة الأدباء وعن الإنتاج الأدبي ، وينصرف إلى أشياء ليست من الأدب في شيء ، فاعلم أنه ليس أديباً ، وإنما خدع عن نفسه ، أو خدع الناس عنه ، ثم تبين له الحق ، أو تبين للناس الحق في أمره ، فعاد إلى ما يلائمه ، وعاد الناس في أمره إلى الصواب .

وإذا رأيت أديباً ينتج ما استقامت له الحياة وواتته الظروف واتصل عليه النعيم ، فإذا اعوجت به الطريق ، أو نبت به الظروف ، أو سلط عليه البؤس ، لم يصنع شيئاً ، وإنما ضعف وأدركه الوهن ، وحيل بينه وبين الحصب المنتج المفيد ، فهو ليس أديباً خليقاً بهذا الاسم ، تستطيع أن تسميه بما شئت من الأسماء، وأن تخلع عليه ما أحببت من الأوصاف ، إلا أن تزعم له أنه أديب .

أتعرف هؤلاء الشعراء الذين يستمتعون بالحرية فيتغنون ، ويترجون في أعماق السجون فيتغنون ، والذين يستمتعون بالنعيم فيتغنون ، ويضطرون إلى البؤس والجوع والحرمان فيتغنون ؟ هؤلاء شعراء حقاً وأدباء حقاً ! لأن أخص ما يمتاز به الشاعر أو الأديب هو أن جذوته مضطربة دائماً ، وضميره حي دائماً ، وقلبه مرآة لكل شيء ، وملكته الإنشائية مصورة دائماً لكل ما يرسم في هذه المرآة . فإذا رأيت رجلاً تعجبه الحياة فيتغنى ، فإذا ساءت آثر الصمت أو اضطرت إليه ، فهو أديب منقوص ، أو شاعر منقوص ، فكيف بك إذا رأيت هذا الرجل الذي يسلط إرادته على أدبه ، فينتج حين يريد ، ويكف عن الإنتاج حين يريد ، ويتصرف

في الأدب كما يتصرف في غيره من هذه الأشياء التي يتصرف الناس فيها أحراراً ؟ هذا الرجل ليس أديباً ، وإنما هو صانع ، وإنما هو متكلف ، وإنما هو عامل من العمال ، ومن العمال الذين يتخذون العمل وسيلة إلى الحياة ، لا وسيلة إلى إرضاء طبيعتهم المشغوفة بالفن ، المفطورة على حبه ، المكروهة على أن تتصل به ، مهما تكن الظروف .

والأديب الذي يستحق هذا الاسم قد تختلف آراؤه وميوله ، وقد تتباين عواطفه وأهواؤه ، وهو قد يرضى ، وقد يسخط ، وقد يرضى عن شيء ، ويسخط على هذا الشيء نفسه ، وقد يحب إنساناً ثم يبغضه ، وقد يحب شيئاً ثم يكرهه ، ولكن شيئاً من هذا لا يؤثر في ضميره الأدبي ولا يؤثر في تقديسه للأدب ورفعته فوق كل شيء ، وفوق كل ظرف ، وفوق كل عاطفة أو هوى . فالأدب عنده ليس وسيلة ولا أداة ، وإنما هو الغاية والغرض ، وهو الشيء الذي من أجله خلق ، ومن أجله عاش ، ومن أجله يجب أن يموت . فإذا رأيت رجلاً يبتذل الأدب ابتذالاً ويمتهنه امتهاناً ، ويبيع مذهبه الأدبي في السوق ، فيميل به إلى اليمين إن راجت السوق نحو اليمين ، ويميل به إلى الشمال إن راجت السوق نحو الشمال ، ويقف به موقف الحائر المنتظر حتى يتبين من أين تهب الريح وإلى أين تريد أن تمضي ليتها ، فليس هذا الرجل أديباً ، وليس هذا الرجل مستمتعاً بهذا الضمير الأدبي الذي يتيح لأصحابه القوة والخلود ، وإنما هو تاجر يحمل طائفة من السلع والعروض يريد أن يفيد منها ما يتاح له من الربح ، فيفوق حيناً ، ويخطئه التوفيق في كثير من الأحيان .

والضمير الأدبي الصحيح صُلْبٌ لا يعرف المرونة ، ماض لا يعرف التردد ، قاس لا يعرف ليناً . ترى الأديب يتلون في أشياء كثيرة ، ولكنه لا يتلون في الأدب . تراه يفرط في أشياء كثيرة ، ولكنه لا يفرط في الأدب . تراه يساوم في أشياء كثيرة ، ولكنه لا يساوم في الأدب ؛ لأنه يستطيع أن يمس الأدب بتلون أو تفريط أو مساومة . انظر إلى هذا الشاعر قد اتخذ لنفسه هذا المذهب في الشعر ، أو فرض هذا المذهب على نفسه فرضاً ، فهو يتصور على هذا النحو دون ذلك ، وينظم على هذا النحو دون ذلك ، ويتغنى على هذا النحو دون ذلك . قد تختلف عليه الأحداث ، وتلم به الملهمات ، ويمتحن في حياته ما شاء الله من ضروب الامتحان ، ولكنه لن يغير مذهبه في الشعر ، ولن يتحول عن أسلوبه في النظم ،

ولن يميل عن طريقته في الغناء ، إلا أن يكون هذا التحول نتيجة طبيعية للتطور الفني الذي لا بد منه ، فأما أن يبيع مذهبهم بمذهب آخر ، لأن الناس يريدونه على ذلك ، فأما أن يغير أسلوبه في النظم لأن أسلوبه القديم لا يرضى الناس ولا يوافق أهواءهم ، فأما أن يميل عن طريقته في الغناء إلى طريقة أخرى لأن طريقته لا تلائم ذوق الناس ، فهذا شيء لا سبيل إليه ؛ لأن الأديب الخليق بهذا الاسم لا يفكر في الناس ولا يحفل بهم ، ولا يقف عندما يريدون وما لا يريدون ، وإنما يفكر في الأدب وحده ، ويحفل بالأدب وحده ، ويقف عند ما يريد الأدب وحده .

الأديب هو أصدق صورة للرجل المحبر الذي لا رأى له ولا إرادة ولا اختيار فيما ينتج من الآثار الأدبية الخالصة ، هو أشبه شيء بالأداة التي توجه ، وهي لا تعرف كيف توجه ، وأشبه شيء بالمرآة التي تتلقى الصور وهي لا تعرف كيف تتلقاها ، وأشبه شيء بالرجل الملهم الذي يأتيه الوحي وهو لا يعرف كيف يأتيه ولا من أين يأتيه ، هذا هو الضمير الأدبي الذي يتيح لأصحابه البقاء ، ويتيح لهم أن يكونوا أئمة للناس وقادة للحضارة .

فأما هذه الضمائر الضعيفة الفاترة التي لا تعرف ثباتاً ، ولا تقدر على مقاومة ، ولا تحس استقراراً ولا استمراراً ، فلست أدري ما هي ، ولكني أعلم حق العلم أنها ليست ضمائر أدبية ، وإنما هي ضمائر تستطيع أن تسميها بما شئت من الأسماء وأن تصفها بما أحببت من الأوصاف .

ولعلك تسألني : فم كل هذا الكلام ؟ وفيم كل هذا التفصيل ؟ وأظن أنني لست في حاجة إلى أن أجيب ولا أن أطيل الجواب ، وإنما يكفي أن تنظر في الأدب المصري الحديث ، وفي الأدباء المصريين المحدثين ، وأن تسأل أين يكون الضمير الأدبي الصحيح من هذا الأدب ومن هؤلاء الأدباء ؟ أين يكون هذا الأديب الذي يرفع أدبه عن الظروف ويرقى به فوق الأحداث ، ويمتنع به عن الضمير ، ويأبى أن يجعله تجارة ، وأن يساوم فيه كما يساوم التجار ؟ أين يكون هذا الأديب الذي لا يفكر في الناس قبل أن ينشئ ، ولا يسأل عما سيقول الناس قبل أن ينتج ، ولا يقدر عواقب آثاره الأدبية قبل أن يذيعها في القراء ؟ أين يكون الأديب الذي لا يقوم أثره الأدبي بالدرهم والدنانير قبل أن يكتبه وقبل أن يخرج منه ؟ أين يكون هذا الأديب الذي لا يسعى إلى الشهرة وإنما تسعى الشهرة إليه ، والذي

لا يطلب الرضا وإنما يطلبه الرضا ، والذي لا يخاف الحمول ولا يكره الانزواء ، ولا يشفق من الغضب والخطر ؟ أين هذا الأديب الذي لا يرضى صحبة الأدب إلا أن يكون الأدب صاحباً مأموناً لا يعرض لخطر ولا يثير خوفاً ، ولا يهيج غضب السلطان أو اتباع السلطان ، ولا يحول عنه رضا الناس ولا يحول عنه قروش الناس بنوع خاص ؟ ثم أين هذا الأدب الذي ينتجه في مصر مثل هذا الأديب ؟ تستطيع أن تبحث عن هذا الأدب ، وأن تبحث عن ذلك الأديب ، وأن تلتمس الضمير الأدبي الصحيح الذي يؤمن بالمبدأ الأدبي كما يؤمن الرجل النقي بمبدئه الديني ، وأظنك لن تخالفني في أن هؤلاء الأدباء في مصر قليلون جداً ، وليسوا في حاجة إلى الإحصاء ، لأنهم يحصون أنفسهم بأنفسهم ، وفي أن الآثار الأدبية التي تصدر عن هذا الضمير الأدبي الحى قليلة جداً ليست في حاجة إلى العد لأنها تعد نفسها ، وفي أن مصر ستظفر بالحياة الأدبية الصالحة التي ترفع مكانها بين الأمم الراقية بالأدب حقاً يوم يقوى الضمير الأدبي في أدبائها ، ويوم يستطيع أن يسيطر سيطرة صحيحة على نفوس كثير من الكتاب وكثير من الشعراء ، فلا ينشئون ولا ينظمون إلا عن يقين وصدق وإيمان .

ولا تقل إني سيء الرأي ، ولا تقل إني متشائم ، فقد يكون هذا حقاً ، ولكن ما رأيك في أن سوء الرأي وفي أن التشاؤم في مثل هذه الموضوعات أساس من أسس النهضة الصحيحة ، وفي أن حسن الرأي غرور ، وفي أن التفاؤل عجز ، وفي أن النقد والنقد الصارم الحازم ، الذي لا يمهل ولا يهمل ، ولا يجامل ولا يصانع هو من أجل هذا ضرورة من ضرورات الحياة الأدبية في مصر الآن !

بين الدين والعم والأدب والإحسان

وما رأيك أيها القارئ الكريم في هذا العنوان الطويل الذي لا يكاد ينقضي ، وفي هذا العنوان الطويل يصدر عن كاتب تعود أن يختار عنوانه قصيراً ممعناً في القصر ، لا يتجاوز به الكلمة في أكثر الأحيان ، ولو استطاع أن ينزل به عن الكلمة لفعل ، ولو استطاع أن يجعل عنوانه رمزاً يحس ولا يقرأ لكان بذلك مغتبطاً وله مؤثراً . ولكنه مع ذلك قد آثر في هذا اليوم أن يكون عنوان حديثه طويلاً كليل الشتاء ، أو كشهر الصوم ، أو كعقوب تلك الفتاة التي أنشد فيها بعض العلماء :

نُبِّئْتُ أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

والعنوان ليس طويلاً فحسب ، ولكنه مختلف شديد الاختلاف ، مركب شديد التركيب ، فيه الدين ، وفيه العلم ، وفيه الأدب ، وفيه الإحسان . وهو بهذا كله يخيل إلى من يقرؤه أنه ساعرض لموضوعات شائكة معضلة لها خطرها الذي لا يشبهه خطر . وهو يثير في نفس من يقرؤه شوقاً إلى القراءة واستعداداً للجدال والنضال ، وتأهباً للحرب والقتال ؛ فما ينبغي أن يتحدث كاتب هذا الفصل عن الدين والعلم ، إلا إذا كان يريد أن يقول شيئاً عظيماً ، أو يحدث حدثاً خطيراً ، أو يُقدِّم على أمر ذي بال . وما ينبغي أن يتحدث كاتب هذا الفصل عن العلم والأدب إلا وهو يريد أن يعرض لموضوع سبحفظ قوماً ، وسيرضى قوماً ، وسيشير بين أولئك وهؤلاء حرباً شعواء . والإحسان ما موقعه من الأدب ؟ وما موقعه من العلم إن فهم موقعه من الدين ؟ أيريد كاتب هذا الفصل أن يكون ناقداً ؟ أيريد أن يكون واعظاً ؟ أيريد أن يكون فيلسوفاً ؟ أم يريد ماذا ؟ أسئلة سيثيرها هذا العنوان الطويل المركب في نفوس كثير من الناس إذا قرءوه . وأنا حريص على ألا يطول انتظارهم للجواب ، فلأسرع إليه إذاً ، ولأنبئهم بأنني لا أريد ثورة ولا أبتغي انقلاباً ؛ وحسب مصر أن يثور فيها « صدقي » وأتباعه ،

وحسب مصر أن يحدث فيها الانقلاب السياسي إثر الانقلاب السياسي . وخير للأدباء في هذه الأيام أن يرفقوا بالناس ، وهم مع الأسف ومع السرور يرفقون بهم ، فلا ينتجون أو لا يكادون ينتجون شيئاً خليقاً أن يحدث ثورة أو اضطراباً . لا أريد إذاً أن أقدم على أمر عظيم ، ولكني مع ذلك اخترت هذا العنوان لأنني لم أجد من اختياره بدءاً ، فوضوعه يقتضي هذا الاختيار . ولأفرض أنني تلميذ يهني موضوعاً من موضوعات الإنشاء ، فهو يريد أن يبين عناصر هذا الموضوع كما يقولون ليكون ما يكتبه منظماً بصور عقلاً منظماً أو آخذاً في سبيل النظام ، فلأبين إذاً عناصر هذا الموضوع الإنشائي الذي أردت أن يكون حديث الأربعاء في هذا اليوم .

فالجمعية الخيرية الإسلامية هي العنصر الأول من عناصر هذا الموضوع . والمصريون جميعاً يعرفون الجمعية الخيرية الإسلامية ، يعرفها الفقراء لأنها تعينهم أنواعاً مختلفة من المعونة : تعلم أبناءهم ألواناً من العلم ، وتتيح للمحرومين منهم أن يهتموا الحياة . ويعرفها الأغنياء لأن كثيراً منهم يعينها على مروءتها ، يعينها بالمال ويعينها بالجهد ، ويعينها بالإخلاص ، ويعينها بهذا الجزء الذي يكمل به نفسه الإنسانية ، وهو حب الإحسان . ويعرفها التلاميذ الذين يختلفون إلى مدارسها ، ويعرفها المعلمون الذين يؤدبون هؤلاء التلاميذ ، ويعرفها المعوزون الذين يستعينون بها على استقبال رمضان ، ويستعينون بها على التهيؤ لاستقبال الأعياد ، ويستعينون بها على الدفع إذا كان الشتاء ، وعلى التبليغ إذا تراءت لهم أشباح الجوع . ثم يعرفها هؤلاء الذين كانوا أغنياء فأدركهم الفقر ، ولكنهم يريدون أن يكونوا كراماً ، فتعينهم على أن يكونوا كراماً . ثم يعرفها الطلاب في الجامعة وفي المدارس العليا ، لأنها تعين بعضهم على استكمال حظه من التعليم العالي . ثم يعرفها سكان مصر جميعاً من المصريين والأجانب ، لأنها قديمة العهد بالوجود ، قد كادت تبلغ عيدها الفضي ، وهي تظهر للناس في كل عام في أقوى مظهر وأرقاه وأروعها حين تقيم حفلها السنوي الذي ستقيمه غداً . ويقال إن دار المندوب السامي تعرفها أيضاً ، ويقال إنها تبرعت لاحتفال الغد بشيء من المال ، لأن الإحسان فضيلة تزدان بها الديانات جميعاً ، وتزدان بها الوطنيات جميعاً ، وتجعل الإنسان إنساناً . فهذا هو العنصر الأول من عناصر موضوع الإنشاء . وأظنني قد بينته في غير لبس ولا غموض .

وأما العنصر الثاني فهو علماء الدين ، وعلماء الدين الإسلامى الكريم الذى لا يعرف الناس ديناً يشبهه فى العطف على الفقير وإيثار البائس بالرحمة والبر ، وجعل الصدقة ركناً من أركانه فرضها على القادرين فرضاً ، واتخاذها أداة صالحة منتجة لتحقيق عدل الله فى الأرض ، وتحقيق التوازن بين الطبقات ، وتحقيق الحب بين الأغنياء والمحرومين ، ولصيانة النظام الاجتماعى من الاضطراب والفساد ، ولتطهير النفس الإنسانية من أدران الأثرة والحرص والتهاك على المنفعة . وعلماء الإسلام هم حماة ودعاته ، وهم حفظته وناشروه ، وهم قدوة الناس فى الاثمار بما يأمر به من معروف والانتها عما ينهى عنه من منكر ، وفيهم الأسوة لمن أراد الأسوة ، وفيهم المثال لمن ابتغى المثال . وهم مصابيح الظلام ، وهم الهداة إلى الحق والدعاة إلى الخير ، وهم أزهدهم الناس فى أنفسهم ، وأحب الناس للناس . وهم أبغض الناس لأعراض الدنيا ، وأحب الناس لثواب الآخرة . وهم رسل الرحمة فى الأرض ، وهم قادة الناس إلى السماء .

فهذا هو العنصر الثانى من عناصر الموضوع الإنشائى . فأما العنصر الثالث فهذه البطاقات التى توزعها الجمعية الخيرية فى كل عام على الناس تدعوهم بها إلى أن يشهدوا حفلها العام ، أو قل تدعوهم بها إلى أن يدفعوا ثمنها صدقة تطهرهم وتزكّيهم وتعين الفقراء على احتمال الفقر ، وتعين المحسنين على المضى فى الإحسان . والأصل فىمن انتهت إليه هذه البطاقة أن يؤدى ثمنها مضاعفاً إن كان غنياً ، وغير مضاعف إن لم يكن غنياً . فإذا أدى هذا الثمن فالأصل أن يشهد الحفل إن استطاع شهوده ، فإن لم يستطع فليس عليه من ذلك بأس . والناس جميعاً يعلمون هذا ولا يختلفون فيه . وهذه البطاقات توزع فى كل عام على أفراد الناس وجماعاتهم ، وعلى مصالح الدولة ودواوينها ، وأهل الخير يتطوعون بالتوزيع كما يتطوعون بالبذل . فهذا هو العنصر الثالث من عناصر الموضوع .

ولهذه البطاقات قصة يجب أن تُقَصَّ ، ولكن لا أقصها إلا لتفكر فيها وتنتفع بها . وسترى أنها خليقة بالتفكير قادرة على النفع . فقد صدرت خمس بطاقات عن لجنة الحفل ، أو قل عن رئيس هذه اللجنة ، وهو رجل كريم من كبار الموظفين ، وقيل لهذه البطاقات : اذهبي راشدة إلى صندوق البريد ، ثم اذهبي راشدة إلى الإسكندرية ، ثم اذهبي راشدة إلى المعهد الدينى فى المدينة ، ثم استقرى هناك وأرسلى إلى الجمعية ثمنك يسيراً ولكنه مبارك . فليس الجنيه

الذى يجمع من علماء الدين على قلته وضالته كمئات الجنيهاً التي تجمع من غير رجال الدين على كثرتها وضخامتها . هو حنيه كله خير وبر ، فيه البركة كلها ، وفيه الحصب والنماء . اذهبي أيها البطاقات الخمس راشدة إلى شيخ العلماء في الإسكندرية ، فاقرئي عليه تحية الفقراء وألتي إليه سلام البائسين وقولي له إنهم ينتظرون . وخرجت البطاقات من عند رئيس اللجنة الكريم نشيطة شديدة النشاط ، فرحة عظيمة الفرح ، تكاد تنطق لتبين عما يملؤها من الفخر . وما بالك ببطاقات خمس تذهب إلى شيخ من شيوخ الدين لتأخذ منه الصدقة لفقراء المسلمين ! ثم أصبح رئيس اللجنة الكريم ذات يوم ، وإذا غلاف يدفع إليه ، فيفضه فيرى ؛ ويأشر ما يرى ! يرى البطاقات الخمس قد عادت إليه حزينة كثيبة كاسفة البال ، تريد أن تشكو فلا تستطيع أن تشكو ، لا لأنها بطاقات لا تبين ، بل لأن الحزن قد حال بينها وبين الشكوى ، فأفعم قلبها إن كان للبطاقات قلوب ، وعقد لسانها إن كان للبطاقات ألسنة . لقد طرقت باب الشيخ فلم يفتح لها ، وألحت في الطرق ، وصبرت وصابرت ، وتمثلت قول الشاعر القديم :

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
ولكن صبرها لم يغن عنها ، ولكن إدمانها للقرع لم يجد عليها ، وإنما
رُدَّتْ رداً عنيفاً ، وانتهرت انهاراً قبيحاً ، وقال لها القائلون : عودي من حيث
أتيت فإننا عنك مشغولون بالعلم والدين ؛ حاولت البطاقات أن تقنع فلم تقنع
أحدًا ، وحاولت البطاقات أن تُسمع فلم تسمع أحدًا ، وحاولت البطاقات
أن تمس القلوب فحيل بينها وبين القلوب ، وحاولت البطاقات أن تثير الحياء ،
فحيل بينها وبين الحياء ؛ قالت البطاقات فإني استحي أن أنبي الفقراء بهذه
الحيبة ، وأن أعتذر إليهم من هذا الإخفاق . قال القائلون : لا بأس عليك ،
فسنعفيلك من هذا الحياء ، وسنريحك من هذا الاعتذار ، احملي إلى مرسلك
عنا هذا الكتاب :

« حضرة صاحب السعادة المفضل

نعيد لسعادتك مع هذا التذاكر الخمس الواردة بكتاب الجمعية رقم ٤١
و ١٢ برسم صاحب الفضيلة الشيخ محمد الشافعي الظواهري ، للعلم بأن فضيلته
مشغول والعلماء بأعمال الدراسة في ليلة حفلة الجمعية ، ولا يمكنهم التخلف
عنها في ذلك التاريخ .

سكرتير المعهد

وتفضلوا . . . »

وأقبلت البطاقات الخمس تسعى على استحياء ، تقدم رجلا وتتوخر أخرى ، ثم رفعت الكتاب مستخذية إلى رئيس اللجنة . فلما قرأه رق لها وعطف عليها ، وتحدث إليها بحديث طويل طيب خاطرها ، كما يقول الناس . ثم قال لها : اذهبي راشدة أيتها البطاقات الخمس إلى دار الفقراء مبتسمة راضية ، واحملي إليهم ثمنك هذا يسيراً ولكنه مبارك ، لأنه يصدر عن قلب مخلص للفقراء ، يحبهم ويعطف عليهم ، ويريد لهم الأمن والدعة والأمل الواسع العريض . اذهبي راشدة أيتها البطاقات الخمس إلى دار الفقراء فاحملي إليهم هذا الجنيه الذى لم تمسه يد شيخ مبارك ، ولم يخرج من مال عالم من علماء الدين ، ولم يفكر فى إرساله رأس عليه العمامة الضخمة ، ولم يأمر بإرساله لسان يتردد بهذه الألفاظ التى تتردد بها ألسنة رجال الدين ، وإنما هو جنبيه متواضع يسير ، يهديه إلى الفقراء رجل متواضع يتخذ الطربوش ، ولا يختلف إلى المقابر والأضرحة ، ولا يطيل الكم ولا يتحرج فى القول ، ولا يتحرج فى الحركة ، ولا يتحذق فى الغيرة على الدين ، إنما هو رجل مؤمن قد أخلص دينه لله ، واتخذ رضا الفقراء وسيلة إلى رضاه .

قال ذلك ثم وضع البطاقات فى غلاف ووضع معها جنياً وقال لها : اذهبي راشدة ولا تحزنى . فمن يدري ! لعلك بعد أن تؤدى ثمنك هذا إلى الفقراء أن تدفعى إلى قوم مخلصين فيؤدوا ثمنك مرة أخرى ، فيكون الله عز وجل قد ضاعف بك فضله على الفقراء ، وعزأك عن خيبة الأمل أحسن العزاء .

فهذا عنصر آخر من عناصر الموضوع . أتريد أن أمضى فى بيان هذه العناصر ، أم يكفيك ما قرأت ؟ أما أنا فإن الحزن يملأ قلبي ، وبصرفنى عن التفكير والإملاء . ولكنى أسأل نفسى وأريد أن تسأل نفسك ، وأظن أن البطاقات قد سألت نفسها : أكان ردها خائبة من الإسكندرية ناشئاً عن اشتغال رجال الدين بالعلم والدين ، أم كان ناشئاً عن إيثار رجال الدين للمال ، أم كان ناشئاً عن مذهب سياسى يجعل معونة الجمعية الخيرية الإسلامية شيئاً لا ينبغى لرجال الدين أن يخفوا له أو يقبلوا عليه ؟ فقد يقال إن بطاقات أخرى أرسلت إلى المعاهد الدينية الأخرى فعادت خائبة !

أفلمح فى هذا أيضاً آثار الأبراشى باشا ؟ !

نزاهة الأدب

في مصر الآن قضية سياسية خطيرة يسميها الناس « قضية نزاهة الحكم » . وقد أخذت اسمها هذا من عنوان بعض المقالات التي أثارها حين نشرت في « السياسة » نقداً لبعض الوزراء .

وأظن أن من الممكن ، بل من الخير ، بل من الواجب . أن تثار من حين إلى حين في الأدب قضية تشبه هذه القضية ، في الاسم على أقل تقدير ، فتسمى « قضية نزاهة الأدب » .

لست أدري إلى من ترفع هذه القضية . بل لست أرى ضرورة لأن يكون هناك قاض بعينه ترفع إليه الخصومة ليقضى فيها . فقد يجوز أن ترفع القضية إلى النقاد ، إن كان النقاد قضاة ، برغم إلحاح صديقنا « عوض » في أنهم شهود . وقد يجوز أن ترفع القضية إلى الفن ، إن كان الفن قاضياً ، برغم إلحاحي أنا في أن الفن لا يصلح للقضاء ولا يقدر عليه ؛ لأن القاضى يجب أن يعقل ، وليس للفن عقل ، ولأن القاضى يجب أن يريد ، وليس للفن إرادة ، ولأن القاضى يجب أن ينطق ، وليس للفن لسان .

وهذا الكلام قد يضحك ، ولكن من زعم أن الضحك حرام على الأدباء ، وأن الكاتب الأديب يجب أن يكون جاداً كلما تعرض للنقد أو للفن ! فالواقع أن الفن لا عقل له ، وإنما له عقول لا تحصى ، له في كل بلد ألف عقل وعقل . والواقع أن الفن لا إرادة له ، وإنما له إرادات لا تُعدّ ، له في كل بلد ألف إرادة وإرادة . والواقع أن الفن لا لسان له ، وإنما له ألسنة لا تحصى ، له في كل بلد ألف لسان ولسان . ولو أنى أردت أن أصور الفن وعقوله التي يفكر بها ، وإرادته التي يعزم بها ، وألسنته التي ينطق بها ، وأقلامه التي يقتل بها طوراً ويحرج بها طوراً آخر ويأسو بها طوراً ثالثاً ، لما وسعني إلا أن أتخيل ملكاً من هؤلاء الملائكة الذين تتحدث عنهم كتب الوعظ ، لكل واحد منهم سبعون ألف جناح ، وعلى كل جناح من هذه الأجنحة سبعون ألف ملك ،

إلى آخر هذه الصورة الجميلة الرائعة التي جاءت بها السير ، والتي تملأ قلوب الناس روعة حيناً وروعاً حيناً آخر . ذلك أن عقول الفن وإرادته وألسته وأقلامه هي كما يتصورها صديقنا الأستاذ طاهر الطناحي ، عقول أصحاب الفن وإراداتهم وألستهم وأقلامهم جميعاً . فاجتهد إذاً في أن تحصى أصحاب الفن منذ كانوا ، وفي أن تحصيهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، واجمعهم كلهم في ذهنك ، إن كان الذهن المحدود يستطيع أن يجمع غير المحدود ، وقل كما يقول الأستاذ طاهر الطناحي : إن هؤلاء الناس جميعاً هم الفن ، سواء منهم من ذهب ومن هو قائم ومن لم تلده أمه بعد .

الفن إذاً لا يصلح للقضاء ولا يقدر عليه . ومع ذلك فلست أرى بأساً في أن ترفع إليه هذه القضية ليقضى فيها إن وجد إلى ذلك سبيلاً . وقد يجوز أن ترفع هذه القضية إلى الجمهور الذي يؤمن صديقنا عوض بأنه هو القاضي والفيصل والحكم التزيه ، وإن كنت أرتاب في صلاح الجمهور للقضاء وقدرته عليه ، وأرى فيه مثل ما أرى في الفن من أنه كائن غريب ، تستطيع أن تصوّره القصص والأساطير ، ولكنه لا يستطيع أن يوجد ولا أن يجلس مجلس القضاء . وما رأيك في كائن يأتلف من المثقفين الذين خلقهم الله فيما مضى وفيما هو كائن وفيما سيكون من الزمان . تصوّر هذا الغريب وأجلسه في غرفة من الغرفات أو حجرة من الحجرات على كرسي من الكراسي . ثم ارفع إليه هذه الحصومة ليقضى فيها إن وجد إلى ذلك سبيلاً ، فليس عندي بذلك بأس . بل لا تضحك ولا تدهش إن قلت لك إنني ألقى هذه القضية إلقاءً ولا أنتظر فيها قضاء من النقاد ولا من الفن ولا من الجمهور ولا من أحد كائناً من كان . ألقها لأنني لا أجد من إلقائها بدءاً ، وأعرضها لأنني لا أجد عن عرضها منصرفاً ، وكل إنسان حر في أن يسمعها أو يُصمّ أذنه عنها ، وفي أن يقضى فيها أو يُعرض عنها إعراضاً ، فليس هذا يعنيني في قليل ولا كثير ، إنما الذي يعنيني هو أن أرفه على نفسي بإلقائها ، وأن أتخفف من ثقلها بالتحدث بها إلى القراء . وليست هذه القضية سهلة ولا يسيرة ولا نادرة ، وإنما هي عسيرة معقدة كثيرة الوقوع والتردد في حياتنا الأدبية الحاضرة ، وهي قضية جماعة من الناس يتكلفون الأدب وليسوا منه في شيء ، أو يصطنعون الأدب وهم أدباء ولكنهم لا يحرصون على النزاهة الدقيقة في صناعة تحتاج إلى النزاهة أشد الاحتياج .

هذا كاتب لا أعرفه ولا أريد أن أسميه ، لأني أخشى أن يقضى الفن عليه قضاء صارماً ، أو أن يناله الجمهور بما لا يطيق . هذا كاتب إذاً يتكلف الأدب ، إما لأنه يحبه ، وإما لأنه يجب أن يراه الناس أديباً . وأكبر الظن أنه يجب أن يرى الناس أديبه ، أو قل إنه يجب أن يرى اسمه مطبوعاً في صحيفة من الصحف . أرسل إلى هذا الكاتب في الأسبوع الماضي مقالا طويلا لا بأس به ، عن رجل من كبار الموسيقيين في القرن الثامن عشر . فلما قرأت المقال لم أر به بأساً وأذنت في نشره فأرسل إلى العمال . ولم يكده يصل إلى أيديهم حتى تقسموه فيما بينهم وأسرعوا إليه فصفوه صفّاً ، وهيئوه للمطبعة . ولكن صديقاً زميلاً أقبل على في آخر لحظة يقول : إن هذا المقال الذي أذنت في نشره وهيئ للنشر ليس جديداً ولكنه قديم ، قديم جداً ، قد نشر منذ عام أو منذ أكثر من عام ، وأنت الذي أذنت في نشره في الكوكب حين كنت تعمل فيه ، وقد نشر بشكله وجوهره وبإمضائه الذي يحمله الآن . قلت لصاحبي : ماذا تقول ؟ فيأني لا أذكر أني قرأت هذا المقال . قال : لم تقرأه أنت وإنما قرأته أنا ولخصته لك واستأذنتك في نشره فأذنت . قلت : فيأني أتهم ذاكرتك فأنتي بالبرهان . قال : أتهم ذاكرتي ما شئت فهذا هو الكوكب قد استحضرتة ، وهذا هو المقال قد نشر فيه ، فسرّ من شئت يقابل معي بين المقال الذي نشرناه منذ أكثر من عام وبين هذه الصورة التي أرسلت إليك لتنشر غداً . ولم نكد نمضي في المقابلة حتى تبين أن صاحبي لم يخطئ ، وأن صاحب المقال قد تعمد غيبتنا ، ولم يتخرج من هذا التضليل الأثيم .

ولم يكن بدّ من إلغاء هذا المقال ، ومن أن ندفع إلى العمال مقالا آخر ، ومن أن نكلفهم ما يكرهون من إعادة العمل ، ومن أن نكلف أنفسنا ما نكره من تأخير صدور الوادي عن مواعده . وأظن أن أمثال هذا الكاتب ليسوا قليلين ، وأظن أن منهم من يرى في هذا الصنيع لذة بريئة ، ولكنها آثمة في وقت واحد . بريئة لأن مصدرها غرور الأطفال ، آثمة لأنها سر على كل حال . وهي على كل حال نقيصة من النقائص التي تقومها التربية ويصلحها التأديب ، والتأديب الذي يعتمد فيه على استعداد الصبيان والشبان ، أكثر مما يعتمد فيه على السوط والعصا .

وهناك شبان لعلهم يعتمدون إلى مثل هذا في شيء من الفكاهة وحب

العبث يريدون أن يضحكوا من الصحف ومن رؤساء التحرير ، فيُدخلون عليهم فصولاً نُشِرت على أنها لم تنشر ، ويُدخلون عليهم فصولاً يضيفونها لأنفسهم مع أنهم ليسوا منها في شيء ، يقصدون إلى ذلك عمداً ، حتى إذا تم لهم ما أرادوا ، تندروا بالصحيفة وبرئيس تحريرها . قساة لا يعرفون رحمة ولا إشفاقاً ، ولا يقدرّون أن رؤساء التحرير أضيّق وقتاً وجهداً واطلاعاً من أن يلموا بكل ما نشر ، ومن أن يضيفوا كل شيء مكتوب أو منظوم إلى الذين كتبوه أو نظموه . على أن هناك لوناً آخر من هذا الفساد أشد منه خطراً فيما يظهر ، لأنه ليس فردياً ، وإنما هو اجتماعي بأدق معاني الكلمة وأوسعها ، وذلك أن الذي يجنى هذا الفساد ليس هو الفرد من حيث هو فرد ، بل هي الصحيفة من حيث هي صحيفة . وواضح أن الصحيفة ظاهرة اجتماعية لا فردية ، فهي ملك للجماعة وإن كان صاحبها فرداً . فهي إذا اتخذت الخداع والتضليل في الأدب أسلوباً من أساليبها ، فهي لا تخدع رئيس التحرير ولا تخدع نفسها ، وإنما تخدع القراء وتضلّهم ، وهؤلاء القراء آلاف حين تكون الصحيفة متواضعة ضيقة الانتشار ، وهم عشرات الألوف حين تكون الصحيفة كبيرة واسعة الانتشار . والأصل أن كل صحيفة سيارة يومية تصدر للناس جميعاً ، فهي إذا خادعت أو ضللت تخادع الناس جميعاً وتضلّل الناس جميعاً . وأذكر أن صديقاً لي كتب مقالا نشرته له في الكوكب عن كاتب إنجليزي كبير ، فلما مضى على هذا المقال عام أو ما يقرب من عام ، أو أشهر على أقل تقدير ، رأيت المقال قد نشر في مجلة سورية صديقة لم يستأذن صاحبها في نشره ولم ينقل من الكوكب ، أو بعبارة أدق لم يُضَفَّ إلى الكوكب ، وإنما نشر كأن صاحبه قد أرسله إلى المجلة مباشرة . والظريف أن صاحب المقال كان يرمز لاسمه بحرف من الحروف ، فأمضى المقال في نفس المجلة بنفس الحرف الذي أمضى به في الكوكب . وأقبلت المجلة من الشام ، وأصبحت ذات يوم فإذا المقال نفسه في صحيفة سيارة من الصحف الكبرى ، لم يُضَفَّ إلى المجلة السورية ولا إلى الكوكب المصرية ، وإنما نشر كأن صاحبه قد أرسله إلى الصحيفة نفسها مباشرة ، ونشر بنفس الإمضاء الذي نُشِر به في الكوكب وفي المجلة السورية !

سَمَّ هذا ما شئت وقل ما أحببت ، فهو على كل حال بعيد كل البعد عن النزاهة الأدبية ، وبعيد كل البعد عن النزاهة الصحفية ، وخلق أن يرفع

الأمر فيه إلى أحد هؤلاء القضاة الذين تحدثت عنهم أول هذا الفصل . ولا أريد أن أذكر القضاء الرسمي ، فأنا أحب أن يجتنب الأدب وأن تجتنب الصحافة خاصة مجلس القضاء الرسمي ما وجد إلى ذلك سبيلاً ؛ وحسب الأدباء وحسب الصحفيين أن تدفعهم الحكومات والنيابة إلى هذا المجلس المهيب وهم كارهون . ولون آخر من ألوان هذا الشر ، قد يكون في ظاهر الأمر مألوفاً سائغاً ، ولكني أعترف بأن الضمير الأدبي يجب أن يأباه وأن ينبو عنه ، وهو على ذلك شائع شيوعاً فاحشاً . ولست أذكر هذا الإثم الذي كثر وشاع وقبلة الناس حتى أصبح مباحاً أو كالمباح ، وهو اعتداء بعض الصحف على بعض في رواية الأخبار وأخذها بالمقص لتمتلي بها صحيفة فارغة على حساب صحيفة ممتلئة . فقد أصبح هذا الإثم خطيئة مباحة ، وجزءاً من الفن عند بعض الصحفيين . إنما أذكر نوعاً آخر من الاعتداء لا أستطيع أن أسيغه ، وأريد أن أعتقد أن كثيراً من الزملاء لا يسيغونه . ولست أشك في أن فريقاً منهم أعرفهم بأبونه أشد الإباء وينفرون منه أعظم النفور ، وقد كان مصدراً لشيء من الخصومة بيننا وبين زميلتنا الرسالة منذ أشهر .

فقرأء هذا الحديث يذكرون أن الأستاذ توفيق الحكيم كتب إلى عاتباً في بعض الأمر ، وخرج عن طوره في هذا العتاب ، فنشرت له عتابه ، ثم رددت عليه بما رأيت أنه يلائمه . ثم اعتذر الأستاذ توفيق الحكيم فنشرت له اعتذاره ، ثم التقينا وأغضينا عن كل شيء . وفي ذات يوم نظرت في الأهرام فإذا هي تعلن عدداً من أعداد الرسالة وتعلن أن لي في هذا العدد فصلاً ، ولم أكن قد كتبت في الرسالة في ذلك الأسبوع . فلما وصلت إلى الرسالة رأيتها قد أخذت من « الوادي » ردى على الأستاذ توفيق الحكيم دون أن تضيفه إلى الوادي ، ودون أن تستأذني في إعادة نشره ، فكرهت ذلك وضقت به ، وزادني كرهاً له وضيقاً به أن الأستاذ توفيق الحكيم ظن أني طلبت إلى الرسالة أن تعيد نشر هذا الفصل ؛ لأنني معجب به ، أو لأنني لم أكن صادقاً حين أظهرت الرضا وأغضيت عما كان بيننا من خلاف . والله يعلم لقد نسيت الفصل بعد نشره في الوادي ، وما تعودت الإعجاب بشيء أكتبه فضلاً عن أن أطلب إعادة نشره في صحيفة أخرى . والله يعلم ما تعودت أن أظهر الرضا للأصدقاء وأضمر السخط عليهم ، ولا أن أقبل بينهم وبينى صلحاً مدخولاً . وإذا فقد

كان عتاب منى للرسالة ورد من الرسالة على ، وخصوصة لم تنقض بعد . وإنما عدت إلى ذكر هذه الخصومة وقصتها لأن الرسالة نفسها هي التي اضطرتني إلى هذه العودة ، لأنها عرضت لي ، فهي لم تعرض لي في هذه الأسابيع بخير ولا شر ، ولكن لأنها عادت إلى شيء يشبه ما تورطت فيه معي من هذه الخصومة ؛ فقد احتفلت لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ حين ببلوغها سن العشرين ، وأصدرت كتاباً تذكاريًا صغيراً فيه فصول عن اللجنة وحياتها وأعمالها لبعض الأصدقاء . وقد وزع الكتاب علينا يوم الاحتفال ، ولم نكن كثيرين ، وكنا نحب لهذا الكتاب أن يكثر الذين يأخذونه ويقرءونه ، ليكثر الذين يعلمون من أمر لجنتنا ما نحب أن يعلم . ولم تمض أيام على هذه الحفلة وإذا أنا أنظر في الرسالة فأرى مقالا للأستاذ أحمد زكى عن لجنة التأليف والترجمة والنشر . وإذا هذا المقال قد أخذ من هذا الكتاب التذكاري أخذاً دون أن يذكر هذا الكتاب أو يشار إليه . ثم تصدر الرسالة أول من أمس فأرى فيها فصلاً آخر للأستاذ أحمد أمين ، فإذا هو قد أخذ عن هذا الكتاب أخذاً دون أن تذكر الرسالة هذا الكتاب أو تشير إليه . والغريب أن الأستاذ أحمد أمين كان أتى علينا هذا الفصل يوم الاحتفال قبل أن يوزع علينا الكتاب بلحظات . وأكبر الظن أن الرسالة تريد أن تمضى في نشر هذه الفصول التي اشتمل عليها هذا الكتاب دون أن تذكر الكتاب أو تشير إليه حتى تأتي على آخر هذه الفصول . هذا كثير ، وهو خليق أن تضيق به الرسالة نفسها لو أن صحيفة أخذت بعض فصولها أخذاً ولم تضيفها إليها . وأيسر ما ينبغي للأدباء وللصحافيين أن يضيفوا إلى الناس ما يأخذونه عن الكتب والصحف .

ولون آخر من ألوان هذا الشر لاحظته كاتب أديب من أهل الإسكندرية على بعض الكتاب ؛ فقد نشر بعض الكتاب فصلاً في البلاغ منذ حين ، فلما قرأه أديب الإسكندرية ذكر أن له به عهداً ، فلما استقصى تبين أن هذا الفصل نفسه قد نشر في مجلة التربية الحديثة التي تنشرها الجامعة الأمريكية . وفي هذا النوع من الشر ، عبث بالصحيفة التي أعيد فيها نشر المقال دون أن تعرف أنه قد نشر من قبل ، وعبث بالقراء الذين كان من حقهم على الكاتب أن ينبههم بأنه يعيد لهم نشر مقال قد نشر من قبل في مجلة لا يقرؤها إلا فريق بعينه من الناس .

هذه الألوان المختلفة من الشر تشترك كلها في شيء واحد ، هو أنها تصدر عن ضمير أدبي يحتاج إلى أن يعظم حظه من نزاهة الأدب . وكنت في أول هذا الفصل أبحث عن القاضى الذى يمكن أن ترفع إليه هذه الخصومات ، ولكنى لم أفرغ من تسجيل الخصومات نفسها حتى اهتديت إلى القاضى ، وهو ضمير الأدباء أنفسهم . فن الناس من يحتاج إلى السوط والعصا ، ولكن منهم الأحرار الذين تكفيهم المقالة ، كما يقول الشاعر القديم ، وأنا أشهد أن أدباءنا كلهم أحرار . وأرجو ألا ينكر علىّ هذه الشهادة أحد لعله أن يكون أعلم منى بشئون الأدب والأدباء .

| | |
|--------------------|----------------|
| ١٩٨٩/٥٠٩١ | رقم الإيداع |
| ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٦٩٦-٣ | الترقيم الدولي |

١/٨٩/١٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

كتب أخرى للمؤلف

- في المباحث الإسلامية :
- في الأدب والنقد :
- في الأدب الجاهلي
- حديث الأربعاء (٣ أجزاء)
- مع المتنبي
- من حديث الشعر والنثر
- في أدب التمثيل :
- في القصة والرواية :
- الحب الضائع
- شجرة البؤس
- المعذبون في الأرض
- في التراجم والسير :
- على هامش السيرة (٣ أجزاء)
- عثمان
- الشيخان
- الأيام (٣ أجزاء)
- في الاجتماع :
- في التربية :
- في سلسلة اقرأ :
- مرآة الإسلام
- فصول في الأدب والنقد
- تجديد ذكرى أبي العلاء
- مع أبي العلاء في سجنه
- ألوان - جنة الشوك
- من الأدب التمثيلي اليوناني
- دعاء الكروان
- صوت باريس
- ما وراء النهر
- الوعد الحق
- على وبنوه
- قادة الفكر
- أديب
- نظام الأثينيين
- مستقبل الثقافة في مصر
- الحب الضائع
- رحلة الربيع
- صوت أبي العلاء
- أحلام شهر زاد
- الوعد الحق
- المعذبون في الأرض

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story